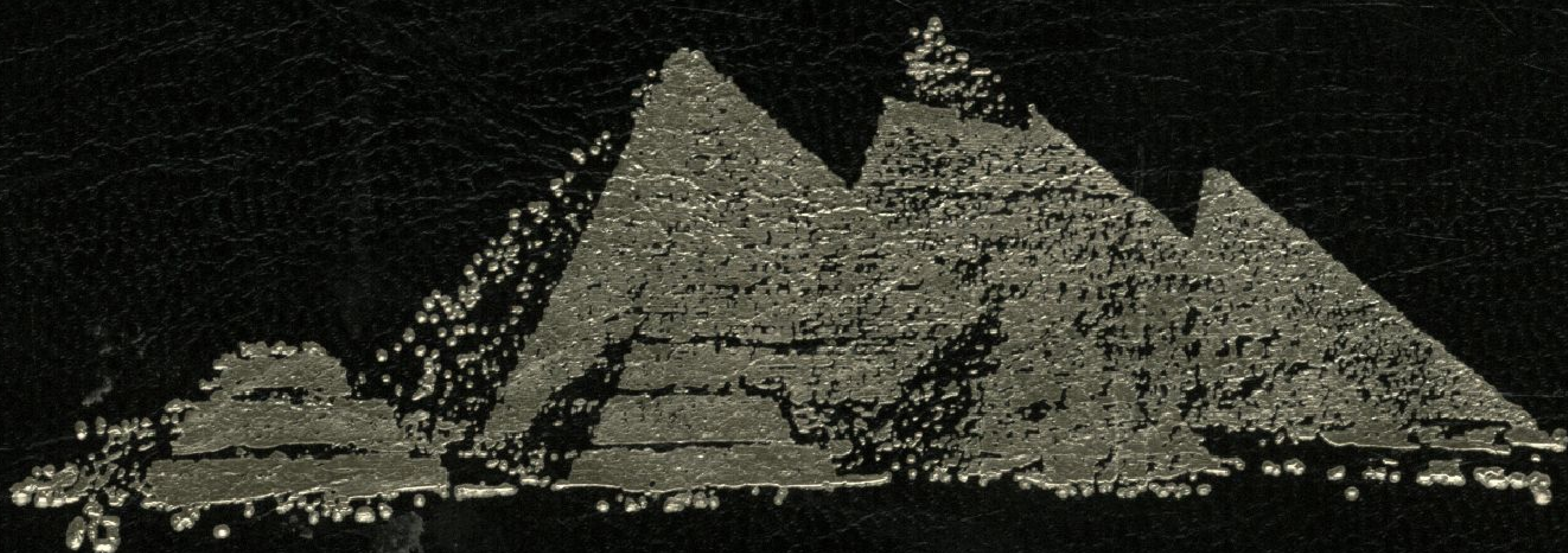
مَوْسُوعَة

عُظَمَاءُ فِي تَارِيخِ مِصْرَ





عظماء

في تاريخ مصر

(١)

موسوعة

عظماء في تاريخ مصر

المجلّد الأول

إبراهيم باشا - 1 -

١٨٤٨ ـ ١٩٤٨

مجموعة مؤلفين

دار نوبليس

اسم الموسوعة:	عظماء في تاريخ مصر
اسم الكتـــاب:	إبراهيم باشا - ١ -
المؤلـــــف:	مجموعة مؤلفين
قياس الكتـاب:	١٧ × ٢٤
عدد الصفحات:	٢٤٤
عدد صفحات الموسوعة:	٤٢٣٦
مكـان النشـر:	بيروت
دار النشر والتوزيع:	دار نوبليس
تلفاكس:	٧٥ ٣٤ ٥٨ (١) ٩٦١
هاتـف:	٢١ ١١ ٥٨ (١) ٩٦١ - ٢١ ١١ ٥٨ (٣) ٩٦١
صندوق بريـد:	٧٠ ٦٩ ١٦ بيروت لبنان
بريد إلكتروني:	info@nobilis-int.com
الطبعة الأولى:	٢٠١٢

EAN 9786144031346

ISBN 978-614-403-134-6



البطل الفاتح ابراهيم باشا

المحتـــويات

صفحة

القسم الأول — التاريخ السياسى

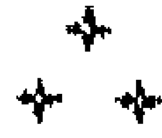
القسم الثانى — التاريخ الحربى

كلمة حضرة صاحب المعالى
الدكتور عبد الرزاق أحمد السنهورى باشا
وزير المعارف العمومية

تهيأت للجمعية الملكية للدراسات التاريخية مناسبة من أكرم المناسبات لتتقدّم بباكورة أعمالها للناس . ويشرفنى ويسعدنى أن أقدّم لهذه الباكورة الصالحة . ولعل الجمعية لا تجد مناسبة أكرم من ذكرى انقضاء مائة من الأعوام على وفاة إبراهيم ، بطل مصر العظيم ، للتقدّم بأوّل ثمرة من ثمار جهودها الموفقة المباركة . وإنى لأذكر اليوم الذى توج فيه مرسوم إنشاء الجمعية بالتوقيع الملكى الكريم ، وأذكر معه ماخالج القلوب من أمانىّ رحيبة ، وما طاف بالنفوس من آمال واسعة ، تعلقت جميعا بهذه الجمعية الكريمة التى ضمت فيمن ضمته الأفذاذ من رجال التاريخ فى مصر ، وقد صحت عزيمتهم على أن تتآلف جهودهم ، وتتكافل قواهم ، لينشروا على الناس تاريخ مصر القومى القريب والبعيد ، مكتوبا بأقلام جمعت إلى الدقة التاريخية ، والأمانة العلمية ، قوة التحليل ، وروعة العرض ، وحرارة الإيمان بالوطن .

وها قد بدت تباشير تؤذن بأن ما كان أمنية بالأمس أصبح اليوم حقيقة واقعة . وها نحن نشهد عملا جليلا بدأت به الجمعية أعمالها . وقد اكتمل لها التوفيق ، فعمدت إلى صفحة من أروع صفحات التاريخ المصرى الحديث فنشرتها ، وإلى بطل من أعظم أبطال مصر الحديثة فألقت ضوءا قويا على سيرته المجيدة ، وهى حافلة بالعظائم ، مليئة بالمفاخر ، بطل ألقت الأحداث فى يديه القويتين أقدار البلاد ، فأدار دفتها ، وسار بالسفينة بين الأمواج الصاخبة والعواصف الهوجاء ، حتى قادها الى بر الأمان . وها نحن نقرأ فصولا ممتعة فى تاريخ إبراهيم ، دبجها يراع طائفة من كبار المؤرّخين ، وكل فصل حوى تاريخ حقبة من حياة هذا الرجل العظيم . فاذا أنت بدأت فى قراءة الفصل الأوّل من هذا التاريخ الزاخر بالأمجاد لا تكاد

تصبر حتى تأتى على آخر فصل فيــه ، وأنت تنتقل من ناحيــة الى ناحية فى تاريخ رجل وسعت عظمته أن يكون القائد المظفر، والسياسى المحنك، والإدارى الحازم، والمصلح الحكيم . كل هــذا فى أسلوب علمى رصين ، يأخذك منه دقة التحليل ، وأمانة العرض، وسمو المعنى، وإشراق الديباجة، وسلاسة اللفظ. فلا تملك إلا أن تحمد للجمعية ما قدّمت ، وللكتّاب الذين ساهموا فى صنع هذا الأثر الجليل ما بذلوا من جهد موفق، وما قاموا به من عمل مشكور .



وبعد فلا يسعنى، وأنا أقدّم لكتّاب تذكارى فى تاريخ ابراهيم ، إلا أن أحيى، ولو فى كلمة موجزة ، هذا البطل العظيم . وها قد مضى على وفاته مائة من الأعوام وذكراه لا تزال النفوس بهــا مغمورة، والقلوب بها عامرة . بل إن ذكراه لتتجدّد كل يوم فى هــذه الحقبة من التــاريخ التى نعيش فيها الآن، ونحن نرى الجيــوش المصرية المظفرة تخوض المعارك مرفوعة الأعلام فى سبيل المجد العربى، وفى سبيل الوحدة العربيــة . فنحن اليوم ، وبعد قرن كامل ، نحاول تجديد أيام ابراهيم ، وهو البطل الذى عمل للاستقلال العربى بعــد أن زال هذا الاستقلال ، وللوحدة العربية بعد أن انفرط عقد هذه الوحدة . فما أشبه الليلة بالبارحة ...

بدأ إبراهيم مجده العسكرى فى الصحارى العربية . وأتم هــذا المجد فى الوديان والسهول العربية . اذا لم يكن ابراهيم عربىّ المولد، فأنه عربىّ النشأة والموطن، عربىّ اللغة والعاطفة، عربىّ المجد والعظمة، "أتى مصر طفلا فغيرت شمسها دمه بخرى عربيا" .

جاء ابراهــيم فى عصر كانت الأمة العربيــة فيه قــد نسيت نفسها ، فانحلت روابطها، واندكت صروح مجــدها ، وعثرت وبلح بهــا العثار . فقاد جيشا مصريا عربيا الى مواطن العزة والمجد، وحرر البلاد العربية من نير شديد الوطأة، وايقظ الوعى العربى من سبات عميق ، وأطلق الروح العربيــة من عقالها التى رسفت فيه

قرونا . ولولا تألب الدول الغربيـة بالأمس ، كما هى تتألب اليوم ، لأعاد للعرب مجدهم القديم ، ولجدد الامبراطورية العربية شامخة المجد ، عالية الأركان .

فاذا ذكرنا ابراهيم بعد مائة عام من وفاته ، فلأن روحه العربيـة الجبارة هى التى تسيطر اليوم على تفكيرنا ، وتملك علينا عقولنا ، وتوجه الأمة العربية الى طريق الوحدة ، وتقودها نحو المجد والظفر .

وقبل أن يكون ابراهيم بطلا عربيا ، كان رجلا عظيما . وقبل هذا وذاك كان إنسانا وفيا .

كان إبراهيم رجلا عظيما . فقـد أثبت منذ الحمـلة الوهابية ، وهو فى مقتبل شبابه وفى مطلع مجـده الحربى ، أنه جد خبير بسياسة الرجال ، وأن عقله الجبار أكبر بكثير من سنه الغضة ، وأن السر فى عظمته هو نفس السر فى عظمة أبطال التـاريخ جميعا : إرادة قوية تدك الحصون ، وعزيمة من حديد تهـد الجبال ، وصبر على المكاره لا ينفذ ، وثبات على الشدائد لا يتزعزع .

وكان ابراهيم إنسانا وفيا . ولعل أروع صفحة فى تاريخ ابراهيم هوشعوره النبيل نحو أبيه العظيم : حب قوى ، وإخلاص عميق ، ووفاء نادر . ولم يرو التاريخ سيرة رجلين عظيمين ، ربطتهما أواصر الدم ، وجمع بين قلبيهما الوفاء والحب ، ووثقت من صلاتهما الذكريات المجيدة ، واقترن مجد الواحد بالآخر دون أن يغض منـه أو ينتقص من مكانته ، مثـل ما روى من سيرة محمـد على الكبير ومن سيرة ابراهيم العظيم . لقد سعى الخصوم بالقطيعة بين الولد وأبيه ، ولكن حب محمد على لولده ، ووفاء ابراهيم لأبيه ، كل هذا كان عاصما للوالد والولد ، فبقى حب كل منهما للآخر خالدا على الدهر ، وبقى إخلاص كل منهما للآخر ثابتا لا يتزعزع . وكان هـذا مثلا فذا لا ينقل التاريخ له نظيرا .

فسلام على ابراهيم البطل العربى . وسلام على ابراهيم الرجل العظيم . وسلام على ابراهيم الانسان الوفى .

كلمة حضرة صاحب السعادة محمد طاهر باشا
رئيس الجمعية الملكية للدراسات التاريخية

انقضت مائة عام على وفاة رجل اختاره القدر ليكون المنفذ لمشروعات والده العظيم محمد على الكبير مما كان قد يصل بالحدود المصرية وتخومها إلى ما سجله لها تاريخها المجيد فى سابق الأزمان .

فوفاء لتلك الذكرى المجيدة تقدم الجمعية الملكية للدراسات التاريخية للرأى العام المصرى والشرقى هذا الكتاب الذى يبحث فى تاريخ حياة إبراهيم وجليل أعماله ليرى القارئ فيه صورة بارزة لشخصيته الفذة التى جمعت مع قدرة القائد العظيم كفاية الإدارة والنظام .

انتهزت جمعيتنا تلك الفرصة المجيدة السانحة لتبرز أول مجهود لأعمالها وهو هذا المؤلف فأحيت فيه شخصية خالدة فى التاريخ بعظيم أعمالها الجليلة ورخاء مواهبها و بغزارة شعورها بما يوحى اليها من المعرفة بالواجب وأدائه على الوجه الأكمل حتى جعل له أبعد الأثر وأفعله فى عصور آبائنا وعصرنا بل ولعصور أبنائنا .

فلنتخذ حياة القائد العظيم ابراهيم مثلا نقتدى به ونبراسا نسير على هديه لنصل بعده إلى عصر الإصلاح الاجتماعى والوعى الصحيح القومى الذى نتوق إليه ونسوق ركبنا الى الحصول عليه .

و بما أن الأقدار التى يعجز الإنسان عن إدراك كنهها قد حرمت ابراهيم من أن يرى ثمر كفاحه فان ذكراه باقية لنا تدفعنا إلى الأمام وتثبت فينا روح العمل بشجاعة ورجولة خليقة بذكراه لمواصلة الجد نحو المجد والنصر .

وكان إشارة يد تمثاله القائم فى عاصمة بلدنا العزيز وفى الميدان المسمى باسمه ترشد أبناء وأحفاد من قادهم إلى المجد إلى طريق الواجب والتضحية .

مقدمة الكتاب

ابراهيم باشا وبناء النهضة المصرية

للأستاذ محمد شفيق غربال بك

وكيل وزارة المعارف ونائب رئيس الجمعية الملكية للدراسات التاريخية

هـذا الكتاب تحية إعجاب ووفاء وتقدير، يقدمها لمقـام البطل الفاتح ابراهيم المؤرخون من مصر ولبنان . وهم بذلك يساهمون فى إحتفال مواطنيهم بذكراه المجيدة .

ففى مثل هـذا الشهر من عام ١٨٤٨ انتقـل والى مصر ابراهيم باشـا الى دار البقاء ، بعـد أن سجل لبـلاده نصرا عظيما فى صفحة الخـلود . وحق على مصر الناهضة الوفيـة أن تحيي ذكرى مفـاخره ومآثره، وأن تشيد بهـا الآن وعلى مر السنين . وليكن رائدها فى هـذا وأمثاله تلك الحكمة الرائعـة المأثورة عن مليكها الراحل « فؤاد الأول » :

" لا يفقه شعب ما سر مستقبله قبل أن يتنبه شعور "
" الاحترام فيـه لمآتى أجداده ويدرك مآثر أبطاله . "
" فهنا وهنـا فقط يستطيع أن يبلغ ذروة الرقى . "

وكتابنا هـذا ثمرة من ثمرات غرس فؤاد الأول . فقـد أمر بجمع ما بقى من وثائق عصرى محمـد على الكبير والخديو اسماعيل ، ورسم بأن تعـد الإعداد الفنى الذى تتطلبه الدراسة العلميـة ، وبث فى حفظتهـا من روحه السمحة . وبدأت بذلك من فيضه نهضـة تاريخية ، ترى آثارها فيما نشر وفيما سينشر من الدراسات التاريخية القيمة .

وكان الملك فؤاد الأول فى أحاديثه مع المؤرخين يرسم لهم الخطة المثلى للبحث التاريخى . إذ كان يؤمن بأن إظهار الحقيقة هو الغاية الأولى للمؤرخ ، كما أنه كان موقنا بأنه كلما ازداد الباحث تعمقا فى درس الأصول التاريخية لعصر "الوالد الأكبر" — كما كانت تحلو له تسمية جده العظيم — كلما ازداد إعجابا بشخصية المصلح الكبير وأعماله ، إعجابا يقوم على الفهم الصحيح .

وأن هذا الفهم الصحيح لا يتسنى إلا بالرجوع للأصول .

وأن المؤرخ ليحمد الله على وفرتها ؛ وذلك أن طريقة محمد على فى الحكم والإدارة استلزمت قدرا كبيرا من المضابط والمحاضر والخلاصات واليوميات والتقارير ، يتمكن المؤرخ بواسطتها من تتبع المسألة الواحدة من العامل الصغير للمجلس الكبير ومقر السلطان ، ومن القرية النائية لمسند الولاية ، وهذه هى مادة التاريخ .

وأن كل ما فى هذه المادة لله قيمته . والمتعسف من المؤرخين هو الذى يعد تافها ما لا يتعلق بالسياسة العليا وما لم يصدر إلى السلاطين أو ممثلى السلاطين . فإن دفترا من دفاتر المحفوظات يدلنا على أرزاق الجند وطعامهم ولباسهم لهو وثيقة لها خطرها ، ولا يستطاع كتابة تاريخ الجيش المصرى إلا بها وبمثيلاتها . وقس على ذلك سائر الشئون .

وفصول كتابنا هذا تقوم على الوثائق الأصلية ، وبصفة خاصة على الأوراق التى استخلصها الدكتور أسد رستم — مؤرخ العلاقات بين مصر والشام فى عهد العزيز محمد على — من المحفوظات الملكية بقصر عابدين العامر ونشرها برعاية حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، أعزه الله تعالى ، فى أربعة مجلدات ضخمة . وأن مؤلفى هذا الكتاب ليهزهم الفخر أن يصدر مؤلفهم هذا فى عهد الفاروق الزاهر ، منشئ الجمعية الملكية للدراسات التاريخية وحافظها وراعيها ، حفظه الله ورعاه . وهم جميعا يؤمنون على قول أحدهم ، الدكتور أسد رستم :

" إلى حين هيئت لى الأسباب لدرس المحفوظات الملكية تركت لى معها الحرية التامة لأصل إلى ما أريد منها ، وأستقل فى وضع دراساتى فيها دون قيد أو شرط . وهذا منتهى ما بلغ اليه العلم من الحرية على ممر العصور " .

* * *

وأن الشهادة التى تشهد بها أوراق المحفوظات الملكية المصرية لمما يستطيع القارئ أن يطمئن إليه كل الاطمئنان . فهى أقوال المسؤولين من رجال الإدارة وقد دُونت فى زمن وقوعها . ولم يقصد بها قائلوها أية مصلحة شخصية أو دعاية عمومية لأنها كانت سرية أو على الأقل غير مباحة للجمهور .

ولعل أهم ما كشفت عنه الأوراق صورة دقيقة جلية لشخصية ابراهيم فى أدوار حياته ، منذ أيام الصبا عند قدومه لمصر بعد أن استتب الأمر فيها لأبيه فدور الشباب إلى الكهولة ؛ وهى شخصية إنسان موهوب ، تنمو وتترعرع فى يد أب عبقرى ، وفى وطن خليق بالأبطال ، وفى ساعة من الزمان حقيقة بالبطولة .

وما كان ابراهيم إلا المثل الكامل لتلك الصفوة من الرجال التى عمل محمد على عملا متواصلا على تنشئتها وتربيتها وتكوينها . وكانوا جميعا على اختلاف أصولهم يتفقون معا فى شىء واحد ، فى أنه لهم هو ولى النعم . تعهدهم بالتعليم ، وقلدهم المناصب ، وعهد إليهم بخططه ، ونفث فيهم من همته وآماله ، وأنعم عليهم ورفع قدرهم . وقد وضع علاقته بهم لا على أساس السيد والمسود بل على أساس آخر: علاقة الأب بأبنائه . يأخذهم باللين أحيانا وبالشدة أحيانا أخرى ، كما يأخذ الأب أبناءه باللين والشدة . وهذه أوامره الحكومية قل أن تجد لها شبيها فى أوامر الحكومات ، فكانت فى جمعها للنصح والترغيب والترهيب وضرب الأمثال والإشارة إلى أن منفعة الرعية أو مجد الوطن متوقف على ما نيط بعمال الحكومة أداؤه صورة صادقة لشخصية هذا العاهل الكريم . وهذه أيضا طريقته الإدارية ، جعل لكل شأن من الشؤون العامة ديوانا . وكان لا يتخذ قرارا فى مسألة ما

إلا بعد أن يستمع لآراء المجلس المختص بها . ذلك لأنه لم يكن حاكما فحسب ، بل كان طوال مدته مربيا ومكونا للرجال . تحدث مرة إلى رؤسائهم فى اجتماع تاريخى فقال : "إن المماشاة والموافقة فى الأمور المضرة بالمصلحة والأصول الموضوعة من أعظم الجرائم فيجب الاجتناب عن ذلك . حتى إذا كنت آمر أحدكم شفاها أو تحريرا بقولى له أجر المادة الفلانية بهذه الصورة وحصل منه اعتراض على وذكرنى وأفادنى شفاها أو تحريرا بأن المادة المذكورة مضرة فهذا يكون منه عين ممنونيتى الزائدة" .

وشاء سعد الطالع أن يحقق ابراهيم فى نفسه وفى أعماله كل ما كان أبوه يأمله ويرجوه . كره ما كان يكرهه أبوه ، فكان يمقت « الشعوذة والغفلة والرخاوة والغرض والضغينة والمحاباة » ، ونشأ وعاش صريحا جادا مترفعا عن الدنايا مقدسا للنظام « على أساس الانصاف والانسانية والكياسة والعدالة والاجتهاد والغيرة » . لا يأنف من أن يتعلم ما لم يكن يعلم ، فوقف وقفة الجندى فى « طابور » التعليم وجلس جلسة التلميذ ، وخالط واستعلم واستمع الى أحاديث الكتب وأقوال الرجال . يشارك فى وضع الخطط ، ويقوم بالتنفيذ ، « لا يماشى ولا يوافق » على ما لا يراه غير محقق للصلحة العامة . بل يقول ما يراه . وقد يتمسك برأيه ويصر إصرارا بلغ فى بعض الأحايين أنه طلب الإعفاء من الرياسة مع البقاء مؤديا للواجب فى صفوف الجنود . ترك الراحة وتحمل المشاق ، وتجلد لبث العدل وتشييد العمران للأعقاب والأخلاف .

لقد تجلت عظمة ابراهيم فى فن القيادة العسكرية ، ولكن فيم تختلف صفات القائد الكبير عن صفات الحاكم القدير ؟ إن صفات العزم والحزم والتدبير والجد وسعة الأفق وحسن التصرف وإدراك العواقب ولطف الحيلة ودقة فهم الطبيعة البشرية والإحسان الى المحسن ومؤاخذة المقصر ، كل هذه من مستلزمات النبوغ فى فنى الحرب والحكم . لقد تجلت هذه الصفات فى ابراهيم قائدا ، أفلا يحق لنا

أن نأسى — نحن المصريين — أن القدر لم يتح لابراهيم أن يخلف أباه بعـد أن تشرب روحه وأخلاقه ، وتعلق بخططه ومراميه وآماله ، وعاونه فى بناء النهضة المصرية زهاء خمسين عاما .

ولئن كان من سـعد الطالع أن كان لمحمد على ابراهيم ، فقد كان من سـعد ابراهيم القائد العسكرى أن كان وراءه محمد على . وأى قائد لم يشك تدخل الاداريين والسياسيين وتحدث النـاس فيما لا يفهمون وتحـكم البعيدين عن مواطن القتـال فى الخطط والأعمال الحربية ؟ لقـد شكوا جميعا اللهم إلا أولئك الذين جمعوا بين الملك والقيادة ، وكم هم ؟ لقد شكى ابراهيم أيضا ، ولكن المنصف لا يسعه إلا أن يعـدّ شكواه نتيجة لوهن البـدن والأعصاب من فـرط ما لقى وما لاقى . فكان فى الواقع حرا فى وضع خططه ، طليقا فى تصرفه ، تلبى حكومة أبيه كل ما يطلب من مال ورجال وعتاد .

أجل . لقد كان محمد على سعيدا حقا بابراهيم وكان ابراهيم سعيدا حقا بأبيه .

* * *

فى سنة ١٨٠٥ ، قبل محمد على اجتماع كلمة الناس عليه وتولى باشوية مصر . ولكنه قبلها على أن يسير فيها على منهج من وضعه .

وقد أدرك منذ اللحظة الأولى أنه لم يتول أمر باشوية ، بل جلس على عرش مملكة عظيمة ، كل ما حوله فيها يشهد بما كان لملوكها ، وأن عناية الله سلمته حكم أمة واحدة يدرّ نيلها الفيض العميم . كما أدرك بالفكر الثاقب الذى وهبه الله أن لابدّ لحكم مصر من انتهاج مناهج جديدة ، وهدته مواهبه السياسية لسياسة جديدة يحقق بها رجاء الناس فيه ، فيصون أرواحهم وأعراضهم وأموالهم ويرتقى بهـم درجات إلى ما لم يكونوا يهـدفهون . ورأى أن ذلك لا يحتمل التأجيل وأن إعزاز مصر والإسلام يتطلب العمل السريع : القوة التى تصـون الكرامة ، قوة الحديد والعلم والمـال .

ولقد عرف محمد على أيضا السياسة الكبرى فى طور عنيف من أطوارها : عصر الثورة الفرنسية والفتوح النابليونية ، ففى حقبة قصيرة من أحقاب الزمان تجمع الشىء الكثير من العناصر الأساسية فى تشكيل العلاقات بين الأمم : تسخير قوى الإنتاج وتنظيمها وتنسيقها وتوجيهها لتحقيق غايات قومية ، خريطة أوروبا تطوى وتنشر ، مبادئ هدامة ، عروش تقوض وأخرى تقام ، التفوق البحرى البريطانى ، تدخل روسيا فى شؤون أوروبا ، العالم العثمانى تحت رحمة الأقدار .

بهرته الحركة وصادف ذلك هوى فى نفس مشرئبة طموحة . فعوّل على أن تكون ديدنه ، واعتزم أن يكون دائما البادئ ، لا المنتظر .

وكان مما لا بدّ منه فى أوّل الأمر أن يقيم بناء الحكومة على أساس جديد . إن مصر لابدّ أن تتولى أمورها سلطة عامة واحدة . فإن تجزئة السلطان وتشتيته السائدين قبل أيامه أدّيا إلى انعدام فكرة الحكومة انعداما يكاد يكون تاما فنتج عن ذلك تكوين العصابات الخاصة المسلحة ، ونتج عن ذلك إهمال المرافق العامة ، ونتج عن ذلك أن كل من يستطيع وضع يده على أموال عامة يفعل ذلك دون تردّد ، بل ونتج نوع من التفكير يعتبر أن الحكومة ما هى إلا مشاركة ومقاسمة فى الأرزاق وإن شئت قل نهبا .

وإذا شئنا أن نجمل وصف مراحل إنشاء السلطة العامة على يد محمد على وأعوانه قلنا إن المراحل الأولى كانت مراحل الكشف والضبط والتحقيق والتصفية وبخاصة فى أمور الالتزامات ، أما المراحل الثانية فكان فيها الانتقال من الالتزام إلى الحجر — ثم يأتى بعد ذلك دور تحويل الحجر إلى وسيلة قوية للانتاج الجديد ، للثورة الاقتصادية المصرية .

وقد بدأ إبراهيم حياته العامة فى مرحلة الكشف والضبط والتحقيق والتصفية . بدأها وهو لا يزال بعد فتى غض الإهاب ، فقام بالفحص فى الصعيد وشارك فى العملية الكبرى : عملية فك الزمام التاريخية .

وكان إبراهيم فى عمله هذا خشنا خشونة الإجراء كله . ولكن لم يكن هذا إلا وسيلة الخروج من الفوضى والفقر والضعف إلى النظام واليسر والقوة ، فإن الفساد القديم أدى الى فقر الجميع ، حكاما ومحكومين ، وإلى وجود نوع من الحكومة لا تملك مالا يمكنها من أن تنشئ قوة حربية نظامية أو تطهر ترعة أو تصون جسرا .

وقد أكسب إبراهيم عمله الأول فى الإدارة المالية خبرة بشئون الفلاحة المصرية تكاد تبلغ خبرة أبيه بها . وعمل فى خدمة الزراعة المصرية فى ممتلكاته الخاصة وفى مداولات مجالس المشورة التى تولى رياستها فيما بين فترات الجهاد أعمالا تناولها الدكتور أحمد الحته فى فصل خاص من فصول هذا الكتاب . بل وكوّن لنفسه فى السياسة المالية — وبخاصة ما تعلق منها بالأموال على الأراضى الزراعية آراء تخالف ما كان عليه العمل جاريا . قال فى رسالة لوالده ، تاريخها غاية جمادى الآخرة سنة ١٢٥٥ (٩ سبتمبر سنة ١٨٣٩) ، حين فكر محمد على فى تخفيض عام فى المصروفات لإيجاد الموازنة بين الإيراد والمصروف : " وتستدعى الحالة أن يعاد النظر فى شئون مصر كلها لتنظيمها من جديد فإنى وإن كنت واقفا على أحوال المديريات من قبل إلا أننى اكتسبت معرفة تامة فى شئون الفلاح منذ أن التزمت القرى لكى أختبر الوسائل المؤدّية الى عمار مصر بنفسى ... وقد دفعت لتكاليف هذه القرى التى التزمتها ما كسبته منذ خمس وثلاثين سنة وما زال علىّ كثير منها أى أننى دفعت لأجل أموال الأطيان الكائنة فى مديرية الغربية وبقاياها لسنة ٥٤ مبلغ ثلاثين مليون قرش ونصف مليون ومع ذلك علىّ مليونا قرش ونصف مليون عن أموال هذه السنة وبقاياها وكيف إذن يطيق الفلاح هذه التكاليف الباهظة وكيف يقوم بتسديدها ... ويظهر جليا مما ذكرت ما هو عليه الفلاح من سوء الحال ، وهذا ما يجعلنى أظنّ أن الأولى تأجيل موضوع تخفيض المصروفات الى حين انتهاء مسألتنا [مسألة العلاقة بالدولة العثمانية] ثم نطلب الدفاتر من الدواوين كلها ديوانا ديوانا ومن المديريات مديرية مديرية فيبحث فيها بحثا شاملا وتنظم شئون مصر كلها

على ضوء مايؤخذ منها من المعلومات ، ومع هذا كله فالرأى الأعلى لمولانا فإنه أدرى منى فى الشئون كلها " .

[أسد رستم : المحفوظات الملكية المصرية المجلد الرابع ، ص ٢١٨ — ٢١٩]

وكوّن إبراهيم أيضا لنفسه آراء فى سياسة التعليم ، فنزع الى أن يتخذ من التعليم أجدى الوسائل للارتقاء بالشعب ، واهتم بصفة خاصة عندما حمل عن أبيه عبء الحكم بافتتاح مكاتب لتعليم الناس أطلقوا عليها اسم "مكاتب الملة"، على نحو ما كان موجودا فى ذلك الوقت فى فرنسا وانجلترة لتعليم أبنـاء الشعب " من أقرب طريق وفى أقصر وقت " . فلمكاتب الملة غرض جديد غير غرض المدارس الابتدائية ، فليس الغرض منها إعداد التلاميذ للدراسة التجهيزية . بل الغرض منها توفير قسط من الثقافة لسواد الشعب . ولكن هذه الحركة المبشرة بالخير ماتت بموت إبراهيم .

[أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم : ص ٤٨ ، ٤٩ ، ١٤١]

* * *

وكان قلب إبراهيم — على نحو ما رأينا — يفيض عطفا على عامة الشعب ، ولا بدع فقد خالط وعاشر أشرف ممثلى الشعب المصرى : الفلاح والجندى ، وخبر عن قرب ما يستطيعه الفلاح المصرى والجندى المصرى .

كتب لأبيه فى أثناء حصار عكا ، عندما أذيع أن السلطان قد جيش الجيوش لدفع الجيش المصرى عن أسوارها : " ومهما بعثوا من القوّاد العظـام والجيوش الجرارة فلا يعقل أن يرسـلوا أو يستحصلوا على أقـوى وأشجع من عبدكم المخلص إبراهيم ، ومهما بحثوا فلا يمكنهم أن يعثروا على مثل جنود العرب الذين أقودهم أنا " .

[المحفوظات الملكية المصرية المجلد الأول ص ٢٠٦]

وكتب اليه أيضا أثناء الحصار عندما أشير عليه باستعمال النقود لإغراء الحامية بالتسليم : " إنى بفضل عظمتكم وجلادتكم الخديوية أرى من العـار علىّ أن أبذل النقود فى سبيل قلعة خربة كهذه ... [وليست من وسيلة لاستمالة الحامية] سوى

إظهار قوتكم القـاهرة وعظمتكم الخديوية الباهرة بتشديد الحصار عليهـم من البر والبحر وضرب القلعة بالقنابل والمدافع من كل الجهات حتى يذوقوا مرارة الموت".
[المحفوظات : المجلد الأول ص ١٣٦ ، ١٣٧]

وعندما توقع نشوب الحرب مع الأتراك العثمانيين من جديد كتب لابن أخيه عباس ، وقد كان محمد على غائبا عن مصر يتفقد أحوال السودان "ياولدى الباشا ، لو طوعت [للترك] أنفسهم للنهوض والقيام فلن نكون دونهم ، ولن يسبقونا بإذن الله وكرمه ما دامت أرواحنا فى أبداننا وحتى لا يبقى منـا فرد واحد وليحفظن الله مصر كما حفظها حتى الآن" .
[المحفوظات : المجلد الثالث ص ٤٧٧]

وهذه الثقة بالنفس ، وهـذا الشمم العالى ، وهـذا الاطمئنان التـام مردها لأمرين : للحكومة وراء ظهره ، وللجندى الذى يقوده .

لقد حل محمد على الكبير مشكلة تكوين القوة العسكرية على الوجه الذى أوجدته الديموقراطية الفرنسية وليدة الثورة الفرنسية ، أى التجنيد العـام . وسوى بذلك أمرا استعصى على الحكومة الاسلامية . لقد عمدت الحكومات القديمة الى استخدام أهل المناطق الجدباء أحيانا وإلى جمع العبيـد بيضا وسودا أحيانا أخرى . حاولت الحكومة الاسلامية هذا الحل أو ذاك . وكان سر اضطرابها وتزعزع كرسيها ونفاذ مواردها . وجال فكر محمـد على فى المشكلة واهتدى إلى اقتباس الحل الذى يتفق مع مقتضيات العصر الجـديد . واسـتخدم للتدريب ضباطا أوروبيين ، وأنشأ معاهد الدراسات العسكرية ، وتكوّن بذلك الجيش المصرى . كتب محمـد على إلى ناظر الجهادية : "إن مؤسسة الجهادية هذه ، أعزها الله ، لهى فى حدّ ذاتها نعمة جليلة وأمنية بلغ مر شرف قدرها أنى مازلت منـذ عشر سنين متعللا برجاء إدراكها ، قائلا أيكون لى أنا الآخر سعادة نيلها ! بل ما فتئت ألق بنفسى وأولادى وعيالى و بعرضى ومالى و بذلك العدد الكبير من أتباعى وأصدقائى الذين هم غرس

يدى" وثمرة تعهدى ألقى بكل أولئك فى المهالك وأعرضهم للضسار والأخطار آملا فى إحداث هذا السلك الجهادى " . [المحفوظات ، المجلد الأول ص ٩٥]

اندمج إبراهيم فى هذا السلك الجهادى اندماجا تاما ، جسما وروحا ، من أول الأمر . لحق به متعلما — وهو القائد المظفر فى الجزيرة العربية . وقاده من نصر إلى نصر بين السهل والحزن فى المورة وفلسطين ولبنان وسوريا والأناضول . وتفصيل هذا كله فى الفصول التى وضعها الأستاذ محمد أحمد حسونه بك والضابطان أحمد فهيم بيومى وعبد الرحمن زكى . وان الجمعية لتغتبط أن جمعت المدنيين والعسكريين من المؤرخين لخدمة التاريخ القومى .

و إن ما ذاع عن حرمان المصريين من مناصب القيادة فى الجيش والأسطول لمصريتهم لهو وهم يحتاج أمره إلى تبديد . فلم يعرف جيش من جيوش العالم فى ذلك الوقت حتى جيوش الثورة الفرنسية شيوع خطة الترقية من تحت السلاح (كما فى الإصطلاح) إلى رتب القيادة . ولا تعرفها الجيوش الأجنبية فى وقتنا الحاضر إلا فى حدود ضيقة جدا نسبيا ، وهذا على الرغم من شيوع التعليم فى جنود الزمن الحاضر . والحال أن ضباط الجيوش الأوروبية فى وقت محمد على وفى وقتنا الحالى ينتمون للطبقة الوسطى . إذا تحققنا ذلك وعرفنا أن ذوى اليسار من أهل مصر لم يقبلوا بعد فى عهد محمد على على اختيار العسكرية لأبنائهم بسبب ابتعادهم عنها قرونا عديدة أدركنا لم خلت وظائف القيادة فى الجيش المصرى فى عهده من المصريين — وأن لا أساس لما زعموه من تعصبه للترك عليهم . بل أن كبار رجال العسكرية الأوروبيين كثيرا ما عبروا له ولإبراهيم عن رأيهم بأن أضعف ما فى جيشه ضباطه غير المصريين ، وشاركهم فى هذا الرأى مؤرخ الجيش المصرى الجنرال فيجان ونسب ضعف الضباط إلى عدم إقبال أبناء الطبقة الوسطى إذ ذاك على احتراف العسكرية . و إنا نقرأ فى أمر من أوامر الباشا أصدره إلى محافظ دمياط " بأنه علم بالاحتفالات التى قوبل بها آلاى حسين بك من الأهالى والقناصل و بما تفوه به

على أغا ناظر السلخانة وقوله فى محفل الاستقبال : "صار الفلاحون العمى عساكر ، مهما كانوا لا يكونون مثل عساكرنا الترك . وعليه فاضربوه مائة نبوت على إليته وينفى و إن عاد يصاب" . هذا ما حدث لعلى أغا عندما أخذته النعرة القومية . وعندما تحرج الأمر بين مصر والدول الكبرى وتحمس النـاس فى الحاضرتين — القاهرة والاسكندرية — لدفع العدوان عن وطنهم وألفوا « حرسا وطنيا » أسند محمد على لرؤسائهم — وهم من "أبناء البـلد" — رتبا عسكرية نظامية . ولم يكن محمد على أو إبراهيم الرجل الذى يغمط للمصريين حقا أو يطوى لهم فضلا .

* *

ولم تكن القوة فى نظر محمدعلى إلا وسيلة لاغاية، لم تكن إلا آلة العيش الكريم . فقد كان بطبعه كارها لسفك الدماء، مؤثرا الاعتدال . استعرض الشيخ رفاعة — أحد بناة النهضـة المصرية — حروب محمد على وانتهى الى الملاحظة الدقيقة وهى أن تلك الحروب "لم تكن من محض العبث ولا من ذميم تعدى الحدود . إذ كان جل مقصوده تنبيه أعضاء ملة عظيمة تحسبهم أيقاظا وهم رقود" .

أجل . لقد رسم محمد على لنفسه منذ الأيام الأولى مشروع إحياء العالم العثمانى وسار فى تنفيذه بخطى ثابتة متئدة . رأى محمدعلى السلامة فى الوحدة لا فى التجزئة، والقوة والرفاهية فى إدارة عقـل واحد لملك متنوع الموارد، متنوع السكان، يملك أقصر الطرق بين الغرب والشرق .

وفى فترة توازن القوى التى تلت معاهدة تلست (١٨٠٦ — ١٨١٢)، وخلف سواحل البحار العربية التى كانت تكون الحدود المبهمة للعالم العثمانى كانت أعمال محمد على الأولى لإحياء القوة العثمانية .

وكانت الدولة منذ أن عجزت عن إقصاء البرتغاليين ومن جاء بعدهم من رجال البحر والتجارة الأوروبيين عن البحار العربيـة ، ومنـذ أن تخلت عن بلاد اليمن فى منتصف القرن السابع عشر، قد تركت (فيما عدا الاهتمام الذى لا غنى لهـا عنه

بالحجاز) شئون البحار العربية ومناطقها لأهلها وللاستعمار الأوروبى . فنمت أنواع مختلفة من السلطان العربى فى مناطق الخليج الفارسى وسواحل الجزيرة الجنوبية وسواحل المحيط الهندى والبحر الأحمر . وانعزلت تلك الشياخات والامارات والسلطنات عن الحياة العثمانية واضطرّت الى تدبير معاشها وتسوية علاقاتها بالأمم الأوروبية البحرية على مختلف الأوضاع .

وكان لحكومة السلطنة نوع مبهم من حقوق السيادة تباشرها من أربع قواعد، من ولاية جدّة وتلحق بها ولاية الحبش الممتدّة امتدادا لا يمكن تحديده على ما نعرفه الآن بسواحل السودان المصرى واريترية والصومال الفرنسى ومن مصر ودمشق وبغداد . وقد عملت الدولة من قواعدها الأربع على أن تبقى البحار العربية بركا آسنة لا على أن تكون شريانا من شرايين التجارة العالمية .

وقام محمد على أوّل الأمر بتأمين الحجاز . وما إن تم له ذلك حتى انفتح أمامه ميدان فسيح الأرجاء خليق ببذل الهمة وبالنظرة النافذة وبالأمل الواسع . فالبحار العربية ومناطقها أجزاء أساسية من العالم العثمانى ، أهملها السلاطين إهمالا معيبا وهى شرايين الحياة بين الشرق والغرب ، وقد تصلبت ، ولا بدّ من أن يجرى فيها الدم من جديد ، وخلف تلك السواحل فى أفريقية أجزاء من دار الاسلام، مشتتة فاترة الحياة، ولا بدّ من وصلها بعضها ببعض وبالعالم العثمانى ومن جعل ذلك العالم وحدة حية .

وتولى ابراهيم القيام بهذه المهمة فى إحدى مراحلها الخطيرة . وكان هذا أوّل عهده الحقيق بالقيادة العسكرية المستقلة . وأدّاها أداء فيه كل الدلالة على ما سيقوم به فى المستقبل . كتب القنصل الانجليزى بمصر، (هنرى صولت) ، فى رسالة من القاهرة فى أوائل ١٨١٧ : „ لقد دلت معاملة ابراهيم للقبائل البدوية على امتلاكه ثلاث ميزات تبشر بالفوز فى النهاية : حزم فى معاملة أعدائه، سخاء فى البذل، وفاء بالعهد " .

وتجد تفصيل تاريخ ابراهيم فى الجزيرة العربية فى الفصل الذى عقده الدكتور عبد الحميد البطريق لهذا الموضوع .

وقد تلت انتصارات ابراهيم سنوات استقرار واستعداد فى مناطق النفوذ المصرى من الجزيرة العربية ، وقف فيها التقدم نحو الشرق الى الخليج الفارسى ونحو الجنوب الى اليمن أمران : أولهما انتظار تأليف قوات عسكرية نظامية وأما الثانى فاستخدامه قواته غير النظامية فى فتوح أخرى أوحت بها سياسة البحر الأحمر إذ هى ألصق بها . فقصد للفتوح فى المناطق الممتدة خلف ما عرفناه باسم ولاية الحبش أو ما يعرفه المحدثون باسم فتوح السودان. وكان نصيب ابراهيم فيها ضئيلا.

* * *

عمل محمد على فى الأقطار العربية فى الجزيرة وفى السودان طليقا من كل قيد، لا دخل لحكومة السلطان فى خططه ومشروعاته . ثم حدث أن قام اليونان بثورتهم وتحركت جيوش السلطنة وأساطيلها وجيوش محمد على وأساطيله لقمع تلك الثورة، وبدأ بذلك فصل جديد فى سياسة محمد على، فصل يمكنه من أن يتبين أمرين أساسيين : الأول مدى إمكان التعاون بينه وبين حكومة السلطنة فى إحياء القوة العثمانية، والثانى موقف الدول الأوروبية منه ومن حكومة السلطنة .

وجه محمد على نحو بلاد اليونان الحملة الكبرى بقيادة ابراهيم : جيشه المصرى الجديد وأسطوله الأول . وكانت لأسطوله منازلات مع الأسطول اليونانى خرج منها سالما واستطاع أن ينزل وجنوده بلاد المورة . وسار ابراهيم من نصر الى نصر الى أن تم له اكتساح بلاد المورة وانتقل منها الى الأقطار اليونانية شماليها . واتهمه المتخرصون بأنه عمل على استئصال الأمة اليونانية وتطهير أرضها قضا وقضيضا لينزل بها عربا أو سودا مسلمين . وقد دفع عنه المؤرخون المحدثون هذه الفرية . وشرحوا أن فى مثل حرب المورة (أى فى الحرب ضد ثورة قومية) يصعب على القائد أو يستحيل عليه أن يفرق فى عملياته الحربية بين أعدائه المحاربين من الجنود وأعدائه المحاربين من غير الجنود .

ولما ظهر للأوروبيين أن لهيب الحرية اليونانية سوف ينطفئ فى بحر من الدماء تحركت الدول للعمل الإيجابى الذى حاولت تجنبه زمنا . وانتهى التدخل بكارثة تحطيم الأسطولين المصرى والعثمانى فى خليج نوارين وبنزول جيش فرنسى فى المورة وبإعلان الروسيا الحرب على الدولة العثمانية . وأمر محمد على ابنه بالانسحاب والعـودة .

ومضت الثورة اليونانيـة بعبرها . وبان لمحمد على أن حكومة السلطان تفهم العمل معه على وجه استغلاله الى أقصى حدود الاستغلال ، وليتها كانت تحسن ذلك فهـو لا يكره إطاعة حكومة عليا رشـيدة تعمل على بلوغ أهداف العـزة والكرامة والرفاهية . ولكن ماذا أثبت السلطان ورجاله فى أزمة نوارين وفيما قبلها وبعدها ؟ لقد أثبتوا عجزا كبيرا . وبان له أيضا أن الدول العظمى قد تتحد ، وبان له ثالثا أنه لكى يساوم ينبغى أن يكون بيديه ما يساوم به . فقل وثقه بإمكان وضع سياسة مشتركة بين القاهرة والقسطنطينية ، وزاد إيمانا بأن محمودا ورجاله يسيرون قدما نحو الهاوية . فأحب أن يتخذ العدّة للمستقبل ، وأن يتخذ الضمانات اللازمة .

وهذه الضمانات حسية ومعنوية : توطيد النفوذ المعنوى فى العالم العثمانى ولدى الحكومات الأوروبية بالمضى فى سياسته العمرانيـة ، ونشر حكمه المباشر فى أقطار أخرى من العـالم العثمانى يقيه ملكها شر حكومة السلطنة ، ويعطيه ملكها الموقع الآمن والموارد التى يستطيع بها أن يكون على حال من القوّة تمنع عنه أطماع الطامعين .

وما هى تلك الأقطار ؟ الولايات الشامية الأربع : حلب وطرابلس ودمشق وصيدا وبعض المناطق الساحلية فى الجزيرة العربيـة على الخليج الفارسى والبحر الأحمر . هذا أكيد . والعراق والمناطق فيما بين الشام والأناضول ، هذا مما يترك للظروف . والأقطار — كما ترى — هى فى الجملة مما يكوّن (على حد تعبير الوثائق) عربستان أو ما نسميه دار العروبة .

فهل تصوّر لها كيانا سياسيا أو ما نسميه وحدة عربية؟ سؤال كبير، إن أجبنا عنه سلبا عدونا الصواب ونسبنا اليه قلة إدراك لعناصر وروابط بارزة : لغة واحدة و إرث ثقافى مشترك ومصالح مشتركة و بالنسبة للحياة الاقتصادية العالمية كتلة واحدة . و إن أجبنا عنه إيجابا عدونا الصواب أيضا بعض الشيء ونسبنا لعصر سابق ماهو ، على وجه التحقيق — من خلق العصور اللواحق . وقد لانعدو الصواب إن قلنا إن محمد على أدرك الفكرة فى عمومها وأنها مما يمكن التشييد عليه فى حالة الانفصال عن السلطنة وهذا مالم يكن قد قرّره بعد ، بل ترك تقريره تبعا لظروف الحال . إن حتمت تلك الظروف التقسيم أمكنه أن ينقض ما حدث فى القرن السادس عشر وبناء العالم العربى من جديد . ولكنه لم يكن قد يئس بعد من مستقبل الوحدة العثمانية و إن كان قد يئس من السلطنة .

هذا عن محمد على ، وماذا عن ابراهيم؟ تدل الوثائق على أنه استحث والده على اتخاذ خطة الهجوم على الولايات السورية فى سنة ١٨٣١ . كما تدل أيضا على أنه كان أسرع منه لتصور الوحدة العربية . بل وتحدّث عنها . والثابت أيضا أن انتصاراته المتوالية على الجيوش التركية دفعته — كما هو معروف — للنصح بمواصلة الهجوم حتى مقر السلطنة .

لم يقبل محمد على أن يفعل ذلك ولا يسع الباحث المنصف إلا أن يعترف بأن رأيه كان الأصوب .

و بدأت فترة عاد فيها الاتصال التاريخى بين مصر والشام فى ظل حكومة واحدة وقد عقد الدكتور أسد رستم فصلا قيما لموضوع إدارة الشام : روحها وهيكلها وآثارها . وأنه لمما تغتبط له الجمعية الملكية للدراسة التاريخية أن يتولى كتابة هذا الفصل مؤرخ لبنانى ممتاز ، استطاع أن يفى الموضوع حقه ، وأن يبين ما للادارة الإبراهيمية للشام وما عليها . أو ليس هذا فى ذاته دالا على أن ما بنى ابراهيم لم يذهب هباء وأن البذرة التى بذرها نمت وترعرعت شجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء؟

وانقضت تلك الحقبة من الزمان بإرغام الجيش المصرى على الانسحاب من كل فتوحه . وهنا يستوقف قارئ الوثائق تبـدّل فى المواقف . محمـد على يتخذ الجرأة وابراهيم يفضل التريث، بل ونجده يفقد (حتى بعد انتصاره الرائع فى نزيب) كل أمل فى إمكان اكتساب طوائف أهل الشـام لحكمه . قال العـزيز فى كتاب لابراهيم : "لا تهدف الدول الى تعضيد الدولة العثمانيـة ولكنها ترمى الى إضعاف الطرفين كى يتسنى لها الاستيلاء على البلاد الاسلامية بسهولة، ولذا فان قبول تدخل هـذه الدول خيانة للملة ولتمـام استقلالها . فبدلا من أن نقبل هذه الخيانة فنذكر باللعنـة الى يوم القيامة أجدر بنـا أن نموت فى سبيل الدين، فنشيد بذلك دنيانا وآخرتنا معا، هذا إذا غلبونا . وأما إذا لم يغلبونا ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا فحينئذ نجد فى الدنيا الجنة التى يبحث عنها الناس فى الآخرة . فيدوى فى الآفاق صدى بطولتنا وسمعتنا الطيبة ويذكرنا العالم بخير إلى يوم القيامة . هـذا لاريب فيه والله كفيل بعبـاده". [المحفوظات المجلد الرابع ص ٢٨٦]

وقد لا يعـدو المؤرخ الصـواب إذا نسب موقف إبراهيم فى الأيام الأخيرة فى الشام لمـا أصابه من العلل والأمراض . كان آخرها ذلك اليرقان الحادّ الذى لازمه أثناء مأساة الانسحاب نحو مصر .

والنقد سهل من بعيد، وأجمل منه أن نبعث على البعد بتحية إعجاب وإجلال للشيخين الذين صمـدا للمحنة مرفوعى الرأس موفورى الكرامة . ذهبت فتوحهـما واختفى أسطولها وانكمش جيشهما ولكنهما بقيا مهيبى الجانب، عالبى الصيت، يتألق من جبينهما جلال المشيب ونور المجد، فمنعا عن مصر فى السنوات التى بقيت لهما أن تنزل الى ما قدره لهـا أصحاب تسوية سـنة ١٨٤١ — الى مرتبة النيـابات العثمانية الراكدة ومناطق المشروعات الاستغلالية الأوروبية .

القـاهرة، نوفمـبر ١٩٤٨



محمـــد علي باشا الكبير

القسم الأول

التاريخ السياسى

ابراهيم باشا فى بلاد العرب

الدكتور عبد الحميد البطريق

كانت الدولة العثمانية تحرص كل الحرص على أن تحتفظ بسيادتها على بلاد العرب، لما للمدن المقدسة من مركز هامّ فى العالم الإسلامى، لذلك وجهت عنايتها إلى القضاء على الحركة الوهابية وتدمير الدولة السعودية ، تلك الدولة التى وسع سلطانها الحجاز ونجد وعسير، ثم انساب نحو حدود اليمن والخليج الفارسى، وهدّد الشام والعراق .

وكانت خطة الدولة العثمانية التى رسمتها لنفسها عندما تقوم حركة استقلالية أو ثورة داخلية ، أن تلقى عبء القضاء عليها على كاهل الولاة فى الأقطار المجاورة ، وهى فى تكليفها هؤلاء الولاة بإرجاع سيادتها على بلاد العرب إنما كانت تهدف إلى غرضين : أوّلا القضاء على الحركة الوهابية التى رأت فيها خطرا على سيادتها وسمعتها فى الأقطار الإسلامية ، وثانيا قد تكون هذه الحرب وسيلة لإضعاف هؤلاء الولاة واستنزاف مواردهم، حتى يظلوا ضعافا خاضعين للدولة خضوعا تاما .

وقد أصابت الدولة السعودية الناشئة نجاحا سريعا فى عهد عبد العزيز بن محمد ابن سعود (١٧٦٥ — ١٨٠٣ م) ، وامتدّ نفوذه السياسى فى نجد امتدادا هدّد أملاك الدولة فى الجزيرة العربية ، ولكن غزواته وفتوحاته لم تزعج الباب العالى إلا عندما شرع عبد العزيز يهاجم العراق فى نقط مختلفة منذ عام ١٧٩٤، ولم يكن فى وسع رجال الدولة العثمانية أن يتنبأوا بتلك الهجمات حتى يستعدّوا لها ، لأن النشاط الذى كان يصحب احتشاد السعوديين ، والسرعة الخاطفة التى يغيرون بها على

أعدائهم أدهشت الدولة العثمانية ، وكان من الطبيعي أن تتجه أنظار الباب العالى أول الأمر إلى والى العراق ، تكلفه بصدّ تلك الغارات وإخماد تلك الحركات ، فبلاده أقرب الولايات العثمانية إلى الدرعية قلب الدولة السعودية الجديدة ، أضف إلى هذا أن سهولة المواصلات بينه وبين نجد عن طريق النهرين والخليج الفارسيّ تسهل له مهمته .

ولكن والى بغداد إذ ذاك ، كان يرى أن المهمة شاقة عويصة ، فقد كتب فى أوائل عام ١٧٩٦ إلى الباب العالى يقول : "إن الطريق من بغداد إلى الدرعية مجدب صحراوىّ خالٍ من الماء ، مما يساعد السعوديين على الانتصار على جيوش الدولة ، التى تختلف عملياتها الحربية عن أساليب السعوديين فى الحرب" . ولكن هذه الأعذار لم ترق فى أعين رجال السلطان ، فأرسل الباب العالى إلى والى بغداد الأوامر المشدّدة فى عام ١٧٩٨ لكى يسير إلى الحسا لمحاربة عبد العزيز بن سعود ، فجمع الوالى جيشا من المرتزقة والبدو بقيادة الكتخدا على بك ، وسار هذا الجيش ميمما شبه الجزيرة ، ولقى فى الطريق وٱجتياز الصحراء متاعب وأهوالا ، حتى إذا ما أشرف على الحسا ، وجد نفسه فى حالة لا يستطيع معها مجابهة القوات السعودية ، فأسرع علىّ إلى طلب الصلح من عبد العزيز ، وقفل راجعا إلى بغداد راضيا من الغنيمة بالإياب ، وازداد السعوديون بذلك قوة على قوة ، وعظمت منزلتهم فى أعين العرب ، ولم يعد سكان الجزيرة يعتبرون الأتراك قوة لا تغلب .

وما بدأ القرن التاسع عشر إلا وزحف سعود بأمر أبيه إلى خارج الجزيرة ، فهاجم العراق واكتسح كربلاء ، وتسرّبت جموع من القوات السعودية نحو ساحل الخليج الفارسىّ ، وضجت الدولة من تكرار اعتداءات الوهابيين ، فأخذت الأوامر تترى على ولاتها فى البصرة وبغداد أن يقوموا بحملات لصدّ الغزاة ، ولا سيما أن السعوديين أصبحوا فى مستهل عام ١٨٠٤ على أبواب الزبير ، القريبة من نهر الفرات ، وصاروا بذلك يهدّدون البصرة نفسها .

فشـل سليمان باشا والى بغداد فى القيام بأى عمل حاسم ضـدّ السعوديين على الرغم من أن لديه ٣٥٠٠٠ جنـدى قد دربهم مدرّبون أوربيون على أحدث الأساليب الحربية ، وقـد حاول سليمان باشا أن يصـدّ السعوديين عندما وصلوا إلى قلعة (جفير) القريبة من ساحل الفرات فلم يكن حظه بأسعد من حظ كتخداه على بك فانهزمت جيوشـه ووجد الوهابيون أمامهم ثغرة يصلون منها إلى قضاء (سراج) ؛ ولم يأت عام ١٨١٠ حتى وصـل جزء من القوات السعودية إلى نقطة لاتبعد كثيرا عن بغداد ونشط مندوبو ابن سعود فى جمع الضرائب من الأماكن المحتلة .

أما فى ميدان الشام فقد توجهت أنظار السعوديين بعـد أن سقطت المدينة المنورة فى أيديهم نحو الشمال ، فغزوا (الجوف) و (البتراء) وتقدّموا نحو (حوران) ولكنهم لم يتمكنوا من اكتساح سوريا فوقفوا عند أبوابها متربصين ، ولم يستطع والى الشام أن يحمى حدود بلاده ، وهكذا فشل كل من والى بغداد ووالى دمشق فى أن يحققا أمل السلطان فى أن يستطيع أحدهما أو كلاهما أن يقضى على الحركة السعودية لأنهما فشلا حتى فى حماية حدود ولايتهما .

عندئذ تبين بجلاء للسلطان محمود الثانى أن ليس هناك مناص من طلب العون من الوالى الذى شـق طريقه إلى الولاية عن طريق الشعب الذى يحكمـه وانتزع فرمان التولية من السلطان انتزاعا ، إذ ليس فى استطاعة أحد ولاة الدولة أن يقوم بتلك المهمة الخطيرة سوى محمد على الكبير .

اعتقد السلطان أنه إن اسـتطاع أن يغرى محمد على بفتح بلاد العـرب يكون ذلك كسبا للدولة على أى حال ، فإن انتصر محمـد على فبها ونعمت وسينتصر باسم الدولة ، ولكنه فى الوقت ذاته لا بدّ أن يصاب بخسائر مادية شـديدة لا يستطيع معها أن يرفع صـوته مطالبا بالاستقلال ، وإذا هزم أو فشلت حملتـه فقد هيبته وضاعت ميزته ولن يسـتطيع أن يواجه السلطـان الذى تعـوّد أن يثأر من ولاته الناجحين حين يقلب لهم الدهر ظهر المجن .

تناسى السلطان ما بينـه وبين محمد على من خلاف، وتطور هـذا التناسى إلى التسامح والكرم، فتوالت الرسائل السلطانية على محمد على تملقه وتلاطفه وتلقبه بألقاب الشرف والمجد، فأثار هـذا الإغراء وتلك الرسائل الريبـة فى نفس الباشا، وأخذ يفكر فى المهمة قبل أن يقـدم عليها، وفى الوقت نفسـه، أراد أن ينتهز الفرصـة لتحقيق أغراضـه والتخلص من بعض التزاماته، وكان ماهرا فى الرد على رسائل الباب العالى، وهى الرسائل التى كانت تحثه على الإسراع فى السير نحو بلاد العرب، إذ كان يرد عليها برسائل من نوعها، يملؤها بألفاظ الخضوع والعبودية .

وانتهز محمد على هذه الفرصـة لتحقيق استقلاله الداخلى بمصر، وتطلع إلى أن يجعل لنفسه كيانا خاصا قبل أن يقوم بحملته فى بلاد العرب، فاقترح على الباب العالى بواسـطة وكيله المقيم فى الآسـتانة أن تكون مصر ولاية ممتازة شأنها فى ذلك شأن ولاية الجزائر، وأوضح له أن هـذا الإجراء ضرورى حتى تنتهى الحرب فى الحجاز، وتذرع فى طلبه هذا باضطراب الأحوال السياسية فى أوربا واحتمال تدخل الدولة العثمانيـة فى بعض الحروب، فإذا لم يكن لمصر مركزها الممتاز المستقل عن الدولة، فقد تقع فريسة حصار إحدى الدول المعادية لتركيا بينما تكون جيوش مصر مشغولة فى الجزيرة العربيـة، وضرب لذلك مثـلا باحتمال محاصرة انجلترا للموانى المصرية وبذلك تتعرض مصالح مصر التجارية للخطر، بل "وتتعطل أيضا مصالح الحرمين، وحيث أن تجـارة مصر مع الخـارج ضرورية لهـا فإن امتيازها يضمن حيـادها ومصالحها الاقتصادية"(١) .

أما الغرض الأكبر الذى كان يرنو إليـه محمد على من وراء القيام بحملته فى بلاد العرب والذى يلوح لى من خلال دراساتى للوثائق العديدة المحفوظة فى قصر عابدين العامر فهو طموحه إلى السيطرة على الشام قبل أن يقوم بأى حرب فى الحجاز، وقد

(١) من محمد على الى الصدر الأعظم : دفتر رقم ١ عابدين وثيقة رقم ٥٤ بتاريخ ٢٧ شوال سنة ١٢٢٥ بالمحفوظات الملكية .

طلب إلى الباب العالى أن تحال إليه ولاية الشام قبل أن تتحرك جيوشه إلى بلاد العرب لكى يسوق حملتين، إحداهما تخرج من مصر والأخرى من الشام، وبذلك يضمن نجاح المهمة الشاقة التى كلفه بها السلطان . وقد كان لهذا الطلب الجرىء صداه العنيف فى بلاط السلطان ، واتهمه أعداؤه وحاسدوه هناك بأنه يغلب مصالحه الشخصية وأطماعه الإقليمية على مصلحة الدولة ، وقالوا إن حملة يقوم بها الباشا أو ابنه إبراهيم من مصر، كفيلة بإرجاع بلاد العرب إلى حكم السلطان ، وقد ردّ محمد على على أولئك الحاسدين من رجال الباب العالى فى كتاب بعث به إلى وكيله محمد نجيب افندى فى الآستانة يقول فيه : " إن ردّى على هؤلاء هو قصة جحا المشهورة عندما بعث ابنه ليملأ الجرّة وصفعه على قفاه قبل أن يحملها منبها إياه ألا يكسرها ، ولما قيل لجحا لماذا تصفعه ولم يكسر الجرة بعد، أجاب أنه يجب أن ينبه و يصفع أوّلا حتى لا يكسرها إذ ماذا يفيد الصفع بعد كسر الجرّة[1] ... " وكتب له فى خطاب آخر أن مصلحة الحجاز فقط هى التى دفعته إلى هذا الطلب وأن ليس له مطمع فى غير مصر التى وصفها بأنها (القطر الذى يتحسر وزراء الدولة دون الوصول إليه[2]) .

وأخيرا قرر محمد على أن يغض الطرف مؤقتا عن تمسكه بمنحه ولاية الشام أو منحها لصديقه الموالى له (يوسف كنج باشا) ، بعد أن فهم من مقابلة وكيله نجيب أفندى للصدر الأعظم أن جميع طلباته لا يمكن النظر إليها بعين العطف والرعاية إلا بعد أن تقوم الحملة المصرية إلى الحجاز ، وأدرك من رسائل وكيله أن أعداءه فى الآستانة يتربصون له وأنهم يقولون (لو أعطيت الدنيا إلى والى مصر ما ذهب لأجل الحرمين ولا أرسل أحدا من أولاده) لذلك عزم على تسيير الحملة نهائيا بقيادة ولده طوسون على أن ينتهز الفرص ليوهم الباب العالى أن نجاح الحملة يتوقف

---

(١) من محمد على إلى نجيب افندى : وثيقة رقم ٦٥ دفتر رقم ١ بتاريخ أوّل ربيع الأوّل سنة ١٢٢٦

(٢) من محمد على إلى نجيب افندى : وثيقة رقم ١١٨ دفتر رقم ١ بتاريخ ٢١ شعبان سنة ١٢٢٨

على تسيير حملة أخرى من الشام يشرف عليها تمـام الإشراف ، وفى الوقت الذى تحركت فيه جيوش طوسون نحو الحجـاز أرسل محمد على يلح على وكيله فى الآستانة أن يقنع الباب العالى بأن نجاح الحمـلة يتوقف إلى حد كبير على قيام حمـلة أخرى من الشام ، ثم اتخذ من الضائقة التى وقع فيها ولده طوسـون عندما ارتدّ بجيوشه إلى ينبع ، وعندما عجز عن اختراق مضيق (الصفراء) ذريعة لمعاودة طلبه فكتب إلى الصـدر الأعظم يقول إن طوسون يجزم بأن المرور من مضـيق (الصفراء) يحتاج إلى حمـلة تأتى من الشام "و إلا فإن هـذه الجيوش المصرية لا محالة تفقد قواها شيئا فشيئا حتى إذا ما وصلت منتهى المضيق هلكت عن آخرها "(١) .

أثبتت الأيام صدق ما جاء فى هذا الكتاب إذ عندما اضطر طوسون إلى أن يتجه نحو (الصفراء) التى تحصنت فيها الجيوش السعودية دخلت جنوده مضيقا من الصخور الصلدة، لايزيد عرضه على أربعين مترا و يبلغ طوله مسيرة ساعة ونصف ، وكان الوهابيون فى عشرين ألف مقاتل بقيادة عبد الله وفيصل ابنى سعود، فسدّوا طريق المضيق فى منتصفه وانتشر فريق منهم بأعالى الروابى الصخرية التى تحف بجانبى المضيق ، فاضطر طوسون الى التقهقر فى عناء وشدة ، وقد أبدى طوسون فى تلك المعركة بطولة عظيمة إذ كان يخوض بنفسه صفوف الأعداء على رأس جماعة قليلة من فرسـانه صارخا فى جنوده الذين فقـدوا وعيهم وخارت قواهم " أما منكم من يقتدى بقائده" ولكن ضاعت صرخاته الحماسية هباء وسط أصوات حوافر الخيول التى تقهقرت هاربة بفرسانها وعاد طوسون إلى ينبع بعـد أن فقـد عددا كبيرا من خيرة جنوده .

ولسنا هنا بصـدد ما تبع ذلك من حروب طوسون فى الحجاز ، بل حسبنا أن نذكر أنه استولى على مكة والمدينة وغيرهما ، ولكن حملته لم يقدّر لها النجاح الذى

---

(١) من محمد على الى الصدر الأعظم : وثيقة رقم ٨٠ دفتر رقم ١ (المحفوظات الملكية بعابدين) بتاريخ (٢٧ ذى الحجة ١٢٢٧) .

كان يبغيه محمد على ، فعزم على أن يسافر الى الحجاز و ينزل الى الميدان بنفسه ، إذ أنه كان حريصا تمام الحرص على ألا يفشل فى حملة الحجاز وهو عالم بما يترتب على هذا الفشل من ضياع هيبته وفقد مركزه ، وتبدو لنا لهفته على نجاح هذه الحملة واعتزامه خوضها بنفسه منذ تقهقرت جيوش طوسون إلى ينبع من رسالتين أرسلهما متتابعتين إلى كبار قواده وجنوده المرابطين فى ينبع خشية أن تضعفهم الهزيمة فيقرروا الجلاء عن قلعة ينبع نفسها . قال لهم فى رسالته الأولى "عرض علينا و َلينا فى المويلح أنكم عند وصولكم إلى مضيق الجديدة سد العدو ذلك المضيق ثلاثة أيام وثلاث ليال وأخيرا تقهقرتم ووصلتم (ينبع) فإن كان الخبر صحيحا فالنصر والهزيمة بيد الله يؤتيها من يشاء من عباده ، فيارفاقى و يا قرة عينى ، لاتأسفوا ولا تأسوا على ما فاتكم ولا تهنوا ولا تحزنوا ، فاليأس والضعف لا يليق بالرجال أما الشجاعة والبطولة فهما فى إعادة الكرة على العدو والانتقام منه . لقد طالما شهدتم الحروب معى ، فأنتم جنود مصر الذين خاضوا غمار المعارك العديدة ، فكنا نهزم العدو طورا ، ويهزمنا طورا آخر ، فلم ننكص على أعقابنا بل أعدنا الكرة وهاجمناه حتى دمرناه تدميرا ... إن لدى من المال والعدد والذخائر سأرسلها إليكم فضلا عن أننى ربما قمت بنفسى إليكم ..." [1] وفى رسالته الثانية يؤكد لهم أنه سيقوم بنفسه فيقول " يا رجالى القدماء . أنتم أبنائى الذين ربيتهم منذ نعومة أظفارهم ، فعرفتم أننى شيخ المحاربين ، أفهل رأيتمونى خفت حربا ، أو تقهقرت أمام عدو ؟ إن أنتم نكصتم على أعقابكم وخشيتم الحرب فدعوا حمل السلاح ، وكونوا طلابا فى مدرسة ، أو دراويش فى تكية ولن أتأخر عن الإنفاق عليكم . لماذا تخشون كثرة العدد وأنتم متحصنون داخل قلعة حصينة مثل ينبع ... أثبتوا إذن كرجال واعلموا أننى بعد إتمام إرسال الجنود البرية والبحرية سأقوم بنفسى

---

(١) من محمد على إلى طوسون : وثيقة رقم ٢ محفظة رقم (١) ذوات (٢١ ذى الحجة سنة ١٢٢٦) .

إلى الحجاز لأرى همتكم ، كونوا يدا واحدة وصلوا أوقاتكم الخمس فمكانكم مكان صلاح واستغفار ، ينصركم الله ويثبت أقدامكم" [١] .

وقد حقق الباشا وعده فيما بعد ، ووصل إلى جدة فى سبتمبر سنة ١٨١٣ ، وفى ٦ أكتوبر قصد إلى مكة ، وهناك أصدر الأوامر إلى جيشه فى المدينة ليزحف إلى نجد ، وإلى جيشه فى الطائف ليحتل تربه ، وإلى جيشه الثالث ليذهب برا وبحرا إلى القنفذة لتأديب الخارجين من أهل عسير . ثم أخذ يضع قواعد الحكم المصرى فى الحجاز ويدرس نفسية البدو والحضر ، ويوزع المال والأرزاق على المحتاجين ، وعزل الشريف غالب أمير مكة لذبذبته بين السعوديين والأتراك ، وعين بدله الشريف يحيى أحد الموالين للحكم المصرى ، ثم خفض رسوم الجمرك فى جدة ليكسب محبة التجار وثقتهم ، وألغى الضرائب التى فرضها الشريف غالب أمير مكة ، وأصلح ما تخرب من قبور الآل والصحابة ، وأنشأ تكيتين ، إحداهما فى مكة والأخرى فى المدينة وبالجملة فقد عنى بدعم أركان الحكم المصرى فى الحجاز ، ولكن بقى عليه أن يكمل انتصاراته فى الجزيرة العربية بفتح نجد ذاتها ، حتى يأمن على الحجاز من معاودة السعوديين فتحه من جديد ، على أن هذا الغرض الأساسى كان أملا لم يستطع الباشا أن يحققه بنفسه ، إذ وجد نفسه مضطرا إلى العودة إلى مصر على جناح السرعة ، موطدا العزم على أن يلقى عبء هذه المهمة الخطيرة على ولده الأكبر ابراهيم : أما أسباب عودة محمد على إلى مصر فترجع إلى أن الباشا قد أمضى ما يقرب من عامين ببلاد العرب ، سمع أثناءها مختلف الاشاعات عما يبيته له السلطان ، الذى حاول أكثر من مرة أن يقصيه عن ولاية مصر [٢] ، وسمع أخيرا "أن الاستعداد قائم على قدم وساق فى تركيا لتنظيم حملة تحت قيادة قبطان باشا لمهاجمة الاسكندرية والاستيلاء على مصر

---

(١) من محمد على الى رؤساء الجيش : وثيقة رقم ٨٢ محفظة ٢ بحرا برا بتاريخ ١٥ محرم ١٢٢٧

(٢) راجع كتاب (محمد على) من سلسلة أعلام الاسلام لصاحب العزة شفيق غربال بك .

باسم السلطان[١] " ، أضف إلى ذلك أنه سمع بعودة نابليون من منفاه فى جزيرة إلبا مما سيجعل الموقف الدولى فى خطر، وبذلك تصبح مصر مهدّدة بأطماع الدول ، وقد قابله إذ ذاك فى مكة صديقه المستشرق المؤرخ (بوركهاردت) ووصف شعور الباشا قائلا " لقد كان محمد على مهتما اهتماما عميقا بالحوادث التى تجرى فى أوربا وكان يعتقد أن انجلترا سوف تسعى بعد سقوط نابليون إلى تدعيم سيطرتها على البحر الأبيض المتوسط بالاستيلاء على مصر[٢] " . وقد قال الباشا لبوركاردت " إن السمك الكبير يبتلع السمك الصغير ، وأنا أعرف أن انجلترا تطمع فى مصر ، إننى صديق الانجليز ، ولكن حقيقة الواقع ، أن من بين كبار الدول من يعطيك من طرف اللسان حلاوة ، ولا يضمر لك فى نفسه الإخلاص . وغاية ما أتمناه ألا ينتهز الانجليز فرصة غيابى فى الحجاز لينقضوا على مصر ، أما لو كنت هناك ، فسيكون لى على الأقل شرف الدفاع عن ممتلكاتى " . وفى ٢٠ مايو سنة ١٨١٥ أبحر محمد على إلى مصر بعد أن سلم القيادة من جديد إلى ولده طوسون ، وجاءت بعد ذلك فترة ركود جنح فيها طوسون وعبد الله بن سعود الى السلم، إذ اتفقا على أن يتخلى الوهابيون عن كل مطالبهم فى الأرض المقدّسة على أن يترك المصريون لعبد الله كل ما استولوا عليه من مدن القصيم ، ولكن الفريقين كانا يعدّان هذا الصلح أشبه شيء بهدنة لا يعرف أجلها ، فلا عجب إذا رأينا كلا منهما يستعد للمعارك القادمة ، وكان أول ما فعله الباشا أن اختار ابنه البطل ابراهيم وألقى على كاهله مهمة اختراق قلب الجزيرة العربية ليصل الى الدرعية مهد الوهابيين .

كان ابراهيم إذ ذاك لا يتجاوز السادسة والعشرين من عمره، صلب العود، شديد البطش، ثابتا فى عزمه، متفانيا فى طاعة أبيه ، وقد ذكر المؤرخون أنه كان

---

(١) من ميست القنصل الانجليزى بمصر إلى وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ٥ يونيه سنة ١٨١٥ وثيقة محفوظة بوزارة الخارجية بلندن .

Burckhardt: Travels in Arabia V. l. P. 144 (٢)

تواقا الى القيام على رأس الحملة الجديدة بعد أن استدعى محمد على ابنــه طوسون لكى يعود الى مصر(١)، ووصلت أنبـاء قرب وصول ابراهيم الى الحجاز فأخذ عبد الله يستعدّ استعدادا ضخما ويستنفر شيوخ نجد ومن تبعه من أرض الحجاز وعسير .

ومنذ أوائل عام ١٨١٦ كانت عيون الناظرين فى مصر تقع خلال الأشهر الثمانية التالية على الجمال محملة بالأثقال من المؤن والذخائر ومهمات الجيش قاصدة السويس ، والسفن الصاعدة فى النيل الى قنا مشحونة بالمدافع والجند، لتنقل بعد ذلك الى موانى البحـر الأحمر حيث تبحر الى الجـزيرة العربية ، وفى ٥ سبتمبر سنة ١٨١٦ ودّع ابراهيم باشا أسرته ورجال الحكومة وأعيان البلاد، ولمـا دخل على والدته يودّعها قبلته وباركت عزيمته، ثم ناطت برقبته عقدا من الجواهر سألتـه ألا ينتزعه إلا فى الحجـرة النبوية الشريفة هدية منها الى الضريح الشريف، فوعدها بالوفاء بهذا النـذر .

وفى الثـالث والعشرين من شهر سبتمبر أبحر ابراهيم بحملته من مينـاء القصير مستصحبا معه عددا من الأوربيين، نذكر منهم الضابط المهندس ڤيسيير Vaissière الذى خدم فى جيش نابليون ، وألقت به حوادث عام ١٨١٥ على ضفاف النيـل باحثا عن عمـل فى جيش محمـد على الكبير ، ثم بعثة طبية كان قوامها أربعة من الإيطاليين هم سكوتو Scoto وجنتيلى Gentili وتودسكينى Todeschini وسوشيو Socio . وهؤلاء الأوربيون كانوا على الأرجح أوّل من اخترق نجد من الأجانب، ولكنهم للأسف لم يتركوا مؤلفات أو مذكرات عن تجاربهم ومشاهداتهم فى قلب الجـزيرة .

---

(١) وصل طوسون الى القاهرة فى ٧ نوفبر سنة ١٨١٥ ، وكان فى استقباله كبار رجال الحاشية وقوّاد الجند وأعيان القاهرة وما استتب له المقام فيها حتى غادرها الى الاسكندرية حيث كان أبوه مقيما بها منذ ١٩ أكتوبر سنة ١٨١٥ فزاره ووالدته وهناك رأى لأوّل مرة ابنه عباس (عباس الأوّل فيما بعد) الذى رزق به أثناء تغيبه بالحجاز وكان يبلغ من العمر إذ ذاك عامين ، وقد مات طوسون بعد ذلك بعدة أشهر .

وفى ٣٠ سبتمبر وصلت سفن الحملة إلى ينبع ، وأقام فى تلك البلدة عدة أيام استعرض فيها جيوشه ، واستقبل وفود القرى المجاورة و القبائل التى أقبلت تقدم له فروض الولاء والطاعة ، ثم انتقل إلى المدينة المنورة حيث استقبله شيخ الحرم النبوى وقاضى المدينة والأعيان والأشراف ، ثم توجه توا إلى الحرم النبوى الشريف حيث صلى لله أربع ركعات ثم تقدم بتؤدة وخشوع نحو الضريح الشريف قائلا : " السلام عليك يا محمد . السلام عليك يا رسول الله " وطفق يدعو الله أن يجعل النصر حليفه ، وأن يوفقه فى المهمة التى أتى من أجلها .

اعتمد ابراهيم فى سياسته فى بلاد العرب على ولاء القبائل التى سيخترق بلادها إلى نجد لأنه كان يعلم تمام العلم أنه فى أشد الحاجة إلى معونتها لتأمين طريق الحملة ، لذلك كان حريصا على أن يبين لهم أنه إنما جاء إليهم ليعمل كصديق على ما فيه خيرهم ، وأنه ليس من الغزاة الفاتحين ، وأن الحكم المصرى لم يأت ليأخذ منهم بل ليعطيهم ، وقد وصف الرحالة بلجريف ما أخذ به إبراهيم نفسه من مسالمة القبائل وتأمين الأهالى فى قوله :

" كل دلو من الماء قدمها أحد إلى جيشه ، وكل تمرة أكلها الجنود ، وكل عود من الحطب أوقدوها ، كان إبراهيم يدفع ثمنها فى الحال ، وقد حرم على الجنود والضباط ألا يسيئوا الى الأهالى العزل من السلاح ، وحرص كل الحرص على أن تنفذ أوامره بكل حزم ، فأخذت القرى واحدة إثر أخرى ، والقبائل قبيلة تلو قبيلة تقدم الطاعة للحكم المصرى ، اللهم إلا أقلية ضئيلة كان دأبها الثورة والفتنة ، وحتى هؤلاء لم يحاول إبراهيم أن يقسو عليهم بل تعمد أن يرأف بهم ويتغاضى عن هفواتهم[(١)] " .

أقام إبراهيم بالمدينة أسبوعين كاملين ثم اتخذ من (الحناكية) مركزا يوجه منه هجومه ، ولبث فيها كالصياد يراقب فرائسه ، فكان تارة يغير على البدو الذين لم

---

(١) Palgrave: Central 8 Eastern Arabia Vol. II. Page 54 London 1866.

تفلح معهم سياسة اللين أو المـال، وتارة أخرى يفيض على شيوخهم بمـا حمله من هدايا وما أعده لهم من منح مالية، فانضم إليه عدد كبير من شيوخ القبائل الشديدة البأس كقبائل حرب وعتيبه ومطير (١)، وفى ١٩ يناير ١٨١٧ تلق ابراهيم من القاهرة نبأ الانعام عليه من السلطان بلقب الباشـوية ذات الأذناب الثـلاثة (٢) فأوفدت المدينة الوفود من كبرائها لتهنئته، وذهب الباشا معهـم إلى المدينة حيث أقيمت الحفلات ومعالم الزينات ابتهاجا بهذه المناسبة وألبسه المفتى شارة الترقية و بعد هذا الاحتفال الذى رفع مكانته وألقى هيبته فى النفـوس عاد إلى معسكره فى الحناكية ليبدأ المهمة الخطيرة .

ولم يكن كل شىء هادئا فى جيشه، إذ ظهـر بين الأرنؤود جماعة بدئوا حركة عصيان وتذمر، عندما تواترت الاشاعات بانقطاع الصلات السياسية بين الروسيا والباب العالى، واعتقـدوا أن مركزهم فى الجيش أصبح حرجا، فأخذوا يطالبون بمرتباتهم، ولم يجـد ابراهيم بدًا من تسكين روعهم ودفع لهم حقوقهم، أضف الى ذلك أن حرارة الشمس نهارا والبرد الشديد ليلا وندرة المـاء الصالح للشرب وتفشى الحميـات والدوسنطاريا، حمل الجنـد على التذمر وضعف العـزيمة، ولم يستطع الأطبـاء الأوربيون على الرغم ممـا بذلوه من جهد أن يستأصلوا هـذه الأمراض الفتاكة بسرعة، ولكن إبراهيم أبدى إزاء هذه الكوارث جلدا وصـبرا عجيبين بثا روح الطمأنينة والرجاء فى النفوس الجازعة القلقـة . وجاءته الامدادات التى طلبها من أبيه فسد النقص وأعاد الأمل إلى جيشه .

---

(١) ممـا جذب العربان الموالين لعبد الله بن مسعود إلى الانحياز إلى إبراهيم، إكرامه مثوى غانم ابن مضيان شيخ قبيلة حرب وغيره من الشيوخ ووعده إياهم بعدم فرض الجزية وبأن يدفع لهم ثمن ما يؤدونه الى الجيش من مؤن، أضف الى ذلك لقاءه الناس بالبشر والترحاب وسعة الصدر والسخاء .

(٢) الباشوية ذات الأذناب الثـلاثة هى أعلى رتبة يمنحها السلطان لوزراء الدولة، وشارتها ثلاث خصل من شعر ذنب الخيل توضع فوق الرمح الذى يتقدم الباشا فى الحفلات الرسمية، وهو تقليد عثمانى قديم .

وبعد أن أقام إبراهيم ستة أشهر فى الحناكيه، زحف فى شتاء السنة التالية (٢٢ فبراير سنة ١٨١٧) إلى نجد، فوصل إلى (الرس) وحاصرها حتى سلمت بعد حصار طويل وقتال عنيف هلك أثناءه ثلاثة آلاف من رجاله، وكادت تنفد ذخائره، لولا تذرعه بقوة الإرادة والعزم الحديدى، حتى أن المؤرخين قد أجمعوا على أنه لو أن قائدا أقل من إبراهيم عزما وأضعف إيمانا وأكثر جزعا أمام الحوادث إذا قلبت له ظهر المجن لغادر ميدان القتال هربا ويأسا، وانقلب على عقبيه وعاد إلى الحجاز فورا، ولكن الكارثة التى نزلت به وبجيشه زادته إصرارا على إرادته وتمسكا بتنفيذ رغبته ومضيا فى عزيمته، على الرغم من أن الطبيعة حالفت عدوه، إذ ثارت الزوابع والعواصف بشكل غير مألوف، فهبت الريح الشديدة تسفى التراب والرمل وتنتزع المشارب والخيام، وتسلب الإنسان والحيوان حرية التنفس والحركة، وبدلا من أن يقبع إبراهيم فى مخبأ يتقى به هذه الأخطار، امتطى جواده فى يوم من هذه الأيام العصيبة وسار فى ألف فارس فانقض على فريق من أعدائه ومزق شملهم وبث بذلك نشاطا وحمية فى نفوس جنوده، وكان سكان (الرس) قد سئموا انتظار وصول المدد إليهم من عبد الله ولم تعد لهم طاقة برؤية الخراب الذى أخذ يسرى من بيت إلى بيت فعوّلوا وعلى رأسهم حاكمهم (محمد بن مزروع) على أن يطلبوا من إبراهيم هدنة شريفة فكان لهم ما أرادوا ورفع عنهم الحصار على شرط قبول حامية مصرية فى بلدتهم .

بعد أن سلمت (الرس) زحف إبراهيم إلى (عنيزه) حيث كان يرابط بها عبد الله، فسلمت البلدة وانسحب الزعيم السعودى إلى الدرعية حيث راح يستنفر أهل نجد كى يجتمعوا فى العاصمة النجدية ليدافعوا عن كيانهم ومبادئهم ووطنهم، أما جيش إبراهيم الظافر فقد استولى على بريده ثم شقرا وضرما ثم سار إلى وادى حنيفة حتى أشرف على العاصمة العتيدة (الدرعية) فى ٦ ابريل سنة ١٨١٨، أما الدرعية فتقع فى الجزء الشرقى من قلب جزيرة العرب على مسافة ٨٠٠ كيلو متر من

ينبع ، وتتألف تلك العاصمة من خمسة أقسام صغيرة ، لكل قسم أبواب وأسوار خاصة تتخللها الحصون والأبراج ، ومحيطها لا يقل عن اثنى عشر كيلو مترا ، وهى دائرة كان من الصعب حصرها بأقل من ٢٥٠٠٠ مقاتل أى بأربعة أضعاف جيش إبراهيم ، لذلك نجده يحشد قواه كلها فى نقطة واحدة للهجوم على حصن مقام على أكمة مرتفعة . وقد استمر حصار الدرعيه خمسة أشهر و بضعة أيام ، تعددت أثناءها المعارك واشتدت الحملات ، وكلف الباشا المهندس الفرنسى (ڤسيير) بإنشاء المعاقل التى يحتمى بها الجنود المصريون ، ومع ذلك فقد لاقت الجيوش المصرية عنتا وأهوالا شديدة ، وحدثت فى ٢١ يونيه نكبة كادت تقضى على كل أمل فى فتح الدرعية ، فقد حدث أن اشتبك السعوديون بالمصريين فى معركة قتل وجرح فيها عدد كبير من الضباط ممن امتازوا بالشجاعة والحذق ، فلما عاد الباقون إلى المعسكر لالتماس الراحة بعد يوم رهيب قاتل ، هبت ريح السموم فحملت جذوة نار من موقد كان أحد الجند يطهى عليه طعامه ، وألقتها على خيمة كبيرة منصوبة على ربوتين عاليتين وفيها مستودع القذائف وعدة براميل من البارود وعددا كبيرا من صناديق الخرطوش والقنابل ، فلما احترقت الخيمة اتصل اللهب بالذخائر فانفجرت كلها ، وتسبب عن الحريق احتراق مخازن القمح والشعير ، وضياع أرواح كثيرة من الجند وأصبح إبراهيم بلا مؤن ولا ذخيرة وسط الصحراء ، بعيدا عن مخازنه ومستودعاته الأساسية ، على أن إبراهيم تلقى تلك الكارثة بالصبر والثبات وسرعة البديهة وقوة الإرادة ومضاء العزيمة ، وكان أحد القواد يقود النقط الأمامية ، فبعث يستفسر من الباشا هل استطاع أن يستخلص شيئا من الذخائر؟ فكان جوابه : "لقد فقدنا كل شيء إلا البسالة وسيوفنا فبالبسالة والسيوف نستطيع معاودة الهجوم والانتصار" . أما الانفجار فكان له دوى هائل ، فهم منه المدافعون عن الدرعية أن كارثة ما قد حلت بالذخائر المصرية ، فخرج منهم عدد من المقاتلين يجسون النبض ، وأدرك إبراهيم حرج موقفه ووقف فى وسط جنوده يأمرهم بأن يضنوا كل الضن بما تبقى معهم

من الذخائر ، وألا يطلق أحدهم رصاصة إلا عندما يقترب العدو بحيث لايخطئ أحد المرمى ، وأنذر كل من تحدثه نفسه بالتقهقر بالاعدام ، وكان من عادة النجديين فى الحرب أنهم إذا خرجوا للقاء أعدائهم قاموا بحركات سريعة واقتربوا منهم كالبرق الخاطف بدلا من القيام بمناورات تستنزف ذخائر أعدائهم ، فلما اقتربوا من المراكز المصرية التى أغفلت أمر تقدمهم فى أول الأمر ، تلقتهم بمقذوفات المدافع فحصدتهم ولم ينج منهم إلا عدد قليل .

لازم جيش الدرعية بعد ذلك خطة الدفاع ، بينما استفاد إبراهيم من الوقت تصله أثناءه الإمدادات من الرجال والعتاد ، وعنى إبراهيم بحالة الجرحى والمرضى ، وعاقته عنايته بأحوال جنوده عن التماس الراحة لنفسه ، فأخذ يشرف بنفسه على معالجتهم على أيدى أطبائه الأوربيين الذين لم يألوا جهدا فى هذا السبيل ، حتى أن الطبيب (چنتيلى) أصابته قنبلة فى رجله أثناء ذهابه لإسعاف الجرحى ، فتولى بترها له زميله (تود سكينى) ، وقد زاره إبراهيم يصحبه ڤسيير وأظهر له من العطف والرعاية ماأدخل السكينة على قلبه .

تواردت الإمدادات على ابراهيم ، و بعث إليه والده محمد على برسول خاص (سليمان أغا الجركسى رئيس أغوات السراى) يحمل إليه بعض الارشادات و يفيده بأنه سوف يرسل إليه مددا بقيادة خليل باشا محافظ الاسكندرية ليعينه على فتح الدرعية .

وطلب إليه أبوه فى رسالته التى حملهااليه الرسول ألا يداخله ريب أو تأثر بسبب إرسال خليل باشا لمعاونته ، ولكن ابراهيم باشا ، الذى كان حريصا على إرضاء أبيه ومتفانيا فى طاعته ، كتب إلى محمد على يقول : "اطلعت على مضمون أمركم السامى وعلى ماتفضلتم بإشعارى فى متن هذا الأمر العالى من أنه لا يجوز أن يخطر لعبدكم شيء بسبب انتداب صاحب السعادة عبدكم خليل باشا لهذه الجهات بسبب حداثة سنى وأن يضطرب فكرى وأقول إن هذه المسألة يمكن إتمامها سواء انتدب المشار

اليه أم لم ينتدب ، و إنى أجيب بأن كلينا ، عبدكم وخليل باشا ، من غلمان أفندينا التى لا تعتق مما هو معلوم للجميع ، كما لا أشك فى أن قدوم خليل باشا باعث على الافتخار لى ، لأنه أولا من أقاربى وثانيا فإن معاونته لى لاتقاس بمعاونة غيره ، وفضلا عن ذلك فإن صداقته لأفندينا أمر بدهى ، ومجيئه هنا يسهل المصلحة ولا يوجد لدى أى شك فى أنه عند حضور المشار إليه ورؤساء العساكر تقوم بعناية الله الملك المتعال بالهجوم من خمس جهات فيتم الفتح والنصر... ... و إذا كان أحد قد أنهى لأفندينا خلاف ذلك فإنى أقول إن الله يعلم أنى عبدكم صرت مسرورا وممنونا ، و بسطت يدى فى الحال أدعو الله دعاء جزيلا لأفندينا إذ أن ورود عساكر كثيرة بهذه الدرجة فى أول الأمر هو فخر عظيم لعبدكم كما أنه لو تم بعناية الله فتح الدرعية بالسيف لكان فخر ذلك أكثر مما إذا كان الفتح بالمحاصرة ... فإن شاء الله تعالى لدى حصول العلم لدولتكم بعبوديتى وكيفية الحال ، فإن الأمر مفوّض لصاحب الدولة والمرحمة سيدى وولى نعمتى وسبب فيضى وراحتى فى شأن التفضل بإبقاء حسن التوجهات السنية التى استأنست بها وألفتها من زمن بعيد وقريب"[1].

ذلك جانب من رسالة إبراهيم إلى أبيه تنطق بما يفيض به قلبه من حب وإخلاص ، وتدل على ما كان يحمله إبراهيم من نكران الذات بالنسبة لأبيه ، ولكنه فى الوقت ذاته كان حريصا على ثقة أبيه فى كفايته ومقدرته الحربية ، وغيورا على مجده الحربى أن يهن أو يضعف أو يتخاذل بعد أن وضع أبوه كل ثقته فيه ، فعزم عزما صارما على أن يفتح الدرعية قبل أن يصل خليل باشا بإمداداته الكبيرة .

بدأ الهجوم ، وحمل ابراهيم على أهل الدرعية فى متاريسهم وفى معاقلهم وفى أبراجهم وفى بيوتهم حملات شعواء استخدمت فيها المدافع الضخمة والشعل النارية والبنادق والسيوف ، ثم أحاطت جيوشه بالمدينة واحتلت حيا من أحيائها

(١) من ابراهيم باشا إلى والده : وثيقة رقم ٩٤ محفظة رقم ٥ بتاريخ ٩ رمضان ١٢٣٣ بدار المحفوظات الملكية بعابدين .

وانتشرت فى الحدائق المحيطة بالأحياء الأخرى ، فوهنت عزائم المدافعين ونظر عبد الله حوله فلم يجد من رجاله وحرسه الخاص سوى نفر ضئيل ، فحض عبد الله قومه على المقاومة ، واستفز همتهم واستثار حميتهم ، ولكنهم أشاروا له على حى الطريف ، الذى دك عن آخره ، وعلا الصياح واشتد الصخب ، فلم يسع الزعيم السعودى إلا أن يطرق برأسه الى الأرض يأسا وحزنا ، واضطر الى إجابتهم الى ماطلبوه من الرضا بحكم القضاء والأمر الواقع ، وارتفعت راية التسليم تطلب الكف عن القتال .

وفى ٩ سبتمبر ١٨١٨ وصل رسول من طرف عبد الله الى خيمة ابراهيم ملتمسا بالنيابة عن أميره وقف إطلاق النار وتعيين موعد لمقابلة عبد الله ومفاوضته ، فأجابه ابراهيم الى طلبه ، وبعد ساعات حضر عبدالله يصحبه مائتان من حرسه ، فتلقاه ابراهيم بمظاهر الرعاية والاحترام ، وسأله لم ظل مصرا على المقاومة بينما كان جميع السكان قد أدركوا ألا فائدة من النضال ، فأجاب عبدالله : "لقد انتهت الحرب الآن وكان ما هو كائن بقضاء الله وقدره ، وما غلبتنا جنودك ، ولكن الله هو المعز المذل" وضعف صوت الأمير وهو ينطق بهذه الكلمات وانهمرت دموعه فعزاه ابراهيم وتلطف معه قائلا : "إنه ما من بطل فى العالم إلا وبه نقص وضعف ، وأن الكمال المطلق لله ، والانسان ليس معصوما من نوازل القدر" . ولما طلب عبد الله الصلح ، أجابه ابراهيم إليه ثم أضاف قائلا : "وإنى لجاعلك الحكم فى شروطه وإنما هناك أمر لا تصرف لى فيه ألا وهو بقاؤك فى الدعية فإن الأوامر الصادرة الى تقضى بذهابك الى مصر" فأطرق عبد الله هنيهة وطلب تأجيل إجابته عن ذلك الى الغد ، وفى الغد وفى الأمير بوعده ، وجاء موافقا على السفر الى مصر إذا ضمن ابراهيم له النجاة ، فقال له ابراهيم : "إذا كنت لا أستطيع أن أتدخل فى إرادة الوالى فى مصر فإنى من باب أولى أعجز عن التدخل فى إرادة السلطان" .

وإنى اعتقد تماما أنه لم يكن يدور بخلد ابراهيم أو بخلد أبيه أن يلق عبد الله ذلك المصير الأليم الذى لاقاه فى الآستانة فقد قال له ابراهيم مخلصا : " ولو أنى لا أملك التحكم فى إرادة الوالى والسلطان إلا أنى اعتقد أنهما من كرم النفس وسعة الصدر بحيث يأبيان التنكيل بعدو سلم نفسه " ، وعندما وصل عبد الله الى مصر استقبله محمد على فى قصر شبرا استقبالا حسنا وسأله رأيه فى ابراهيم وما يشعر به نحوه ، قال عبد الله : " إن ابراهيم قد قام بالواجب عليه كما قمنا نحن بالواجب علينا وقد أراد الله ذلك وقضى به ولا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه " ، وقبل أن تنتهى المحادثة أخبره محمد على أنه قد التمس له العفو من السلطان ، ولكن مما هو جدير بالذكر أن الباشا لم يعط الأمير وعدا أو تأكيدا بأن الباب العالى سوف يتسامح معه أو يقرر العفو عنه ، إذ لم يكن محمد على إذ ذاك يملك هذا العفو ، وبعد هذا الحديث ألبسه محمد على خلعة من السمور ، ثم أسكنه فى قصر ابنه إسماعيل باشا ببولاق ، حتى حان موعد سفر الأمير الذى أخذ سمته إلى الآستانة حيث كان ينتظره حتفه المحتوم ، الذى أعدّه له رجال الباب العالى الذين كانوا يتعطشون للتمثيل به والانتقام منه ولم يشفع له عند السلطان التماس الباشا ولا رجاؤه بالعفو عنه (١) .

أما إخوة عبدالله بن سعود الأربعة ، فكانوا أسعد حظا من أخيهم الأكبر ، إذ لم يطالب بهم السلطان بل كان من نصيبهم أن يرسلهم إبراهيم باشا إلى القاهرة ، فيلقاهم أبوه العظيم بالبشر والترحاب ، ويقرر مرتبات كافية تضمن لهم العيش الرغيد ، وتهون عليهم ذل التسليم . كان هؤلاء الإخوة الأربعة هم : فهد ، وسعد ، وحسن ، وخالد أبناء سعود الكبير . وخالد هذا كان أصغرهم سنا وأسعدهم حظا ، إذ اختصه محمد على برعايته وعطفه نظرا لما كان يأنس فيه من ذكاء ومرونة وسعة أفق ، فعنى بتثقيفه فى مدارس القاهرة ، فأصبحت ثقافته مصرية صميمة ، حتى قال عنه أحد

---

(١) Gouin, E.: L'Egypte au XIX Siècle. Paris 1846.

المؤرخين إنه لم يكن يفترق فى شىء عن المصريين ذوى الثقافة الأوربية[١] . ولما اكتمل تعليمه عينه محمد على كاتبا فى الديوان الخديوى بمرتب لا بأس به[٢]، وقد ظهر فيما بعد أن الباشا كان يعده لمهمة خطيرة لم يحن أوانها إلا فى عام ١٨٣٦، عندما عزم الباشا على أن يرسله فى حملة أخرى إلى قلب الجزيرة، لتكون نواة لضم جميع البلاد العربية على الخليج الفارسى كالحسا والقطيف وجزر البحرين والكويت وغيرها، وكان محمد على يعلم علم اليقين أن من الصعوبة بمكان أن تخضع نجد لأى حكم أجنبى، فرأى بثاقب بصره أن يعين خالد بن سعود، ربيبه وصديقه، أميرا على نجد، وبذلك يكتسب رضاء الأقطار النجدية بعودة الإمارة إلى أمير نجدى من آل سعود، ويضمن لنفسه ولاء ذلك الأمير الشاب الذى أحب مصر وأحب محمد على من كل قلبه .

ولنعد إلى البطل ابراهيم، فإنه بعد أن أتم فتح الدرعية، كان عليه أن يطرح سياسة الشدة والصرامة جانبا بعد أن انتهت الحرب ، ليكسب باللين والموعظة الحسنة ، أولئك المشايخ ورؤساء القبائل ، الذين حاربوه وانتصر عليهم وكان فى استطاعته بعد ذلك النصر الحاسم أن يذيقهم كأس الهوان . فأعلن أنه يؤمن من يطلب الأمان، وأغدق المال على من انضم اليه ، ورد النخيل الذى كان قد صادره إلى أصحابه ، فسارعت القرى والقبائل فى نجد والحجاز إلى طلب الأمان ، بل ونجد أشد النجديين تعصبا ممن حاربوه فى (القصيم) وخاصة فى بريدة وعنيزة يقدمون إليه كميات من الشعير وغيره من الحبوب للمساعدة فى تموين الجيش[٣] . أضف إلى هذا حسن لقائه للناس، وبشاشته فى وجوههم وسعة صدره معهم، وكرمه وسخاءه .

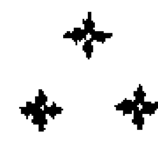
D'Avril: L'Arabie Contemporaine. P. 21. Paris 1868. (١)

(٢) المحفوظات الملكية : أمر رقم ٧٥١ دفتر رقم ٧٤ ص ١٣٠ .

(٣) المحفوظات الملكية المصرية : وثيقة رقم ٥ محفظة رقم ٥ [٣ محرم ١٢٣٧].

وقد عنى عناية خاصــة بمسألتين على جانب كبير من الأهميــة ؛ أولاهما تنظيم التموين فى مكة والمدينة بجلب الأغنام والمسلى والمؤن والبضائع من الأقطار الشرقية، مما ألهج ألسنة السكان والحجاج والزوار بالثناء والتقـدير، وثانيتهما : العناية بالحجاج وتأمين الطرق حتى يشعر المسلمون فى أنحاء الأقطار الإسلامية بفضل الحكم المصرى فى الحجاز وحزم الإدارة واستتباب الأمن ، هذا إلى ما اقترحه على أبيه من ضرورة توزيع مرتبات من الغلال على فقراء البلدتين المقدستين ومجاورى الحرمين (١) ، وقد رحب الباشا بهذا الاقتراح وأمر بتحرير كشوف بأسمــاء الأسر الفقيرة والمجاورين ليتسلموا نصيبهم سنويا من الشونتين المنشأتين فى مكة والمدينة، ولأول مرة منذ ابتداء الحكم العثمانى فى الحجاز سنة ١٧١٥ يشــعر السكان والحجاج بالأمن المستتب بين مكة والمدينـة حيث أصبح الطريق بين البـلدتين آمنا هادئا ، وذلك بفضل السياسة الحكيمة والإدارة الحازمة التى وضع أساسها ابراهيم باشا .

كان ابراهيم حريصا على أن ينفذ سياسة والده ، فكان يغضب أشد الغضب عندما يسمع أن أحدا من ضباطه أو جنوده اعتدى على أحد من السكان أو اغتصبه شيئا ، وكان يعمد فى أوامره التى يصدرها للجيش أو للموظفين المدنيين الى تحذيرهم من ظلم الأهالى وتنبيههم الى أن الجناب العـالى (محمــد على) لا يرضى باغتصاب الأملاك أو ابتزاز الأموال وأن الباشا (لا يرضى الجـور أو إيقاع الأذى بجيران الرسول (٢)) .



تمت العمليات الحربية فى نجد ، ووصل أمر محمد على الكبير الى ولده البطل أن يغزو بقية المناطق المجـاورة لنجد ، وهى تلك التى كانت داخلة فى نطاق الدولة السعودية إبان عظمتها فى عهد ســعود الكبير ، أو تلك التى كانت تحت السيادة

---

(١) المحفوظات الملكية المصرية : وثيقة رقم ١٦ محفظة رقم ٩١ بجربرا .

(٢) المحفوظات الملكية : وثيقة رقم ٥٣ دفتر رقم ٧

السعودية . صدع ابراهيم بالأمر وغزا الجيش المصرى منطقة (الحسا) فى أواخر عام ١٨١٩ ، وهى تلك المنطقة الممتدّة على الساحل العربى من خليج فارس ، من حدود الكويت الى حدود قطر وعمان ، وبذلك أطلت جيوش ابراهيم على الخليج الفارسى واحتلت مدينة (القطيف) وميناء (العقير). ثم استولت على (الهفوف) قاعدة منطقة الحسا وتقع فى الزاوية الجنوبية الشرقية من المناطق المنزرعة وتنقسم الهفوف الى ثلاثة أقسام (الكوت) فى الشمال الشرقى ، و (الرفعة) فى الشرق و (النعاثل) فى الجنوب الغربى وقد عنى ابراهيم بالقسم الأوّل (الكوت) نظرا لأنه قاعدة إمارة الحسا ، ولمناعته وأهميته الحربية إذ يحيط به سور عظيم يبلغ ارتفاعه ٢٤ قدما ، وقد شيد عليه ابراهيم عدّة أبراج وضع بها حاميات من جنوده (١) .

وكان لوصول جيش ابراهيم إلى سواحل الخليج الفارسى أثران سياسيان على جانب كبير من الأهمية :

أولها أن الباب العالى قد حز فى نفسه ذلك النجاح الكبير الذى صادفه جيش محمد على ، وزاد من كمده احتمال وصول الجيش المصرى إلى خليج البصرة ، فكان يخفى فى قرارة نفسه خوفه من أن تصل هذه الجيوش فى وقت ما إلى العراق (٢) .

ثانيهما اهتمام الانجليز اهتماما كبيرا بوصول ابراهيم إلى تلك الجهات ، حيث بدأت حكومة الهند البريطانية تنظر إلى حركات الجيش المصرى فى تلك الأصقاع نظرة الشك والارتياب ، وخشيت أن يأتى يوم يتحكم فيه محمد على فى الساحل العربى من الخليج الفارسى فيضر ذلك بسيادتها فى مياه ذلك الخليج ويتعارض مع مشروعاتها التى تضمرها هناك .

---

(١) حافظ وهبه : جزيرة العرب فى القرن العشرين — ص ٨٠

(٢) تاريخ جودت (باللغة التركية) ترتيب جديد — ص ١٥ جزء ١١

وكان الانجليز يعملون منذ سنين على مدّ سلطانهم نحو الخليج الفارسى ومحاربة القرصنة التى كانت تعترض الملاحة التجارية وتعتدى على مصائد اللؤلؤ حول جزر البحرين، لذلك فرضوا صداقتهم وأملوا إرادتهم على إمام مسقط ، ولما فتح عبد العزيز بن سعود الحسا ، حاول الانجليز أن يتصلوا به فى عام ١٧٩٩ لكى ينشئوا معه علاقة ودّ وصداقة ليضمنوا عدم الاعتداء على السفن الانجليزية فى الخليج ، فأرسلوا اليه بعثة يرأسها رينود Reinaud وهو أحد الموظفين الذين أقاموا مدة طويلة فى البصرة والكويت . وقد أقلت رينود سفينة انجليزية الى القطيف ، ثم ذهب الى الهفوف فى حماية أحد إخوة الأمير الوهابى ، وسار بعد ذلك الى الدرعية حيث قوبل هناك بالإكرام والرعاية وعاد فى سلام (١) . ولكن لم يكن فى استطاعة الحكومة السعودية أن تفرض سيطرتها على عصابات القراصنة التى عاثت فسادا فى الخليج الفارسى ، ورأى الانجليز أن من العبث الاعتماد على الاتفاق مع الأمير السعودى .

وفى عام ١٨١١ حاول سعود الكبير أن ينشئ علاقة ودّية مع الانجليز فأرسل رسولا إلى المقيم البريطانى فى (بوشير) ، ولكن حكومة الهند البريطانية لم تكن تميل إذ ذاك الى عقد معاهدة مع الأمير الوهابى انتظارا للحوادث التى كانت توشك أن تقع فى بلاد العرب ، عندما بدأت الحملة المصرية بقيادة طوسون تغادر السويس ، وفى عام ١٨١٤ قيل أن بعثة سعودية أخرى قامت تحمل رسالة من الأمير ومن شيخ القواسم لعقد اتفاق دائم بعدم اعتداء القراصنة القواسم على السفن التى تحمل العلم الانجليزى ، على أن تلك البعثة ردّت دون اتفاق ، انتظارا لما تتمخض عنه الحوادث ، وما يترتب على الحملة المصرية من نتائج (٢) . وكان من نتائج هذا الموقف الذى وقفه البريطانيون أن ازدادت حوادث القرصنة ، وازداد القواسم طغيانا واعتداء ، ولم تستطع

---

(١) Hagarth: The Penetration of Arabia. P. 104. London 1904

(٢) Wilson: The Persian Gulf. P. 250. London 1928

الحكومة النجدية وقف الاعتداءات ، بل إن نجاح القـواسم وما أصابوه من ثروة وما جمعوه من الأموال المسلوبة قد أغرى مشايخ البلاد التى تقع على سواحل الخليج على تقليدهم فاقتفوا أثرهم فى القرصنة .

ازدادت قوة القراصنة نموا حتى أصبح أسطولهم لايقل عن مائة سفينة ، منها ستون اتخذت (رأس الخيمة) قاعدة لهـا ، والأربعـون الأخرى كانت موزعة على بعض موانى الخليج الفارسى ، ولم يكتف بعض هـذه السفن بالاغارة على السفن التى تمخر عباب الخليج بل جاوزت ذلك الى الخروج للاغارة على السفن التى تقترب من سواحل الهند .

وفى ذلك الوقت كان ابراهيم باشا يتقدم بجيشـه فى منطقة الحسا فى طريقـه إلى ساحل الخليج الفارسى ، وقد راع القواسم ما سمعوه عن النجاح السريع الذى لازم ابراهيم فى الحجاز ونجد فتوقعوا أن تكون الخطوة التالية للمصريين فى عملياتهـم الحربية بعـد الاستيلاء على القطيف تدمير وكرهم فى رأس الخيمـة ففكروا جديا فى مغادرتها إلى إحدى الجزر النائية بالخليج ، وقد وصلت معلومات كثيرة إلى حكومة الهنـد تدل على هـذا الاتجاه فتلقى الأسـطول البريطانى فى الخليج الفارسى أمرا بالاسـتعداد لمنع القواسم القراصنة من التحرك فى داخل الخليج أو تثبيت أقدامهم فى أى جزيرة أو مكان آخر ، وقامت حملة قوية من بومباى تحت قيادة سير جرانت كير Grant Kier ، وتقرر فى الوقت نفسه أن يقوم الكابتن سادلير Sadlier فى بعثة ليقابل ابراهيم باشا وزودته حكومته بالتعليمات الكافيـة والأغراض التى ترمى بهـا من ورائه بعثته ؛ أما الحملة التى قامت لتدمير قوة القراصنة قبل هروبهم من التقدم المصرى وتوغلهم داخل الخليج ليعششوا حول بعض الجزر ، فقد تقدمت نحو رأس الخيمة ونجحت فى الاستيلاء عليها فى ٩ ديسمبر سنة ١٨١٩ بعد حصار دام ستة أيام

---

(١) Wilson. P. 251

وأحرقت جميع سفن القرصنة ثم عاد الأسطول إلى بمباى بعد أن قضى على أقوى معقل للقراصنة .

أما سادلير الذى كلف بالذهاب الى الحجاز لمقابلة ابراهيم باشا فكانت بعثته سياسية استطلاعية، ظاهرها تهنئة البطل ابراهيم باسم الحكومة البريطانية بالهند بما أحرزه من نجاح فى بلاد العرب وعرض اتفاق معه على التعاون مع حكومة الهند ضد القراصنة الذين كانوا معتنقين للمذهب الوهابى ، أما الغرض الخفى من بعثة سادلير فنستطيع أن نلمسه فى التكليف السرى الذى أرسلته حكومة الهند الى سادلير تقول له فيه : " إنك مكلف أثناء وجودك فى المعسكر التركى (أى المصرى) أن تتحقق تماما من المقاصد التى يرمى اليها ابراهيم باشا فى عملياته الحربية القادمة وغزواته نحو الخليج الفارسى دون أن يلحظ الباشا أن تلك هى مهمتك الأساسية[(١)] " .

كان الانجليز يقدرون قوة جيش ابراهيم باشا فى بلاد العرب بعد أن رأوا كيف أحرز النصر تلو النصر وكيف طوى بساط الجزيرة فى زمن قليل ، وها هم يرونه يصل الى الخليج الفارسى ويضع حاميات فى أهم موانى الساحل العربى من الخليج ، فاعتقدوا أن هذه الجهات التى فتحها ابراهيم بشق النفس وبذل الأرواح ، لا يمكن أن ينسحب منها قبل أن يثبت أقدام الحكم المصرى بها ، فهو لا شك يرمى إلى امتلاكها أو التسلط عليها ، وأن الحسا قد تصبح ولاية مصرية ، فرأوا من الخير أن يتفاهموا مع ابراهيم ، لعلهم يستطيعون إشراكه فى الحملة التى أزمعوا إرسالها لتدمير القراصنة ، ولعلهم أيضا يستطيعون الاشتراك معه فى العمليات الحربية ضد السعوديين فى نجد حيث يقاسمونه ثمرة النصر فى أول الأمر ثم يزحزحونه فى الوقت المناسب .

---

(١) Newnham: (acting-Chief-Secretary) Secret Department, Bombay to Captain Sadlier, 13th April 1918. Sadlier Diary. P, 131.

لم يصل سادلير فى الوقت المناسب لأنه وصل بعد أن نجح ابراهيم باشا فى تدمير الدرعية واحتلال الحسا والقطيف ، وفوجئ الكابتن سادلير بوجود حامية مصرية فى القطيف على رأسها قائد ينوب عن ابراهيم باشا ، ولو أن هذا القائد المصرى كان على وشك الانسحاب بحاميته لكى يترك الحسا يحكمها بنو خالد الموالون للحكم المصرى طبقا للسياسة التى رسمها محمد على لحكم هذه الجهات (١). وقد علم سادلير عندما وصل إلى القطيف أن دولة عبد الله بن سعود قد دالت ، وأن الدرعية أصبحت أثرا بعد عين ، وأن محمد على قد أمر ابنه ابراهيم باشا بالانسحاب من نجد ومن البلاد التى فتحها على الخليج الفارسى على أن يترك فى المواقع المهمة حاميات صغيرة للمحافظة عليها ومعاونة الحكام المحليين الموالين لمحمد على هناك ، فوقع سادلير فى حيرة وارتباك إذ كان عليه أن يتمم مهمته الرسمية والسرية ، ويتأكد بنفسه من نوايا ابراهيم أو بالأحرى من نوايا محمد على ، وعلى ذلك قرر مواصلة بعثته حتى يقابل ابراهيم أينما كان فى جزيرة العرب ليقف منه فى جلاء على مقاصد محمد على فى الخليج الفارسى .

وفى ٢٨ يونيو سنة ١٨١٩ ذهب سادلير إلى الهفوف قاعدة الاحساء فلم يجد ابراهيم ، فانتظر قيام قافلة حربية كانت على وشك أن تخرج إلى نجد ، وقد تحركت تلك القافلة الكبيرة فى ٢١ يوليه ١٨١٩ ، وكان سادلير يهتم أشد الاهتمام بدراسة كل موقع من المواقع التى يمر بها ، ويقيد ملاحظاته بعد أن يستفسر عنها بدقة من الخبيرين والأدلاء ، ثم ضمن كل ذلك تقريره الكبير الذى رفعه إلى الحكومة الإنجليزية فى الهند (٢). وما أن وصل سادلير إلى بلدة (الرس) التى كان يعتقد أنه سيقابل إبراهيم بها حتى سمع أن الباشا قد غادرها إلى المدينة .

---

(١) Wilson. 71.

(٢) اهتم سادلير بدرس شئون تلك النواحى من الناحية التجارية ومواضعها ومزاياها ، ووضع عدة خرائط تبين توزيع البدو والحضر فى قلب الجزيرة العربية نجدها جميعا فى تقريره الذى طبع بعد ذلك فى بومباى سنة ١٨٦٦ بعنوان A Diary of a Journey across Arabia during the year 1819.

وأخيرا سار إلى المدينة ورأى عن بعد أشجارها ونخيلها ، ولما لم يكن مصرحا لأى مسيحى بدخول المدينة أو مكة ، فقد حط رحاله فى بير على حيث التقى هناك بالطبيب الايطالى سكتو الذى كان مرافقا للحملة المصرية [١] .

وفى ٨ سبتمبر سنة ١٨١٩ سمح له بالمثول بين يدى إبراهيم باشا الذى ذهب خصيصا إلى بير على لاستقباله ، فسلمه سادلير كتابا من حاكم بمباى يهنئه فيه باسم حكومة الهند على نجاحه فى حملته و يبثه أصدق تمنياته لعملياته الحربية القادمة ، ثم أهداه باسم الحاكم سيفا مرصع الغمد ومقبضه محلى باللآلئ الكريمة [٢] . ثم عرض سادلير على إبراهيم باشا أمر بعثته قائلا إن حكومته قد ساءها تكرار العدوان من القراصنة الوهابيين الذين يقيمون على ساحل الحسا على السفن التى تسير فى الخليج الفارسى ، وأنها لم تكد تعلم بأنباء الحملة المصرية فى نجد حتى قررت إرسال أسطول حربى لتخريب أوكار القراصنة فى الخليج الفارسى ، وأن حكومة الهند يسرها أن يتعاون معها إبراهيم باشا وأن تكون العمليات الحربية على سواحل الخليج مشتركة [٣] . ثم أخذ سادلير يتطرق فى حديثه إلى ما ينبغى عمله ليستشف من إجابات إبراهيم باشا شيئا عما ينتوى عمله ، ولكن إبراهيم — كما قال فى رسالته لأبيه العظيم — كان متحفظا أشد التحفظ ولم يزد عن قوله بأنه لا يستطيع أن يبت فى أمر العمل المشترك لأنه إنما ينفذ أوامر أبيه فى كل خطواته كما هى ، وما هو إلا آلة فى يده يوجهها كما يشاء ، ولذا فليس فى وسعه أن يعده بشىء ، ثم عرض على سادلير أن ينزل ضيفا عليه حتى يصدر أمر الجناب العالى [٤] .

---

(١) Musil: Northern Najd. P. 270 New York 1928.

(٢) المحفوظات الملكية المصرية : من إبراهيم باشا إلى محمد على وثيقة رقم ١١٥ محفظة رقم ٦ .

(٣) Dodwell; The Founder of Modern Egypt. P. 58

(٤) المحفوظات الملكية المصرية : الوثيقة السابقة .

كان السلطان يكره اتصال محمد على بالانجليز وينظر بارتياب إلى قيام أية علاقة ودّية بينهما، خشية أن يعتمد (محمد على) على تحالفه مع الانجليز ليفلت من تبعيته للدولة العثمانية، فلم يترك رجال الباب العالى فرصة إلا انتهزوها لإثارة الفتنة وإيجاد هوّة تفصل دائما بينه وبين الانجليز.

فعندما أبلغ سفير انجلترا فى تركيا الباب العالى أن "قائد الانجليز الموجود فى الهند قد عقد النية على تجهيز عدّة سفن وتسييرها من بومباى الى الخليج الفارسى وأنهم قد أرسلوا ضابطا الى إبراهيم باشا للاتفاق معه" أسرع الصدر الأعظم بالكتابة الى محمد على قائلا: "إن من لوازم الحكمة عدم الانخداع بحيل الانجليز إذ ليس قصدهم من ذلك سوى إيجاد ذريعة للتسلط على تلك الجهات وأن مرماهم — كما هو مبين فى المذكرة التى قدّمها سفير فرنسا — هو الاستيلاء على بعض تلك الجهات"(١) وختم الصدر الأعظم رسالته الى محمد على بالاستعداد لمثل هذه الحالة واستكماله وسائل الدفاع عن بلاد العرب.

وصلت تلك الرسالة الى محمد على فى الوقت الذى كانت الفكرة قد اختمرت فى رأسه بأن لا يتعاون ابراهيم باشا مع الانجليز فى أية بقعة من بلاد العرب فكتب الى إبراهيم يطلب إليه أن يردّ طلب سادلير فى حكمة وتلطف وأن يتعلل بأنه قد وعد بأن يستريح هو وجنوده بعد فتح الدرعية إزالة للتعب واستجماما للراحة(٢). وهكذا فشلت بعثة سادلير، وعاد الى الهند ليقدّم تقريره الكبير عما شاهده أثناء رحلته الطويلة التى قطع بها شبه الجزيرة العربية من الشرق والغرب.

---

(١) من سيد على باشا الصدر الأعظم إلى محمد على: وثيقة رقم ٢٧ محفظة رقم ٢ لعام ١٢٣٥ هجرية: المحفوظات الملكية بعابدين.

(٢) من محمد على الى إبراهيم باشا: مرفق بالوثيقة رقم ١١٥ محفظة رقم ٦ بحر برا.

أخذ إبراهيم باشا بعد ذلك فى تدعيم أركان الحكم فى بلاد العرب، وتأمين السكان على أموالهم وأملاكهم، وعنى بتعيين أنصار الحكومة فى الوظائف المحلية وخاصة ما اتصل منها برئاسة القبائل وزعامة الأشراف ولم يدخر وسعا فى تنفيذ سياسة أبيه من حيث مكافأة الموالين لمصر بتعيين المرتبات ومنح العلاوات وتوزيع الغلال والكساوى، وبلغ من رغبته فى استمالتهم وإظهار العطف عليهم أن عرض على بعضهم أن يرسل أولادهم فى بعثات تلحق بالأزهر الشريف على أن تخصص لهم الحكومة المصرية مرتبا كافيا يعيشون به فى القاهرة [1].

وبعد أن انتهت مهمته الكبرى، تقرر سفره الى مصر، فذهب فى موسم الحج الى مكة المكرمة وأخذ مكانه بين الحجاج وصعد الى جبل عرفات وضحى بثلاثة آلاف رأس من الغنم وفاء بنذره إذ أوتى النصر من عند الله ووزع أثناء عودته من عرفات إلى مكة الصدقات والمنح، واجتمع على أثر ذلك بجنوده الذين تقرر سفرهم الى مصر، وودع ضباطه وجنوده الذين كان من نصيبهم البقاء فى مكة والمدينة وجدة وينبع والقنفذة .

وفى ٩ ديسمبر سنة ١٨١٩ وصل إبراهيم إلى المياه المصرية وتراءت له أرض بلاده فخفق فؤاده العظيم ودمعت عيناه فرحا بتوفيق الله . وفى ١١ ديسمبر وصل إلى قصر شبرا حيث استقبله كبار رجال الحاشية والجيش والأعيان، وقام فى موكب فخم توجه به نحو القلعة وكان دخوله إلى القاهرة فى هذا الموكب العظيم من باب الفتوح فظل سائرا حتى صعد القلعة وكانت الحوانيت والشرفات والنوافذ والسطوح مزينة بأجمل الزينات، والمصريون الفرحون يحفون بموكبه من كل جانب وتعالت أصوات الهتاف والتهليل والتكبير إلى عنان السماء . وهكذا شهدت العاصمة يوما من أيام التاريخ لم تر له مثيلا فى ذلك العصر، ولكن شخصا واحدا كانت تبحث عنه

---

(١) من إبراهيم إلى محمد على : وثيقة رقم ٤ محفظة رقم ٢٦٧ عابدين .

الأنظار والأفئدة فلا ترى له أثرا ، ذلك هو الأب البار محمد على الكبير ، إذ آثر ألا تقع عليـه الأنظار فى ذلك اليوم ، فاليوم يوم إبراهيم ، فلا يجب عندئذ أن يؤثره أحد بالتمجيد أو الهتاف ، فولده البطل أولى اليوم منه بأن يتمتع بكل الحفاوة وكل التقدير ، واكتفى محمد على الكبير بأن يتخذ له فى مسجد السلطان الغورى مقعـدا بسيطا شهد فيه الاحتفال العظيم حتى إذا مر أمامه ابنه إبراهيم طفرت دموع الفرح من عينيه وبسط يديه لله حامدا آلائه ، شاكرا نعمائه ، داعيا إلى الله أن يحفظ له إبراهـيم .



ابراهيم باشا فى طليعة جنوده

ابراهيم باشا فى بلاد اليونان

للأستاذ محمد أحمد حسونه بك أستاذ التاريخ بكلية دار العلوم (جامعة فؤاد الأول)

حال اليونان قبل الثورة

لما كانت شبه جزيرة اليونان واقعة فى ملتقى أوربا وآسيا وأفريقية ، تطلعت اليها عيون الفاتحين من قديم الزمان ، فاضطر سكانها الى الخضوع للأجانب من مقدونيين ورومان وصقلب وصليبيين وبنادقة وترك . على أن كل عنصر دخل هذه البلاد اصطبغ بالصبغة اليونانية ، اللهم إلا الترك فإنهم بقوا بمعزل عن السكان بسبب اختلاف الحكام والمحكومين فى المزاج والدين ، ذلك الاختلاف الذى كان من أسباب الثورة .

ومن الطرق السهلة لمعرفة أهم هذه الأسباب ، استعراض حال كل فئة من فئات الشعب اليونانى أيام خضوعه للحكم العثمانى ، والتعقيب على ذلك بوصف حركة الرقى بين أفراد الشعب فى غضون ذلك الحكم الى قيام الثورة .

وأول ما نعجب له أن نرى الترك الفاتحين يعملون من أول الأمر ، وعن غير قصد ، على تنمية الشعور القومى بين المحكومين بوسائل متباينة : منها أن محمد الفاتح حين تسلم القسطنطينية طبق مبادئ الدين الإسلامى ، «فعامل اليونانيين معاملة المسلمين فى كل ما يتصل بأمنهم على حياتهم وأموالهم وشرفهم ، ولم يكتف بالسماح للبطريرك بكل الميزات التى كانت له أيام قياصرة الروم ، بل منحه الى جانب ذلك جزءا من نفوذ أولئك القياصرة ، حتى أصبح الرئيس الرسمى للمسيحيين من رعايا الباب العالى ، لا فى أمور الدين فحسب ، بل فى الأمور المدنية كذلك ، ومن ثم صار المطارنة الذين ينوبون عنه يمثلون السلطة الدينية والسلطة المدنية فى آن واحد

فكانوا يفصلون فى جميع قضايا المسيحيين باللغة اليونانية، وطبقا للقانون الرومانى الذى ألفوه من قبل، وكان يحدث أحيانا أن يفضل أحد المسلمين الاحتكام اليهم فى نزاع شجر بينه وبين أحد المسيحيين . وبمضى الزمن صار رعايا الباب العالى من المسيحيين يدينون بالطاعة للبطريرك أكثر مما يدينون بها للسلطان، وبهذا أصبحت البطريركية دولة فى جوف الدولة العثمانية، على أن البطريرك — وقد صار مسئولا عن " شعبه " أمام السلطان — كان يعمل أيام السلاطين الأقوياء على توجيه نظر الشعب — بالفعل دون اللفظ — الى العقيدة المسيحية : " أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله " .

والى جانب عطف السلطان على البطريركية كان يشمل برعايته الخاصة فئتين من اليونان هما الفناريون ورؤساء المطارنة . والفنار — أو المنارة — اسم يطلق على الحى الذى كان يقوم فيه قصر البطريرك، والذى كانت تسكنه جالية يونانية نشيطة يعمل أكثرها فى التجارة والربا، ويختار السلطان من بين أفرادها كثيرا من أعوانه فى الأعمال المالية والسياسية، وأعظم هؤلاء الأعوان شأنا التراجمة، إذ كانوا يرقون من مجرّد واسطة للتفاهم الى مستشارين، يستمع الى رأيهم فى كل ما يتصل بالسياسة الخارجية، وبلغ من ذلك أن نفوذ ترجمان الباب العالى كان فى بعض الأحيان يفوق نفوذ " الريس أفندى " وهو وزير الخارجية عند الترك، وكانت له كذلك إصبع فى السياسة الداخلية، لأنه كان منوطا بتبليغ " الديوان " رغبات اليونان وحاجاتهم — تلك الرغبات والحاجات التى كان يرفعها اليه رؤساء المطارنة عن طريق مندوبين يسمون " الوكلاء " .

ومنذ سنة ١٧١١ جعل السلطان يختار من الفناريين حكاما لولايتى البغدان والافلاق ، وكان هؤلاء الحكام يتلقون من السلطان تقليدا ، أسوة بالولاة من الباشوات ، ويتسلمون من البطريرك تقليدا آخر يراد به استرضاء المسيحيين من أهل هاتين الولايتين .

وأهمّ خدمة أدّاها الفناريون لبنى جنسهم رفع مستوى التعليم بينهم بإنشاء المدارس فى أنحاء الدولة العثمانية ، ثم فتح باب الوظائف المالية والإدارية والسياسية أمام النابهين من خريجى تلك المدارس .

وأما رئيس المطارنة — ويسميه الترك " خوجا باشى " — فهو المندوب الذى يختاره المسيحيون لتمثيلهم فى مجلس القسم بينما يمثل المسلمين عضو يسمى " أعيان " . وكان خوجا باشى والأعيان منضما اليهما أمين صندوق يؤلف ثلاثتهم مجلس القسم ، ذلك المجلس الذى يعاون حاكم القسم — البك — فى عمله ، ويشترك فى مجلس حاكم المورة كلها — مجلس الباشا — الذى ينعقد فى تربولترا .

ومعنى هذا أن رؤساء المطارنة كان لهم نفوذ فى الديوان عن طريق ترجمان الباب العالى كما رأينا ، ونفوذ فى مجلس الباشا بوصفهم أعضاء فيه ، ونفوذ أكبر من هذين فى مجلس البك ، وفوق هذا كله كان بيدهم حق تقدير الضرائب التى تدفعها كل أسرة ، وحق التعهد بجمعها ، وكثيرا ما كانوا يقومون بعمل الملتزمين فى أقسامهم . وبهذا كانت فئة رؤساء المطارنة تؤلف هيئة اعتادت التضامن فى العمل واكتسبت خبرة بتفاصيل الإدارة . فلما اندلع لهيب الثورة وجد الشعب فيهم زعماء ذوى دراية مالية كما وجد فى النظم الديمقراطية التى تنتهى إليهم رياستها وسيلة لتنظيم العمل — بشكل ما — ولا سيما فى الأدوار الأولى من الثورة : ذلك بأن العثمانيين سمحوا لأهل المورة بقسط كبير من الحكم الذاتى وشجعوهم على التمرّس به . إذ كانت المورة مقسمة إلى ثلاثة وعشرين قسما فى كل قسم نظام ديمقراطى أساسه المساواة وحق جميع الرجال فى أن يكونوا ناخبين بحيث تختار كل قرية ممثليها الملقبين " شيوخ البلدية " (demogerontes) ؛ وتختار كل مدينة ممثلين يلقبون " البارزين " (prœstes) . وكان البك الحاكم فى كل قسم يدعو هؤلاء وأولئك إلى الاجتماع ليقرروا مقدار الضرائب التى يدفعها أهل القسم ، ولينتخبوا رئيس

مطارنتهم السالف الذكر ، والذى يجلس مع " الأعيان " وأمين الصندوق فى مجلس القسم .

وكان من أثر النظام الديمقراطى الذى أقره الترك ، عن تسامح أو غفلة ، الإبقاء على فئات أخرى أشد على الحكم العثمانى خطرا من سابقتها : تلك هى فئات الأرماطول والكلفت والرهبان وصغار القسوس ، وأخيرا — وليس آخرا — ملاحو الأرخبيل . وتفصيل ذلك أن أرض الروملى الجبليــة اقتضت صنفا من الحرس لضبط الأمن فى الطرق عامة وفى الممرات بوجه خاص . وكان هذا الحرس يسمى الأرماطول(١) . فلما دخل الترك هــذه البلاد كان المعقول أن يبطل السلطان هــذا الحرس ، ولكنه على العكس من ذلك زاد فى عدده ، ووسع نفوذ رؤسائه ، وبهذا أتاح لفريق من رعيته فرصة مؤاتية للتمرس بحرب الكر والفر بجميع ضروبها ، حتى إذا أفاق " الديوان " من غفلته وشرع يقلل من عدد الأرماطول انقلب المسرحون منهــم إلى كلفت وقطاع طرق وانضم إليهم كثيرون ممن هم على شاكلتهم . وعلى الرغم من أن عصابات الكلفت كانت تسلب التركى واليونانى على السواء فإن الشعب تغنى ببطولتها لأنهــا برهنت على أن الجرأة ومواجهة الأخطار ليستا مقصورتين على الترك . ومن ثم أصبح الانضمام إلى الكلفت مظهرا من مظاهر الوطنية ، وبالتالى أصبح عملا يكاد يكون واجبا على الشبان الأقوياء من أهل " إيلاس "(٢) . حتى إذا بدأت الثورة كان الأرماطول والكلفت متأهبين لمقاتلة الترك . وكان أكثرهم يأوى إلى الأقاليم الجبليــة . وأما الرهبان وصغار القسوس فقد عاملهم الترك بمــا يوجبه الإســلام من الاحترام والتسامح الدينى فعــاش الرهبان فى ديورتهم بمثابة جماعات جمهورية تقيم فى حصون منيعة واحتفظت الديورة الكبيرة بأثارة من مصباح الثقافة القديمة ، وبقيت تنفث فى الشعب إجلالا غامضا لإبطال العهــد القديم وكُتَّابه ،

---

(١) ومعناها باليونانية " حاملو السلاح " .

(٢) معناها هنا بلاد اليونان بأجمعها .

و بالتالى توحى إليه بروح وطنية مكبوتة . فلما جاءت الحرب دافع هؤلاء الجمهوريون عن أنفسهم بشجاعة عظيمة .

وأما صغار القسوس — ويلقبون الآباء — فكانوا فقراء لا يخشون أن تسلبهم الثورة شيئا ، وكانوا بحكم زواجهم أكثر ارتباطا بالشعب يقاسمونه آلامه وآماله ويبثون فيه روح العداوة والبغضاء لحكامه المسلمين .

على أن دورا أهم من دور القسوس كان مدخرا لسكان الجزر ، وهنا أيضا نجد سياسة الباب العالى تعاون على نشوء أشدّ أسلحة الثورة خطرا : ذلك بأنه — فيما عدا دفع جزية سنوية وتقديم عدد من الملاحين للأسطول العثمانى — كان سكان الجزر مستقلين استقلالا تاما ، ويستمتعون بأكبر قسط من حسن الحال المادّية ومن الحرية فى أوربا ، لا يستثنى من ذلك إلا أهل سويسرة . فقد نالوا نصيبا من التجارة الشاطئية فى بحر المشرق على أثر طرد البنادقة من المورة سنة ١٧١٨ ، ثم جاءت معاهدة كچك كينارجة سنة ١٧٧٤ فأتاحت لهم التنقل بين البحرين الأبيض والأسود بكامل حريتهم مستظلين بالعلم الروسى ، ومنذ ذلك الحين بنوا سفنا أكبر حجما ، وطافوا بها فى آفاق أوسع مدى ، ودفعهم الخوف من قرصان بلاد المغرب الى تسليح سفنهم ، فنشأ الأسطول اليونانى قطعة قطعة تحت سمع الحكومة العثمانية وبصرها ، وكان من نتائج ازدياد هذا النشاط البحرى اتصال اليونان بغرب أوربا وتأثرهم بأفكار أهله عن الحرية والاستقلال .

وساير هذا الرقىّ المادى نشاط فكرىّ كان يهدف الى إحياء العصر الكلاسيكى من تاريخ اليونان عن طريق تلقين أدبه للشعب . وأبرز الأسماء فى هذا المضمار اسم أدَمنديوس كورائيس (Adamantios Koraïs) (١٧٤٨ — ١٨٣٣) من أهل جزيرة خيوس . وقد وقف كورائيس حياته على خلق لغة وسط بين اليونانية التى كان أهل عصره يتخاطبون بها واللغة اليونانية الكلاسيكية . وبلغ من نجاحه فى هذا السبيل أن يسر لليونانى الحديث قراءة أدب أسلافه الأقدمين وعلومهم بلغة يونانية

حقا ، ولكنها لا ترهقه بتعلم اللغة الكلاسيكية . و بعبارة أخرى استطاع كورائيس أن يشعر أهل زمانه بأنهم سلالة أولئك الأبطال القدامى ، وأدت هذه الحركة العقلية ، والعناية باللسان القومى إلى التطلع إلى الحرية والاستقلال .

و إذ قد ألممنا بطرف من أحوال اليونان قبل الثورة فقد حق للقارئ أن يسأل عن أسبابها . والإجابة على سؤاله ينبغى أن نقول إن الثورة اليونانية والثورة الفرنسية تبرهنان على أن الشعوب لا تثور لمجرد ما تعانيه من البؤس والظلم مادامت لا تفطن إلى هذا الظلم وذلك البؤس و إن تفاقم أمرهما ؛ و إنما تندفع إلى الثورة متى أحست البؤس والظلم مهما رأتهما الشعوب الأخرى تافهين . وأول ما يشعر الناس بالبؤس والظلم حسن حالهم المادية والأدبية . وحال اليونان من أوضح الأمثلة فى ذلك فإنهم لم يثوروا لبؤس يعانونه و إنما ثاروا بسبب الرخاء الذى كانوا يستمتعون به ؛ ولم يشجعهم على الثورة عسف كان التركى ينزله بهم ، بل شجعهم على ذلك تسامحه فى الإبقاء على نظم وأسلحة استخدمها اليونان آخر الأمر فى مقاومته . وكان من نتائج هذا التسامح تزايد الذكاء بين اليونان وتزايد نشاطهم الأدبى وحريتهم فى اختيار نوع التعليم الذى يرتضونه لأنفسهم ، وارتقاء النابغين منهم إلى المناصب العليا فى الكنيسة والدولة ، وحريتهم كذلك فى جمع الثروة حتى كان المزارعون منهم أحسن حالا وأرفع فى نظر القانون منزلة من نظرائهم فى أكثر بقاع أوروبا .

وكان من سعد طالع اليونان أنه فى الوقت الذى أخذت فيه الدولة العثمانية تضمحل ظهرت فى الأفق الشمالى الدولة الروسية الأرثوذكسية التى يربطهم بها الدين والكراهية للترك . فنراها منذ سنة ١٧١١ تحرض اليونان على الثورة دون انقطاع . فلم يكن عجبا أن تنشأ فى أودسا الجمعية السرية المعروفة باسم إيتريا فلكى (Hetairia Philiké) ومعناها اللفظى " شركة الأحباء " تكونت سنة ١٨١٤ حين اتضح للجميع أن مؤتمر فينا لن يعمل شيئا لمصلحة اليونان . وكان هدف هذه الشركة إحياء الدولة البيزنطية الأرثوذكسية . وقد بلغ خبر هذه الشركة مسامع السلطان

محمود الثانى ، ولكن حسن حال " الرعية " وعطفه عليهم حمله على تكذيب الخبر . وبهذه الفكرة الخاطئة عن أسباب الثورات أتاح السلطان للشركة فرصة لنشر دعوتها بصورة تقرب من العلنية . فلم تمض سنوات ست حتى اندمج فيها كل يونانى ذى مكانة . فلما أقبلت سنة ١٨٢٠ كانت الفكرة قد اختمرت فى أذهان الكثيرين ، وكان عصيان على باشا حاكم يانية قد شجع الشركة على الشروع فى تنفيذ غرضها . ولما كانت تعتقد بمعاضدة إسكندر الأول قيصر روسيا لها اختارت لزعامتها جنديا يونانيا باسلا كان يعمل فى الجيش الروسى برتبة اللواء : ذلك هو إسكندر إپسلندس وكان هذا الضابط عظيم الثقة بمعاونة القيصر للحركة اليونانية . ومن أجل ذلك أقنع الشركة بالعدول عن إعلان الثورة بالمورة إلى إعلانها فى البغدان ليكون قريبا من العون الروسى .

وتنفيذا لذلك دخل إپسلندس ولاية البغدان فى عدد قليل من الضباط اليونانيين الذين كانوا فى الجيش الروسى وأعلن الثورة فى ٦ مارس سنة ١٨٢١ إلا أن الموقف العدائى الذى وقفه أهل البغدان والافلاق — وهما الآن ضمن دولة رومانيا — منضما إلى عدم كفاية إپسلندس وغروره ، و إلى تخلى القيصر عن المعاونة — كل ذلك جعل الإخفاق محتوما .

وفى هذه الأثناء كان " الأحباء " مشغولين بإثارة أهل المورة حيث تزعم الحركة غرمانوس مطران بتراس ، ولخص منهج الثورة فى كلمات قليلة : " السلم للمسيحيين ، والاحترام للقناصل ، والموت للترك " . ولم يمض عام ١٨٢١ حتى كانت المورة كلها — عدا حصونا قليلة — فى يد اليونان وحتى انتشرت الثورة شمالا إلى مقدونيا .

وكان زعماء الثورة إما مطارنة مثل غرمانوس وإما كبار أعيان مثل زيميس وإما ارماطول مثل كاريسكاكى وإما كلفت مثل كولوكترونيس وإما فناريون مثل مفروكرذاتس . ولم يستطع فرد ولا هيئة أن يسيطر على جميع البلاد ويحتفظ

بالسيطرة إلى النهاية . على أنه يمكن القول بوجه عام أن الدفاع عن المورة كان بيد الكلفت وفيما يليها شمالا بيد الأرماطول ، وأن هؤلاء وأولئك اتبعوا فى الحرب طريقة الكر والفر حتى صارت هذه الطريقة من خصائص هذه الثورة . وبمثل هذه الطريقة كان الملاحون يقاتلون الترك فى البحر . وأشهر هؤلاء الملاحين مياؤليس وقد احتفظ بالزعامة طوال الثورة بفضل مقدرته وإخلاصه لبلاده ، ويليه سختوريس وقائد الحراقات كاناريس .

ولما قضى الترك على أتباع أبلسندس انقضوا على على باشا حاكم يانيه وما زالوا به حتى قتل ، ثم التفتوا إلى المورة فإذا بهم ينهزمون فى ثرموبيل ثم يفقدون تربوليتزا — عاصمة المورة — حيث ذبح اليونان جميع المسلمين الذين كانوا يقيمون بها دون استثناء ودون شفقة . وانتقم الترك لذلك بالقضاء على أكثر سكان جزيرة خيوس فى إبريل سنة ١٨٢٢ . ولكن لم يأت يونيه حتى تمكن اليونان من الفتك بالأسطول العثمانى ، ثم فتكوا به فى سبتمبر وأكتوبر من السنة نفسها ، وأعادوا الكرة سنة ١٨٢٣ فحطموا أسطولا عثمانيا آخر كان على رأسه خسرو باشا .

أما فى البر فحاصر الترك مسولنجى بقيادة عمر يونس سنة ١٨٢٣ ولكنه اضطر إلى الارتداد عنها بعد أن تكبد خسائر فادحة . على أن الترك حاصروها مرة أخرى ورفع ذلك من شهرتها فانكب اليونانيون على تموينها وأقبل إليها أصدقاء اليونان من كل حدب ومن بينهم الشاعر الإنجليزى الذائع الصيت اللورد بيرون الذى دخلها بما جلبه من أسلحة وذخائر وبقى يدافع عنها إلى أن مات بها . فكان اللورد بيرون ميتا أنفع منه لليونان حيا لأن شهرته زادت حماسة أصدقاء اليونان فى أنحاء أوروبا وأمريكا حيث يدين المستنيرون لأسلاف ذلك الشعب بروائع الفن والعلم والأدب . فتدفق المدد إلى اليونان فى صورة نقود ومؤن وأسلحة ومتطوعين تبعث بكل ذلك لجان نصبت نفسها فى مدن القارتين لجمع الهبات والقروض ، ولنشر الدعاية عن طريق الخطابة والصحافة ، تستحث الحكومات على إنقاذ ذلك الشعب المسيحى من نير الترك المعروفين عند أصدقاء اليونان بالكفار .

إبراهيم باشا فى المورة

فى سنة ١٨٢٢ كان لدى محمد على جيش محترم من الزرّاع والصناع الأصحاء مفتولى العضلات "وكانت الإسكندرية تعادل طولون فى التحصن البحرى ولم يكن الأسطول المصرى يفترق عن أى أسطول أوربى جيد النظام اللهم إلا فى الملابس" وكان من الطبيعى أن يستولى الحسد على السلطان محمود الثانى كلما فكر فى مثل هذا الجيش وذاك الأسطول . ولعله حين استمع إلى نصح جنتز(1) بتكليف محمد على القضاء على الثوار اليونانيين فكر فى التخلص من خطرين بترك أحدهما يهلك الآخر. ومن ثم تلقى نجيب افندى وكيل الباشا فى القسطنطينية أمرا بأن يلحق بسيده فى سرعة وتكتم . فبلغه بالقاهرة فى ٢٨ فبراير سنة ١٨٢٤ . ولا يعرف على سبيل التحقيق ما تحدث به الوكيل إلى الباشا ، إلا أن الحوادث التى وقعت بعد ذلك تدل على وعد بمنح ابنه ابراهيم ولاية المورة . و بعد أن تم الاتفاق على هذا الأساس وضع تصميم حصيف لو نفذ على الفور لكان من المنتظر أن ينهى الحرب : ذلك بأنه كان قد اتضح من مدّة أن القضاء على الثوار يستدعى انتزاع السيادة البحرية من أيديهم ، كما يستدعى مواجهة شجاعتهم غير النظامية بأورط منظمة . والخطوة الأولى فى هذه السبيل تحطيم جزر بحر الأرخبيل بوساطة الأسطولين المصرى والتركى مجتمعين . ثم يقوم ابراهيم بعد ذلك بإخضاع المورة بينما يقوم محمد رشيد المعروف عند اليونان باسم كوتاهيه لى بإخضاع بقية البلاد .

وقد عكف محمد على بهمته المعروفة على إنجاز نصيبه وجدّ ضباط البر والبحر الذين علمهم سيف وليتلييه Letellier فى تدريب أورط من الزرّاع والعمال لتزيد قوة الجيش المصرى من ٢٠,٠٠٠ إلى ٥٠,٠٠٠ رجل . وكان هؤلاء الجنود أحسن من الجنود التركية فى قوة الأبدان وفى النظام، فضلا عن أنهم قد حنكتهم التجارب فى كريت حين عهد السلطان إلى محمد على فى إخضاع هذه الجزيرة

(1) وزير خارجية النمسا .

سنة ١٨٢٢ حيث قضى قائده حسن باشا ومن بعده صهره حسين بك الجريدلي على الثورة التي كان يتزعمها تومبازيس Tombazes بعد معارك عنيفة وتم ذلك في أبريل سنة ١٨٢٤ .

وكانت الاسكندرية إذ ذاك تدوى أحواض السفن فيها بينما كان الجمهور يتلهى بمراقبة تدريب المقترعين . فلما كان يوم ١٩ يوليه سنة ١٨٢٤ غادر إبراهيم الاسكندرية بأسطول جليل يضم ٥٦ سفينة حربية و ٢٠٠ نقالة ويقل ١٨,٠٠٠ جندى قاصدا ساحل الأناضول تنفيذا للخطة الموضوعة لمقابلة أسطول السلطان وعلى رأسه خسرو باشا وهو سياسى حصيف ولكنه أمير بحر كثير الخوف قليل الخبرة .

ومع هذا فقد بدأ نصيبه بهجوم ناجح على جزيرة بسارا Psara وهى مهد من أهم مهاد القرصنة اليونانية والاستقلال اليونانى . وساعده على ذلك أن أهل بسارا وضعوا ثقتهم فى بطاريات ضعيفة أقاموها على الساحل بدلا من التزام البحر وهو المجال الذى يفوقون فيه أعداءهم . وإذا بالصخور التى حسبوها منيعة قد تسلقها الألبانيون الخفاف الحركة وتغلبوا بكثرة عددهم على المدافعين المتفانين فى الواجب . وبلغ من ذلك أن جماعة منهم نسفوا مخزنا من البارود ليموتوا هم وبعض مهاجميهم إيثارا منهم للموت على الاستئسار . ولم ينج من السكان وعددهم ٧,٠٠٠ إلا نصفهم . ومن حسن طالع اليونان أن كان من بين الناجين كاناريس Canaris . وعلى الرغم من صغر الجزيرة كان تحطيمها ضربة مؤلمة للثوار كما نودى به فى تركيا باعتبار كونه نصرا عظيما .

وبعد أن قضى الأمر ظهرت سفن إذرا Hydra وسفن سبتس Spezzia وكل ما استطاعه مياؤليس وسختوريس لم يزد على إفساد تصميم القبطان باشا فى القضاء على جزيرة ساموس وإجباره على الانضمام الى إبراهيم . واشتبك الأسطولان المصرى والعثمانى بسفن اليونان . وفى أثناء هذه الملاحم لاحظ إبراهيم — والمقت يملأ قلبه — أن زميله يحاول دائما أن يتملص من واجبه كلما احتدم القتال . وكانت

نتيجة ذلك التملص أن إبراهيم حين عاد إلى كريت وجد أنه قد فقد ست سفن حربية ونحو ٥٠ نقالة كما فقد ثلث رجاله . أما اليونان فقد كانت خسائرهم كبيرة إذ فقدوا ٢٢ حراقة دون أن يقللوا من خطر الغزو المصرى مثقال ذرة : ذلك بأن السلاح الذى صهروه فى غضون الثورة وهو سلاح الحراقات الذى خدمهم طالما كانوا يواجهون الترك وحدهم ، أصبح عديم الفائدة فى مواجهة البحارة النظاميين من المصريين ، أولئك البحارة الذين لا يكلفهم تجنب الحراقة إلا مناورة تبعدهم عنها وتتركها تحترق دون خطر إلا على نفسها حتى يصل الحريق إلى مستوى سطح الماء.

وكان المتوقع من اليونان ، وقد علموا بالخطر المصرى ، أن ينتهزوا فرصة تقاعد قواد الترك عن القتال انتظارا لحضور إبراهيم وتنسيق خطتهم مع خطته — كان جديرا بهم يومذاك أن ينتهزوا هذه الفرصة للاستيلاء على الحصون التى ما برحت فى يد الترك ليمنعوا بذلك نزول المصريين أو يعوقوا ذلك النزول . ولعل من أسباب قعودهم عن انتزاع ما بقى بيد الترك من الحصون رغبتهم فى ألا تفلت منهم الغنائم التى كانوا يتوقعون استلابها من المصريين من شيلان كشميرية وخيل عربية وسيوف دمشقية ؛ فضلا عن زعمهم أن العدو الذى يوشكون أن يسلبوه هذه الغنائم يتيح لهم فرصة لإظهار بسالتهم . وإلى جانب هذا كله زعم البحارة أن عدوهم لن يبرح كريت قبل حلول فصل الربيع ؛ واضطر مياؤليس — ذلك النبيل البعيد النظر — أن ينسحب من مياه تلك الجزيرة . وما أسرع ما أفاق اليونان من هذه الأحلام اللذيذة . فان ابراهيم باشا ذلك العبقرى الحربى الذى تمرس بالحرب كان تواقا الى الاشتباك بهم ومن أجل هذا لم يعبأ بشهر فبراير — وهو أسوأ الشهور جوا فى البحر المتوسط — وبارح كريت فى غضونه ونزل فى موذون فى ٢٣، ٢٤ منه ومعه ٤,٠٠٠ من المشاة و ٤٠٠ من الفرسان . وبعد أن استطلع موقع نوارين[1] بعث إلى جزيرة كريت فى طلب المدد وتسلم فى ١٧ مارس ٧,٠٠٠ رجل فيهم

(١) ينطق بها اليونان « نفارينون » .

بقية فرسانه . فلما اجتمع هؤلاء الفرسان الى زملائهم الذين سبقوهم الى موذون لم يزد جمعهم على ٨٠٠ فارس .

وكان القائد المصرى فى السابعة والثلاثين من عمـره فوق المتوسـط فى القامة فى شيء من السمن ناعم الوجه دائم البشاشة على الرغم مما يعلو محياه من كلف. وكانت حياته فى المعسكر معتدلة منظمة: يدخن دائمـا و يتناول القهوة فى كثير من الأحيان بينما كانت خيمته معروفة ببساطتها . و يعترف له أشدّ أعدائه حقدا عليه ببعد نظر يفوق كل من حوله فى جميع الأحوال. أما فى الميدان فكانت حياته حياة أقل جندى . وهذا العدوّ نفسه يقرّ له بالشجاعة التى شهدت له بها من قبل بلاد العرب والسودان من بعدها فيقول هذا العدوّ ، وهو مسيو لوفرن (Lauvergne) "لقد رأيته يدخن غليونه فى هدوء على عشرين خطوة من ميدان القتال حيث كان من المتوقع أن تقتله رصاصة حسنة التسديد . وكان ذلك فى موليني (Molini) وهى ليست بعيدة عن أرغوس (Argos) . و يرى مسيو لوفرن أن هذه الشجاعة أكبر جرائم إبراهيم باشا و يعقب على ذلك بقـوله : " إن أوربا تعـلم الخطر الذى يتعرض له اسـتقلال الشعوب بسبب الرجال الذين يحترمهم الرصاص" . يشير بذلك الى نابليون .

وكان أوّل هـم الفاتح الجديد تموين بتراس وكانت ما تزال بيـد العثمانيين ثم حصار نوارين وكان يدافع عن هذا الحصن اثنان من أبناء بترو بك مڤرو ميخاليس (Petro Bey Mavromichalis) وما كريانيس (Makrijanis) والقائد البيدمونتى كولينيو . و بعثت اليها الحكومة بنجدة أكثرها من الروملى ومقدونيا .

وكان هذا الجيش يتروح بين ٦٠٠٠ و ٧٠٠٠ وفيـه زهرة أبطال المحاربين من اليـونان وعسكر فى كروميذى (Kromidi) على الطريق الى موذون . "وأدرك إبراهيم خطة عدوّه فلم يمكنه من اختيار نقطة الهجوم" بل تقدّم ومعه ٣٠٠٠ رجل و ٤٠٠ فارس و ٤ قطع من المدفعيـة . وهجم المصريون على قلب أعدائهم بأسـنة الحراب بينما صعـد الفرسان من واد عميـق لم يكن أحد إلى ذلك الوقت يظن

أنه يمكن تسلقه، وانقضوا على الجناحين فكانت هذه المعركة إيذانا بتفوق المصريين وسببا لمرارة الضغائن بين أهل المورة وأهل الروملي . لأن الآخيرين لم ترقهم مقاتلة المصريين فانكفأوا الى بلادهم وكان رشيد إذ ذاك يهدد باختراقها .

و بذلك أصبح إبراهيم حرا فى تضييق الخناق على نوارين دون مفاجأة . وخليج نوارين نصف دائرة بالتقريب تقوم على طرفه الجنوبى نوارين الجديدة وعلى طرفه الشمالى نوارين القديمة . وتكاد تغلقه من ناحية البحر جزيرة سفكتريا (Sphacteria) وكان الكولونيل رومى (Romey) ، وهو الذى وضع المدافع المصرية ، على اتصال بالثوار . ومع هذا فإن خيانته لم تجد إلا قليلا لأن حسين بك الجريدلى صهر إبراهيم لاحظ أن جزيرة سفكتريا هى مفتاح نوارين وذلك من غير أن يقرأ ثوكيذيذس (Thucydides)[1] . ومن ثم غيرت الخطة وصدر الأمر الى حسين بأخذ الجزيرة . ولم يدرك الثوار أهمية هذا الموقع إلا فى الساعة الحادية عشرة ، فألقى ماڤروكرذاتس (Mavrokordatos) وسنتاروزا (Santa Rosa) وتساماذوس (Tsamados) بأنفسهم اليها ومعهم قبضة من الرجال لا تزيد مدافعهم على سبعة . فلما نزل بها المصريون هرب كثير من المدافعين الى قواربهم وبقى الآخرون وفيهم تساماذوس وهو شاب ظريف من نبلاء إذرا كان يقود سفينته الحربية الخاصة ، وكان يميل إلى ادخال النظام الأوربى وما يرتبط به من تحسينات فى الأسطول اليونانى . فكان فقده لطمة قاسية على إذرا . وأما القائد البيدمونتى سنتاروزا فانه بعد أن يئس من نيل الحرية فى بلاده جاء يدافع عن حماها فى اليونان .

ولم يمض ثلاثة أيام على سقوط الجزيرة حتى سلمت نوارين القديمة وخرج رجال الحامية بعد أن تخلوا عن سلاحهم . وإذ ذاك اتضح للجميع أن نوارين لن تستطيع أن تقاوم طويلا ولذا عرض عليها ابراهيم شروطا مشرفة فوافقت الحامية على التسليم وسمح لها بالخروج واحدا واحدا بين صفين قويين من الحراس المصريين

---

(١) من أشهر مؤرخى اليونان القدامى .

مشرعة أسنة حرابهم فذهبوا إلى حيث السفن التى استأجرها إبراهيم لنقلهم الى كالاماتا (Kalamata) . و ياللهول الفرق بين هذا المنظر والمنظر الذى مثل على هذه البقعة بذاتها قبل أربع سنوات ، إذ نرى الرجال الذين اشتركوا مع مواطنيهم فى ذبح الترك المقيمين يومذاك بالمورة يسيرون بغير سلاح على مرأى من أقارب ضحاياهم ونار الانتقام تضطرم فى قلوبهم . ولم يكتف إبراهيم بذلك بل أعطاهم طعاما لما رأى من سوء حالهم .

وخليج نوارين من أحسن الثغور الطبيعية فى أوربا وكان مرسى فائقا للأسطول العثمانى بينما كان المثلث كورون وموذون ونوارين قاعدة حسنة للعمليات فى داخل البلاد . وبهذا تمكن إبراهيم من التوغل فى المورة وكان توغله فى بطء وحذر . ولم تكن الهيئة التنفيذية ورئيسها كندوريوتس محبوبة يوما من الدهر بين أهل المورة لاعتقادهم أنها تعمل لصالح أهل إذرا ولذا ضعف نفوذها حين فارقها جنود الروملى . وكان ضعفها الادارى مما مكن للهيئات البلدية أن تستعيد جزأ من قوتها السالفة واستطاعت هذه الهيئات بمعاونة الشعب أن تجبر الحكومة على تخلية سبيل زعمائها بأن أعلنت الأمان العام فى ٣٠ مايو فعاد كولوكترونيس (Koloktrones) الى قوته السابقة وعاداته القديمة . وكان كولوكترونيس — وهو أشهر زعماء التحرير — نموذجا من الكلفت — قطاع الطرق — حببه الى الشعب بعده عن النظام العسكرى ، وعيشه كما يعيش الأبطال المحاربون ، وتكلمه بلهجتهم وتفوقه عليهم وقيادته إياهم للقتال .

وكان إطلاق سراح كولوكترونيس مما حتم على خصمه ذكيوس (Dikaios) المعروف باسم پاپا فليساس (Pappa Phlessas) أن يبزه فى الشهرة الحربية وأن يغادر ناڤيليو[1] (Nauplia) حيث كان الناس أدرى بنقائصه . وكان پاپا فليساس مايزال وزيرا للداخلية ، ومن أفظع من اضطهدوا زعماء المورة . وتنفيذا لهذا القصد

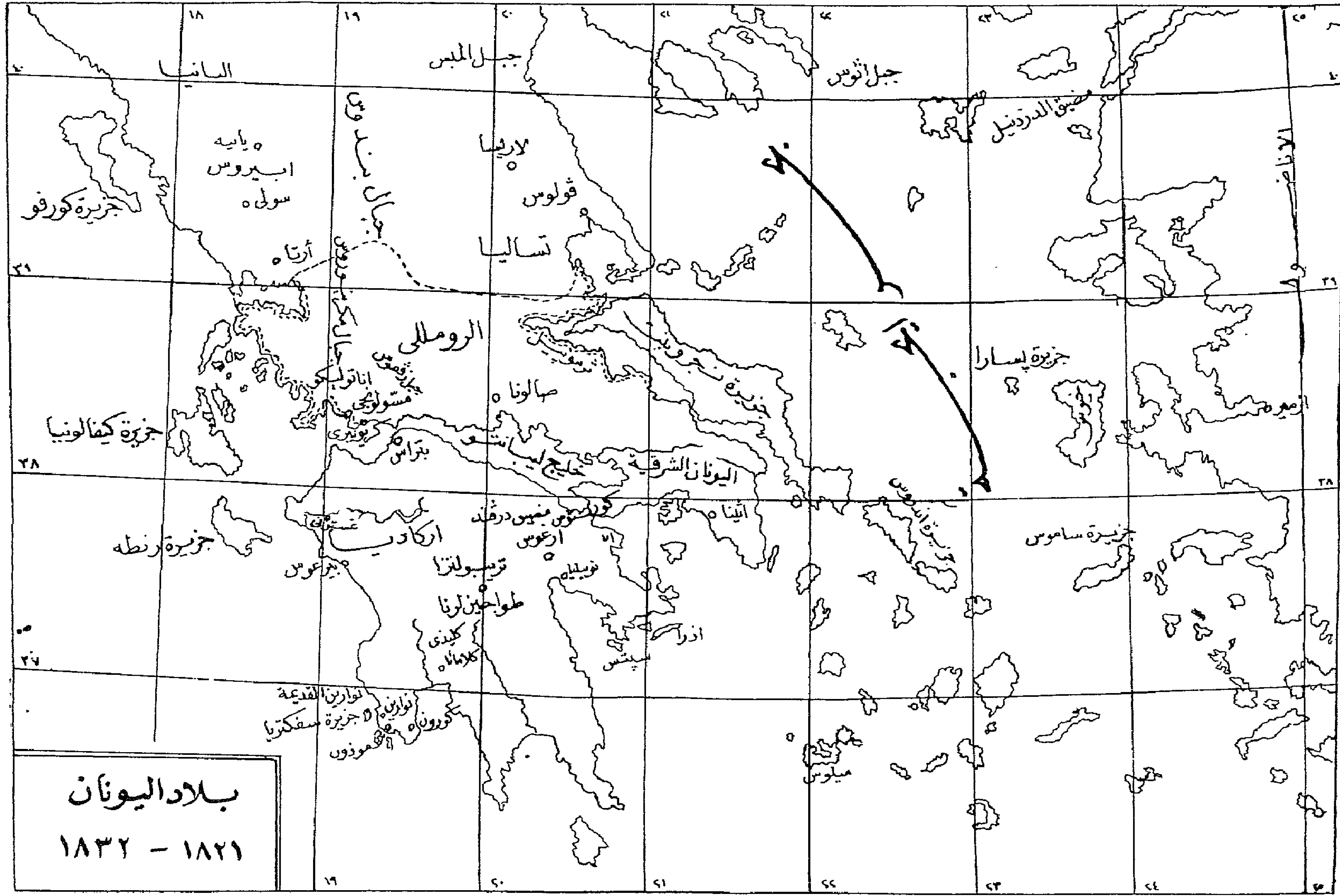
(١) شهرتها فى غرب أوربا نوبليا وتسمى أيضا نابلى دى رومانيا .

خرج من العاصمة فى جماعة من قدامى المحاربين فى أبهة كبيرة . وما أن وصل الى مانياكى (Maniaki) حتى بلغ أتباعه ٣,٠٠٠ وتقدّم إليه إبراهيم فى أول يونيه سنة ١٨٢٤ ففرّ نصف أتباع ذكيوس تحت جنح الظلام حين رأوا جيش الباشا واشتبك الباقون فى معركة أبلوا فيها بلاء حسنا وسقط قائدهم وهو يقاتل قتال الأسود . وكان من أثر هذه الهزيمة أن أنعشت الروح المعنوية بين الثوار إذ قالوا: "إذا كان القسيس المتهتك ومن كان معه من الفلاحين استطاعوا أن يناضلوا العدو الجديد بمثل هذه الشجاعة فماذا عسى أن يعجز عن تحقيقه شيوخ بلاد اليونان المدربين على القتال برعامة قائدهم المحنك كولوكترونيس ؟ " .

وكان قصد كولوكترونيس حماية الممرات المؤدّية الى مقاطعة أركاديا ومن أجل ذلك جعل مقر قيادته الرئيسى فى ماكريبلايى (Makriplaye) وأمر رجاله وهم ٧,٠٠٠ بحفر الخنادق على حافتى وادى درڤند (Dervend) . ومع أن الوادى كان أوسع من أن يحميه رصاص البنادق لم يختر إبراهيم أن يهاجمهم من الأمام بل دار بمهارة حول جناح عدوّه ، وصوّب مدفعيته على بعض فرقه بينما أرهب الآخرين بمواجهتهم بفرسانه . فكانت هذه الهزيمة قاضية على الروح المعنوية بين المقاتلين من اليونان قضاء مبرما . وبلغ من ذلك أن تفرّقوا واعتصم زعيمهم بالجبال بعد أن أنذر أهل تربولترا بأن يتصرفوا حسب ما تقضى به ظروفهم .

وإن تفوّق إبراهيم على كولوكترونيس باعتبار كونه قائدا وانحطاط الجنود غير النظاميين من اليونان عن مستوى فرق الجنود المصرية — هذا التفوّق لم يتح له أن يتجلى بصفة حاسمة كما تجلى فى تلك المعركة : ذلك بأن اليونان كانوا قد اختاروا موضعهم فى أرض تكاد تكون غير صالحة للقتال وكانوا يعرفونها حق المعرفة . فمزقت شملهم قوة لا علم لها بتضاريس تلك البقعة ، ولا تستطيع الانتفاع بفرسانها ولا بمدفعيتها ، وفى أرض تضطر الرجالة النظامية أن تعمل بطريقة تكاد تكون غير نظامية .

وبهـذا الانتصار بات الطريق إلى تربولتزا مفتوحا ، وأخلى السكان المدينـة حين علموا باقتراب إبراهيم بعد أن حرقوا أكثرها . على أن الجنود المصرية وجدت بها مؤنا كثيرة حين دخلتها فى ٢٢ يونيه سنة ١٨٢٤ . وبعد اسـتراحة ثلاثة أيام ظهر إبراهيم أمام طواحين لرنا (Lerna) فعمت الفوضى فى مدينة ناڤيليو . أما كيف نجت عاصمة اليونان فإن الشروح متعـدّدة . وجميع التفسيرات المؤسسة على اعتزام إبراهـيم أخذ العاصمة فى تلك المناسـبة ينقضها نقضا تاما أن إبراهيم لم يستصحب فى ذلك اليـوم مؤنا إطلاقا ، ولم يسـتخدم إلا حرسه الأمامى . ولا يمكن قبـول ما طالمـا كررته بعض الأخبار من أن مقاومة إبسلندس (Hypsilanti) وماكريانيس (Makrijanis) أذهلت القائد المصرى ؛ إذ لا يعقل أن مقاومتهما تذهل رجلا له عزيمة إبراهـيم ؛ بل أنها لا تذهل أى قائد من ذوى المقـدرة العادية لم تزل قوّاته الأساسـية رهن إشارته . وقد ابتكر بعضهم تفسـيرا حسبه مستساغا هو وجود الأميرال دى رينييـه (de Rigny) والكابتن هاملتون (Hamilton) فى مياه ناڤيليو والموقف الذى وقفـه هاملتن بحيث فهم اليـونان والمصريون فهما واضحا أنه قد يشترك فى المعركة . إلا أنه يلاحظ أن دى رينييه كان إلى ذلك الوقت وبعده بعام كامل معارضا أشدّ المعارضة لليونان لسخطه على شحهم ونهبهم وتنافسهم فيما بينهم ، وأن إبراهيم لم يكن ليخطر بباله أن فرنسا يمكن أن تعارضه . أما التفسـير الحقيقى فهو أن إبراهيم كان فى ذلك الوقت أشدّ عناية بإتمام هزيمة كولوكترونيس ، وهو يومذاك يحوم حول تربولتزا ، أكثر منه بأخذ ناڤيليو . وهذا المسلك يتسق اتساقا تاما والخطة التى اتبعها فى غير هوادة وهى الاحتفاظ بطرق مواصلاته مفتوحة . وقـد حاول الكلفت القديم عبثا أن يكرر التكتيكات التى أفادته إفادة كبرى فى مواجهته لعلى باشا الدرملى وهى قطع خط مواصلات عدوه ، لكن خصمه هـذه المرة كان أكثر من كفء لإحباط خططه إذ لم تكن الحرب غير النظامية جديدة عليـه بعد أن جرب مايشبهها كثيرا فى بلاد العرب .



بلاد اليونان
١٨٢١ - ١٨٣٢
البانيا
جبل المبس
جبل اثوس
جزيرة كورفو
يانيه
ابيروس
سولى
أرتا
لاريسا
ڤولوس
تساليا
الروملى
صالونا
جزيرة كيفالونيا
بتراس
خليج ليبانتو
اليونان الشرقية
أثينا
جزيرة زنطه
اركاديا
ارغوس
تريبولتزا
نوبليا
كلامات
سبتس
ميلوس
جزيرة ساموس
جزيرة بسارا
مضيق الدردنيل

ولما كان ٦ يوليو سنة ١٨٢٤ أفسد ابراهيم خطة عدوه بمهاجمة جميع مواقعه فى آن واحد و إكراهه على التراجع . وعلى أثر ذلك وقعت طواحين داريا (Daria) وتسروكوفيا (Zerekovia) و بيـانا (Piana) فى قبضة ابراهيم ، و بذلك نال الجيش المصرى مؤنا كثيرة . ومن تلك اللحظة لم تعد الحرب صراعا بين قوتين متكافئتين ؛ فشكا أصدقاء اليونان "أن أعداءهم يقودهم قوّاد ليسوا ذوى خبرة حربية فحسب ، بل لهم معرفة دقيقة بالبـلاد و بالأخلاق القومية وأنه لم تتح لهم مناسـبة واحدة وقفوا فيها أمام الغزاة الجـدد موقفهم المجيد الذى عوّدونا إياه من قبـل ، وأنهم تخاذلوا أمام الحراب المصرية فى جميع الأحوال تقريبا" .

ومن ثم فقـد اليونان الروح المعنوية كليـة وأيقنوا أنه لن ينقذهم إلا العون الأجنبي دون سواه . وهذا اليأس التام من جانبهم هو الذى حداهم على المطالبة بالحماية الانجليزية . و يتمثـل فقدان الروح المعنوية فيهـم فى قصة طريفة يقصها الجنرال غوردون عن ٤٠٠٠ يونانى كانوا يحتلون فرفنا (Vervena) تحت قيادة إپسلندس (Hypsilanti) ذلك الرجل الذى زعم بعضهم أنه أزعج ابراهيم فى طواحين لرنا بأقل من عشر قوّته هذه قبل ذلك بشهر أو مادونه . يقول غوردون : "بمجرّد سماع الصوت الهائل صوت طبـول فرقة مصرية اختفت القـوّة كلها ونجـا قائدهم من الأسر بصعوبة كبيرة" . ولا صحة لمـا زعمـه المغرضون من أن ابراهيم فكر فى استئصال سكان المورة ، بل الواقع أنه أظهر نحوهم من الرحمة والرفق مثل ماسبق أن أظهره فى بلاد العرب وما ظهر منـه بعد ذلك فى سوريا والأناضول : ذلك بأن ابراهيم كان على غرار أبيـه فى إجلال العدوّ المغلوب أو العطف عليـه . ويقول فيلمين (Villlemain) فى كتابه (Preface de Lascaris) : "إنه اتخذ الإنسانية باعتبار كونها من تكتيكات أوربا ، فلم يحرق القرى ولم يذبح المغلوبين ، لأن فيه نوعا من الرحمة الحديثة قد عنى أناس بنصحه بها باعتبارها وسيلة للنصر" . وإننا لنجد غوردون وهو من أشدّ الناس حبا لليونان يقول عن ابراهيم : "إنه لم يستأصل غياض الزيتون لمجرد

حب التخريب ولا غياض التين والليمون وأشجار التوت وهى أساس ثروة البلاد". بل إن ألد أعدائه[1] يعتقد أن أهل نوارين أبوا أن يفتكوا به علما منهم أنهم ينالون عطفه إن سقطت القلعة فى يده، وأنه سيعامل اليونان بمثل مايعامل به ملك فرنسا الروم الكاثوليك والبروتستنت من رعيته لأن هدفه ليس الحرب وإنما هو توطيد الأمن .

وماجاء سبتمبر من سنة ١٨٢٥ حتى كان إبراهيم قد أتم إخضاع المورة من الوجهة العملية . وإذ ذاك قصد الى معسكره الشتوى فى موذون حيث تسلم أوامر والده بالتقدم لمعاونة رشيد باشا الذى كان قد قضى ثمانية أشهر فى محاصرة مسُولنجى (Missolonghi) على غير جدوى . وفى ذلك الوقت رتب محمد على وخسرو الخطة الحربية والبحرية اللازمة للقضاء على ثوار اليونان سواء عاونتهم انجلترا أو لم تعاونهم .

حصار مسّولنجى (١٨٢٥)

كان عام ١٨٢٥ أشدّ أعوام الثورة اليونانية حلكة لأن الثوار لم يزالوا على انقسامهم القديم وأنانيتهم المألوفة بينما كان السلطان والوالى متفقين على إخضاعهم؛ ولأن عصاباتهم المسلحة زادت فى احتقار النظام بينما هم يواجهون المصريين النظاميين، ولأن سفنهم كانت على الدوام تأبى أن تجرب التحسينات العلمية، بينما الأسطولان العثمانى والمصرى قد انتفعا بهذه التحسينات إلى أبعد مدى ؛ وأخيرا لأن أرض اليونان لم تنجب عبقريا حربيا عظيما قادرا على قيادة جميع جنودها بينما كان السلطان يرميهم بأعظم قائدين فى دولته : ذلك بأنه بينما كان إبراهيم يخضع المورة كان الجيش المتوغل فى إيلاس[2] بقيادة محمد رشيد الذى لم تنجب تركيا قائدا أقدر منه أو صدرا

(١) المراد مسيو لوفرن (M. Lauvergne) السالف الذكر .

(٢) كان إذ ذاك يطلق على بلاد اليونان الواقعة شمالى المورة .

أعظم أبرع منه منذ أيام آل كبريلي . وكان رشيد فى ريعان الشباب دون المتوسط فى القامة بهى الطلعة جم الأدب سريعا نشيطا ذكيا شجاع القلب . ويقال إنه مع منحه لقبى القائد الأعلى ووالى الروملى قد أنذر بأنه لا بدّ من سقوط مسّولنجى أو سقوط رأسه . وبلغ رشيد لاريسا (Larissa) فى يناير وقضى على الاضطراب فى أبيروس باسترضاء الزعماء وبذل الوعد للأرنؤود برفع رواتبهم . وخالف سابقيه فى الإسراع باحتلال مضيق ماكرينوروس (Makrynoros) . ثم عمد إلى أهم الأعمال الحربية فى شمال اليونان فى ذلك العام وهو حصار مسّولنجى . فلما نزل بها فى ٢٧ من إبريل بدأ العمل من فوره واستحث جنوده أن يضيقوا عليها الخناق ليمحوا عار إخفاقهم أمامها قبل ذلك بثلاث سنين . وكان اليونان من جانبهم مصممين على الاحتفاظ بها لأنها الثغر الجيد الوحيد الباقى فى أيديهم على خليج ليبانتو . وكانت مسّولنجى تسند ظهرها إلى جبال زيفوس (Zygos) وتمتد على حافة سهل مستنقع تحدّه برك ضحلة عظيمة الاتساع بها مسالك ملتوية تشرف عليها شطوط من الطين .

ويختلف الحصار الثانى اختلافا كليا عن الحصار الأول : ففى سنة ١٨٢٢ لم يكن الحصار تاما بل مضطربا بين المفاوضات حينا والمناوشات حينا آخر ، بين عدوّين يفصلهما مستنقع وخندق . وفى مثل هذا الوضع استطاع جماعة من المدافعين أن يصدّوا عدوهم المتردّد . أما منذ ذلك الوقت فقد زادت تحصينات المكان بفضل المهندس القدير كوكينى (Kokkini) تحت إشراف اللورد بيرون . ومن هذه التحصينات إقامة برجين أطلق عليهما الإسمان الفخمان فرانكلين (Franklin) وبوتساريس (Botzares) ؛ وعملت إصلاحات أخرى منها إنشاء رواق مسقف خارج الخندق ومنها تحصين بعض الجزيرات الموجودة بالبرك . وإلى جانب هذه التحصينات كان بالمدينة ٤٨ مدفعا من الحديد مختلفة العيار ومدفعان نحاسيان من نوع الهاون واثنان من الهوتزر . وبذلك صارت المدينة قادرة على مقاومة كبيرة ،

إلا أن الجنود المدافعين وهم ٤,٠٠٠ كانوا فى مواجهة عدو ذى عزيمة ونشاط مستعد للإفادة من كل ما تقدمه له الفنون الحديثة من حفر تحت الأساسات والغم وخندقة .

وقد لفتت أهمية الحصار وطول مدته نظر الشرق والغرب جميعا : أما فى الغرب فكانت مسولنجى تذكر بإقامة بيرون فيها ونهاية حياته المحزنة بها ونشأ عن شهرتها فكرة شاعت فى أوروبا هى أن مصيرها ومصير اليونان يكادان يكونان شيئا واحدا . وكان قواد الحامية أمثال نوتارى (Notari) وبوتساريس (Botzares) يلقون عونا قلبيا من إدارة مدنية قوامها ثلاثة على رأسهم كبير أعيان بتراس السابق وهو البطل بابا ذيامندو بولوس (Papadiamandopoulos) . وفى غضون مايو ويونيو كان رشيد يقترب فى بطء وحذر من برج فرانكلين بإقامة تل كبير من التراب .

وبعد أن تسلم مدافع من بتراس بدأ يقذفه قذفا عنيفا بينما كان اليونان يجيبون على هذه النار بمثل نشاط رشيد ويحسنون فى وسائل دفاعهم ؛ وارتفعت روحهم المعنوية حين وافتهم فى ١٠ يوليه سبع سفن من إذرا تحمل إليهم مؤنا كثيرة وبعض المدد من المورة . وبعد شهر من ذلك التاريخ استبشر المحصورون بقدوم أسطول اتضح فيما بعد أنه أسطول خسرو وأنه قد أنزل حسين بك فى نوارين وجاء لرشيد بمدد مهم جدا من المدافع والرجال والذخيرة المختلفة الأنواع ؛ وبذلك مكنه من مضاعفة همته . وفى هذه الأثناء كان يوسف باشا الذى استقر فى بتراس خمس سنين بعزيمة فائقة قد أعد ٣٦ قاربا مسطحة القاع قطع بها الاتصال مع أناتوليكو (Anatoliko) وحاصر هذا الحصن بحرا . وفى ٢٨ يوليه فجّر المحاصرون لغما تحت برج بوتساريس واستولوا على حطامه مرتين ولكن اليونان أخرجوهم منه فى كلتا المرتين .

وخشى رشيد أن تمون المدينة من جديد ومن أجل ذلك قرر أخذها عنوة فنسف برج فرانكلين فى فجر يوم ٢ أغسطس وهجم هجوما قويا بخمسة أرتال وغرز عشرين راية على أطلاله . ولكن اليونان نالوا نصرا مجيدا فى ذلك اليوم بما يكاد

يكون البقية الباقيــة من ذخيرتهم . ولم يقل نجاح أسطولهم عن نجاح جنودهم إذ وفق مياؤليس (Miaoulis) وسختوريس (Sachtouris) أن يزعجوا خسرو ببعـض المناورات التى قامت بها حراقاتهم ، وأن يهزموا مجموعة القوارب التى أعدها يوسف باشا ، وأن يرفعوا الحصـار البحرى ويمدوا المحصورين بالمؤن والذخائر التى كانوا فى مسيس الحاجة اليها . وبانخذال القبطان باشا ذلك الانخذال المزرى أصبح رشيد بغير ذخيرة وبغير مال ، وليس عنده إلا قليل من المؤن . وبهذا تشجع المحصورون أن ينسقوا فى الخفاء هجومين فى وقت واحد أحدهما على معسكره والآخر على قواربه وتم ذلك فى ٦ أغسطس إذ انتصرت الزوارق اليونانية على قواربه وهاجمت الحامية المعسكر ، بينما كان كارايسسكاكى (Karaiskaki) يهـاجم مؤخرته بخمسمائة رجل . على أن هذه المناوشة البارعة لم تبلغ أن تدفع كوتاهيه لى إلى اليأس ؛ فاستطاع بوساطة تل كبير من التراب أن يأخذ برج فرانكلين ؛ إلا أن المحصـورين كانوا قد توقعوا ذلك فأقاموا خلف البرج منشآت دفاعية قوية عادت يومذاك بفائدة أنستهم الجهود التى بذلوها فى إقامتها . وتركز الصراع فى غضون سبتمبر وأكتوبر حول هذا البرج وكان القتال قتالا وحشـيا حقا لأن البعد بين الخصمين لم يزد على بضعة أمتار ، وانتهى الأمر بانتصار الهمة اليونانية على العزيمة التركية فاستعيد البرجان ونسفت التلال الترابية التى كانت تهددها .

وأقبل الشتاء بما يلازمه من طاعون وملاريا ففتك بجيش رشيد بعدما أضعفه القتال والهروب . ولم يكن لقائده عزيمة رشيد مناص من أن يخندق على عسكره عند سفح جبل زففوس . وفكر اليونان فى مهاجمته بالاتفاق مع أتباع كارايسكاكى المنتشرين فى الجبال من خلف العدو إلا أن خنادقه المعقدة وذيوع الخـلاف بين زعماء الأرماطول — حاملى السلاح — جعل النجاح موضع شك .

ولعل المقيمين فى مسولنجى كانوا راضين بما تهيأ لهم عمله وليسوا براغبين عن الاستمتاع براحة استحقوها بجهادهم . ومن ثم كان الحصار فى نهاية ١٨٢٥ فى حالة

توقف بعد أن عمل الترك آخر جهدهم تحت إشراف أحسن قائد لديهم . ومع هذا عجزوا عن تحطيم مقاومة رجال الروملى .

على أن الموقف لم يكن ليحمل أحدا من أصـدقاء اليونان البعيدى النظر على الابتهاج وذلك بسبب قرب قاهر المورة . إذ كان يدور بخلدهم ماعسى أن يحدث لو أن السلطان، على الرغم من حسده للوالى، تنازل فطلب إلى محمد على أن يعاونه فى بقية بلاد اليونان . وهـذا ما حدث فعلا لأن كراهية محمود للثوار اليونان وللعاكسات الأوروبية المرتبة على الثورة سهلتا عليـه طلب العون من مصر، فتلقى ابراهيم الأمر بالاتصال برشيد . وبظهوره بات أمام مسّولنجى عدو جديد أشد بأسا من سابقيه لأن حرب المورة قد برهنت على أن شجاعة الأرماطول وحيل الكلفت لا توازيان ما للجيش المصرى من نظام وعلم وخبرة بالاستراتيجيـة والتكتيكات . وتجلى لليونان والترك وأصدقاء اليونان أن الحصار الذى سيجدّده إبراهيم أعظم شأنا من جميع العمليات الحربية الأخرى، لعلمهم أنه إذا سقطت مسّولنجى فإن غرب بلاد اليونان سيصبح تحت رحمة العدو كما أصبحت المورة من قبـل سواء بسواء . وسيتمكن الجيش العثمانى من الانتشار فى البـلاد و إخماد أنفاسها . ولا غرو بعد ذلك إذا اتجهت جميع الأنظار الى ذلك المكان الذى تجلى فيه مقاومة الأبطال .

وكان محمد على قد أمدّ ابنـه مؤخرا بعشرة آلاف رجل فتقدم إبراهيم بسرعته المعتادة مجدًا فى السير وعبر ممر كاليذى (Kleidi) المهم واستولى فى برغوس (Pyrgos) وغستونى (Gastouni) على مخازن الغلال التى كانت أعدّت لمسّولنجى والتى لم يرسلها اليونان إلى تلك المدينـة ، ولا هم أتلفوها حين فقدوا الأمل فى إنقاذها . وما أن اجتمع القوّاد العثمانيون أمام ميسولنجى حتى عقدوا فى ٢٧ نوفمبر مؤتمرا فى ليبانتو وممن حضروا هذا المؤتمر القبطان باشا ورشيد و إبراهيم و يوسف باشا . وتم الاتفاق فيما بينهم على أن يعاون كل منهم الآخر وأن ينفذوا الحصار بنشاط . على أن الوقت لم يكن يسمح بعمل شيء لأن المطـر الغزير حال دون كل شيء حتى حفر

الخنادق . ومن ثم قضى إبراهيم شهر ديسمبر فى جمع المؤن ، وكان الجند المصريون يعملون دون أن يكلوا وكان النظام الذى يسود معسكرهم مما أدهش رشيدا فضلا عن أنه امتعض من استقلال القائد المصرى بعمله .

ونهضت الحكومة اليونانيـة آخر الأمر لمعاونة الحامية الباسـلة ولجأت إلى جيوب الأفراد من المواطنين وبهذه الوسـيلة تمكنت من إعداد ٢٠ سـفينة من إذرا و ٤ سـفن من بسار واقتحمت هـذه السفن المـدخل وألقت إلى الحصن بمئونة شهرين .

وبعد ضرب المدينة بالقنابل ثلاثة أيام هاجمها الألبانيون والمصريون فى ٢٨ فبراير سنة ١٨٢٦ وتسلقوا الأسوار ثلاث مرات ، ولكن اليونان المستيئسين ألقوهم عنها فى كل مرة . فاتضـح لإبراهيم أن من الضرورى حصرها حصرا تاما برا وبحرا ، وأعدّ لذلك ٣٢ قاربا مسطحة القاع أنزلها إلى المـاء ووجه حسين بك هجومه على فاسيلاذى (Vasiladi) وهو الحصن المشرف على مدخل البركة واستولى عليه عنوة فى ٩ مارس فسلمت أنا توليكو (Anatoliko) بعد ذلك بأربعة أيام .

واعتقد إبراهيم ورشـيد أن الفرصة مؤاتية لعرض شروط مناسـبة ، غير أن الحامية اكتسحت فكرة التسليم فى لهجة جديرة بأجدادها : ذلك أن الباشا كتب إليهم " أن أبعثوا إلىّ برجال يعرفون لغات عدّة ليتهيأ لى أن انتهى معهم إلى تفاهم " فكان جوابهم جواب المعتز بنفسه إذ كتبوا إليه : " إننا شعب أمى ولا نفهم لغات كثيرة . إننا لا نعترف بالباشوات ولكننا نعرف كيف نعمل بالسيف والمدفع ". وكان لا يزال بأيدى الثوار نقطة فى البركة هى الجزيرة الواقعة إلى الجنوب الشرقى من مسولنجى وكان المدافعون عنهـا ٢٠٠ رجل بقيادة الزعيم الباسـل كتسوس دزا فيـلاس (Kitzo Djavellas) وكان يحجبهم عن المدفعية العثمانيـة ساتر دفاعى منخفض من الطين ، وقد جعلوا من كنيسة قليلة الارتفاع أيضا مخزنا وقلعـة . فلما كان يوم ٦ من أبريل حاول الألبانيون أخذها عنوة ولكن قواربهم لم تستطع

ببلوغ ساحلها فتركوها وخاضوا فى الطين الأملس تحت وابل غزير من الرصاص وأتلفوا مانعا واطئا من الأشجار كان خارج القلعة . وعند ذلك أعوزتهم السلالم لتسلق الجدران فعادوا أدراجهم. وركب رشيد جواده ليحمس رجاله على الأقدام فأصابته رصاصة فى فخذه .

وإذ ذاك أمر إبراهيم ٢,٠٠٠ من رجاله أن يظهروا تفوقهم ولكن عبثا حاولوا، وجرح حسين بك فاتح سفكتريا (Sphacteria) جرحا مميتا فأهمل هذا الهجوم . وكان قتال هذا اليوم أعنف قتال رأته مسّولنجى ذهب ضحيته ألف عثمانى وتغير لون الماء من كثرة الدم وحملقت عيون أهل الأرض قاطبة إلى أولئك الأبطال إعجابا بأعمالهم التى ذكرت بأكبر أعمال البطولة الحربية فى العصرين القديم والوسيط. وممن ملئوا إعجابا بنكير من أهل جنيف هو إينارد (Eynard) . ومن ثم ضاعف هباته ونشاطه لصالح اليونان . وقد تشجع بما رأى من الملك لويس (Lewis) ملك بفاريا وبمعاونة لجنة باريس له فأرسل المال والقمح والذخائر الحربية إلى نافيليو وإذرا وجزر اليونان وكررت فرنسا وألمانيا وسويسرا هباتها الجزيلة، وجمع اليونان أنفسهم مليون قرش من التبرعات الاختيارية . ولكن ماذا عسى أن يعمل المال إذا لم يقدم الرجال ؟ وها هو كارايسكاكى أشجع زعماء الروملى وأعظمهم مقدرة لم يستطع رغم شهرة أعماله المجيدة السابقة أن يجمع حوله أكثر من ٥٠٠ ، وهى قوة لا يحلم أحد أن يرفع بها حصارا . ومع هذا فإن أهل مسّولنجى وحاميتها كانوا قد أقسموا أمام الله أن يدافعوا عن حصنهم شبرا شبرا ولا يصغوا لحديث التسليم وأن يدفنوا أنفسهم تحت أنقاضه . فلم يعد لهم مناص من اتباع إحدى خطتين : الموت جوعا أو اختراق الحصار طبقا لمشروع بوتساريس (Botzares) وهو مشروع جيد كان نجاحه محتملا وبمقتضاه قسم الرجال ثلاثة جماعات يقودها بوتساريس وماكريس ودزا فيلاس على التعاقب. وبين صفين من الرجال يحشد النساء بعد أن يلبسن

ملابس الرجال و يعطين السلاح ومعهن الأولاد و بيد كل منهم مسدس محشو .

ولما انتصف الليل هجمت الحامية على العدو واخترق أكثرهم صفوفها على الرغم من النار التى واجهتهم غير أنه بسبب خطأ فى الفهم أو بسبب حدوث ذعر ارتد السكان الى المدينة وليس معهم إلا عدد قليل من حاملى السلاح . أما الذين اخترقوا الخنادق العثمانية فانقض عليهم من فورهم فرسان أعدهم ابراهيم لهذا الغرض . ولما شرعت بقيتهم تتسلق جبل زقفوس وتحس أنها آمنة انهالت عليها طلقات قذفت بها فرقة من الألبان كان رشيد قد جعلها كمينا . فلم ينج من ٩٠٠٠ سوى ١٥٠٠ منهم ٢٦ بين امرأة وطفل . ولما طلع الفجر أمر ابراهيم رجاله بدخول المدينة وقابلهم السكان بإطلاق النار عليهم . وعمدت ثلاث عصابات الى نسف مخازن البارود على أنفسهم إيثارا للموت على التسليم . ولذا لم يأسر العثمانيون — فيما عدا النساء والأطفال — إلا قليلا .

وهذا الدفاع الذى أبداه أبطال مسولنجى زاد صداقة اليونان استعارا فى جميع أنحاء أوربا . وكان الرأى العام — بقدر ما يمكن أن يوجد على القارة — متململا من نير مترنخ وسياسته الرجعية ؛ ومن أجل ذلك كان يتخيل اليونان شعبا باسلا يناضل ضد عدو مخيف لا طاقة له به من أجل الحرية التى هى من حق كل إنسان . وقد دفع هذا الشعور الوزارة الفرنسية الى عمل شىء لصالح إخوانهم فى المسيحية ولم يعد فيليل (Villèle) رئيس الوزارة الفرنسية يستطيع المقاومة فجعل يفكر فى الانضمام الى روسيا وانجلترا بعد أن قررتا فى مؤتمر بطرسبرج سنة ١٨٢٦ معاونة اليونان ؛ وأدى ذلك الى عقد معاهدة لندن كما سيجىء بعد .

الحرب فى اليونان باشراف أصدقاء اليونان

كان سقوط مسولنجى نذيرا بسخط الشعب على حكومة كندو ريوتس لأنانيتها وعجزها حتى اضطر أن يستقيل من الرياسة وتكونت حكومة جديدة من ثمانية أعضاء برياسة زايميس (Zaimis) استبعد منها كندو ريوتس وكولوكترونيس

وكانت اليونان فى هذه الفوضى تنقسم الى ثلاثة أحزاب على أسس محلية فكانت الجزر من حزب انجلترا ، والمورة فى جانب روسيا ، والروملى يؤثر فرنسا . وقد صفى كندو ريوتس وكولوكترونيس ما بينهما من عداء وكوّنا حكومة ثانية برياسة سيسينى (Sissini) فصارت البلاد مهددة بحرب أهلية لولا توسط رجال من الإنجليز أمثال لورد كوكرين (Lord Cochrane) وسير رتشارد تشرش (Sir Richard Church) وكابتن هاملتون (Hamilton) فى إدماج الحكومتين . وانتخب تشرش قائدا أعلى للقوات البرية كما انتخب كوكرين أميرالا أعلى للأسطول وهو القوة الوحيدة من قوى الثورة التى ما زال بها رمق . وبذلك اتضح أن التدخل الأوروبى وحده هو الذى ينقذ اليونان من الخضوع للسلطان .

وبعد سقوط مسّولنجى فى ٢٢ من أبريل سنة ١٨٢٦ عاد ابراهيم الى المورة وسار رشيد فى شرق اليونان وظهر أمام أثينا فى يوليو سنة ١٨٢٦ واستولى عليها . وكان مسلك رشيد فى هذا اليوم مما أكسبه شرفا أزليا فقد أظهر أنه أرقى من سير رتشارد تشرش فى السياسة بقدر ما هو أرقى منه فى الميدان : إذ اتخذ كل احتياط يوحى به الحزم لمنع الترك من تدنيس سمعة المسلمين بأى عمل من أعمال الانتقام كما حدث من اليونان فى مواطن كثيرة : فكان الباشا يتفقد المكان بنفسه على رأس فريق قوى من الفرسان ليتأكد من أن جنوده الذين يرافقون اليونان الى حيث يركبون البحر يؤدّون واجبهم كاملا . وبسقوط أثينا تم إخضاع الجزء القارى من بلاد اليونان وكتب رشيد الى السلطان بذلك وجدّد بعض زعماء الروملى خضوعهم وانتقل الآخرون الى المورة . وعكف رشيد على توطيد سلطة الحكومة فى الناحية الإدارية .

أما فى المورة فلم يوجد جيش يقاوم ابراهيم فخضعت له كلها ماعدا مدينة نافيليو وتطوع بعض الزعماء فى خدمة القائد المصرى . ولم يعد أحد يسأل غير السؤال الآتى : هل يجد المسلمون من الوقت ما يكفى لإقرار الأمن قبل أن تقرر الدول القائمة بالوساطة استعمال القوة ؟

أما مقدرة المسلمين على نشر نفوذهم فى البـلاد بسرعة ما لم يعترضهم شىء من الخـارج فلم يك يسمح بأدنى شك . ولم يبق من أسلحة الثـورة صالحا للعمل إلا السفن ولذا قرر محمود ومحمد على أن يقضيا على هذا السلاح فنشطت دور الصناعة بالقسطنطينية والإسكندرية فى صنع أسطولين وتجهيزهما لسحق الجزيرتين المشهورتين بسفنهما وهما إذرا (Hydra) وسبتس (Spezzia) وكانا يعتقدان أنهما بهذا يطفئان آخر بريق فى الثورة قبل أن تتمكن الدول الأوروبية من التدخل بأساطيلها .

وأدرك كوكرين وجـود الخطر ومداه ، فاعتزم إحيـاء أيام دريك (Drake) بإحراق الأسطول المصرى بالاسكندرية . وأقبل الأميرال الأعلى بنحو عشرين قطعة ما بين سفينة حربية وحراقة حتى وقف أمام الاسكندرية فى ١٧ يونيه سنة ١٨٢٧ فغضب محمد على لهذه الإهانة غضبا شـديدا فركب البحر بنفسه وتعقب المعتدين حتى جزيرة رودس ؛ كل ذلك وكوكرين يتجنب المعركة حتى اضطر محمـد على الى العودة من هذه المخاطرة التى لم يسمع بمثلها فى الجرأة والإقدام . وبذلك فقد كوكرين البقية الباقية من سمعته ؛ وانكب اليونان على القرصنة البحتة .

وبعـد ذلك بقليل وصـل الى خليج نوارين أسطول طاهر باشا حيث بقى فى انتظار الأسطول المصرى الذى حضر فى ٧ سبتمبر سـنة ١٨٢٧ بعد أن تفادى سـير أدوارد كدرنجتن (Sir Edward Codrington) الذى كان قد عهد اليه أن يعترض أسطول مصر وأن يرده الى الاسكندرية . وكانت رياسة الأسطول المصرى معقودة لمحرم بك ورياسة الأسطولين المصرى والعثمانى لإبراهيم باشا وبذلك بلغ عدد سفن المسلمين فى خليج نوارين فى أوائل سبتمبر سنة ١٨٢٧ نحو مائة وتسع وعشرين على أهبـة الاستعداد للانقضاض على إذرا وسبتس وهما آخر أمل بقى لليـونان .

وفى هذه اللحظة الحاسمة تقررت المعاونة الأوروبية التى طال انتظار اليونان لهـا : ذلك أنه على الرغم من تزايد أصدقاء اليونان فى كل مدينة من مدن أوربا وفى بعض أنحاء أمريكا ، وعلى الرغم من الحملات الشديدة التى وجهتها جمعياتهم الى الحكومات المختلفة بقصد دفعها لمساعدة اليونان ، بقيت هـذه الحكومات تؤثر الحياد كما ظهر

ذلك فى مؤتمر ليباخ سـنة ١٨٢١ وفى مؤتمر فيرونا فى السنة التالية إذ تقـرر « ترك اليونان لحظهم » وعدم التدخل فى جانبهم .

ولم يتغير موقفها عن ذلك كثيرا طيلة حكم اسكندر الأول قيصر روسيا بسبب محاولته الجمع بين مصالح روسيا ومقاومة الثورات حيثما كانت . فلما مات سنه ١٨٢٥ خلفه أخوه نقولا الثانى وكان معجبا ببطرس الأكبر وكترينا الثانية فشرع يعمل على إضعاف الدولة العثمانية تحت ستار مساعدة إخوانه فى الدين — اليونان الأرثوذكس . وجزعت انجلترا لتجدّد هذه السياسة الروسية القديمة وعمدت الى التخفيض من نفوذ روسيا بالاشتراك معها فى العمل لصالح اليونانيين ، وذلك بإقناع السلطان بأن يمنحهم حكما ذاتيا . وتم الاتفاق على ذلك فى مؤتمر بطرسبرج ـ لينينجراد الحالية ـ سنة ١٨٢٦ ثم انضمت اليهما فرنسا وعقدت الدول الثلاث معاهدة لندن فى ٦ يوليه سنة ١٨٢٧ . وأهم شروطها عقد هدنة بين المتحاربين وقيام حكم ذاتى باليونان بشرط دفع جزية سنوية للسلطان . و إذا رفض أحد الطرفين تنفيذ الهدنة فإن للدول الثلاث أن تحول دون تصادم الطرفين بدون أن تشترك فى الأعمال العدائية . وخوّلت الدول الثلاث سفراءها بالقسطنطينية مفاوضة الباب العالى فى تنفيذ شروط المعاهدة ، كما خوّلتهم إصدار التعليمات اللازمة لأمراء البحر المكلفين مراقبة تنفيذ الهدنة . وبهذا دخل أمراء البحر الأوروبيون الحلقة لحسم النزاع بالسيف والمدفع .

واقعة نوارين

بقى الباب العالى ممتنعا امتناعا كليا عن الإصغاء لأى اقتراح يؤدّى الى توسـط الدول الأوربية بينه و بين رعاياه الثائرين . وهذا الامتناع أجج نار الغضب فى نفوس السفراء . ومن هؤلاء سفير فرنسا مسيو ريبو بير (Ribeaupierre) وكانت مهمته السرية أن يخلق مشكلة مع تركيا ؛ ومنهم سفير انجلترا ستراتفورد كاننج (Stratford-Canning) وكان يمقت الإقامة فى مدينة لم يكن يحبها يوما من الأيام ، بين أولئك الترك الفظعاء فى رأيه ؛ وكان إلى جانب ذلك قد سئم ما يعلق بمهمته من التقلقل ، فكتب أكثر من مرة الى جورج كاننج رئيس الوزارة الإنجليزية أن يعمل شيئا : إما الأخذ

فى إجراءات إكراهية قدر الطاقة دون إعلان حرب ، و إما إهمال الوساطة كلية ، والقضاء على كوكرين وشركائه .

وفى أول سبتمبر سنة ١٨٢٧ أصدر إلى السير ادوارد كدرنجتن "أن منع المؤن[1] ينفذ آخر الأمر بقنابل المدافع عند الضرورة وبعد استنفاد جميع الوسائل الأخرى". وقد كتب ستراتفورد كاننج فى ذكرياته بعد ذلك : "لو أنى تسلمت أقل اشارة عن حدة طبع السير ادوارد وجرأته لتجنبت التعبير (بقنابل المدافع)" .

على أن تعليمات ستراتفورد كاننج حتى فى الصيغة التى بلغت إلى كدرنجتن كانت خاصة بوقف المؤن . ومن ثم كان من الخطأ أن يحتج بها كدرنجتن عن تصرفه بعد ذلك فى موقعة نوارين . ولو لم يكن لدينا شىء غير شهادة كدرنجتن نفسه لكانت شهادته كافية لإثبات التهمة عليه : ذلك بأنه شعر أنه يجب عليه أن يعتذر لستراتفورد كاننج عن سوء تفسيره لتعليماته . ثم إنه حين اقترح الأميرال الفرنسى دى رنيى دخول الأساطيل الى خليج نوارين كشف كدرنجتن عن شعوره بأن مثل هذا العمل لم تصدر به تعليمات : فيقول عن دى رنيى : "قد نبهته الى ما عسى أن يكون من النتائج إذا لم توافق الحكومات على هذا الإجراء" فقال : "إنه استعرض كل النتائج وأنه مع ذلك على أتم استعداد" وفى ٤ سبتمبر أصدر السفراء تعليماتهم الى أمراء البحر بأن يحاصروا الساحل اليونانى بأجمعه من خليج أرتا (Arta) الى خليج فولوس (Volos) . وفى اليوم التالى بلغت معاهدة لندن الى اليونان فتلقوها بأعظم مظاهر الابتهاج ووعدوا بمراعاة شروط الهدنة المطلوبة . أما ابراهيم فلم تبلغ اليه المعاهدة إلا بعد ذلك بسبعة عشر يوما . وقد جاء فى المذكرة المرافقة للمعاهدة : أن الحلفاء — مدفوعين بعوامل الإنسانية — قد جمعوا قوات بحرية كبيرة بقصد منع كل مقاومة من جانب القواد الترك — تلك المقاومة التى قد تؤدى إلى القضاء عليهم وتسبب للسلطان ضررا كبيرا يمتد أثره زمنا طويلا . وقد تسلم أمراء البحر الأوروبيون أوامر بأن ذهابهم إلى أبعد حد أولى من التقصير فى بلوغ الهدف الذى ترمى إليه معاهدة لندن .

(١) المراد منعها عن العثمانيين والمصريين .

ووصل أمير البحر دى رنيي إلى نوارين فى ٢٠ سبتمبر وقابل إبراهيم فى صباح اليوم التالى، وحاول فى هـذه المقابلة أن يقنعه بالاستجابة لرغبات الحلفاء . وكان حديث الأميرال الفرنسى بلهجة مستفزة يراد بها إثارة الروح العالية والرجولة اللذين كان يعرفهما عن إبراهيم ، حتى لقد سأله إبراهيم "هل يلزم تسليم الحصون كذلك ؟" فكان جواب دى رنيي " هذه مسألة تقرر فيما بعد أما اليوم فإنا إنما نريد هدنة تنقذ والدك وتراثة . فكر فى أنه مسنّ وقلق ومختلف عما كان عليه من قبل، وفكر فى أن مصر الغنية ستكون خيرا لك من المورة المخربة " . وكان مما قاله إبراهيم : " عندى كل ما يلزم لإخماد الثورة، ولتوقيع ضربة قاتلة على إذرا وهى الوكر الأخير للحراقات اليونانيـة" فقال دى رنيي : " أنه اتفق مع كدرنجتن على أن يمنعا بالقوة الأسطول التركى المصرى من السير فى أى اتجاه اللهم إلا اتجاه الدردنيل والإسكندرية". وتم التفاهم على ألا يقوم إبراهيم بعمليات جديدة إلا بعد أن يتسلم من الباب العالى أو من الوالى أمرا رسميـا بذلك ، وأنه إلى صدور ذلك الأمر سيحتفظ بأسطوله فى نوارين .

وفى ٢٥ سبتمبر زار الأميرالان البريطانى والفرنسى القائد المصرى زيارة رسمية فى كثير من الأبهة . ويقول كدرنجتن : " إن إبراهيم باشا تظاهر بأن له رغبة خاصة فى تنفيذ طلبنا، ولعله كان كذلك فى الواقع ونفس الأمر" وعلى الرغم من هذا فإن دى رنيي لم يتمالك أن يتحدث عن تبادل الرصاص والبارود. وإذن، فإن إبراهيم كان مستعدّا لوقف القتال، أما اليونان فإنهم بدلا من تنفيذ الهدنة التى وافقوا عليها أحسوا بأنها — فيما يخصهم — مجرّد عبارة رسمية، وأنه لن ينالهم عقاب من قبل الدول التى توسطت فى إنقاذهم . وبهـذا الاعتقاد أرسل الجنرال الفرنسى فابڤيير (Fabvier) إلى خيوس وعهد إلى بعض الزعماء بتحريك الثورة فى تساليا وحوصرت كريت ؛ بينما حاول تشرش وكوكرين النزول إلى اليونان الغربيـة . وأهم من هـذا كله أن القائد هاستنجس (Hastings) وهو من أصدقاء اليونان أباد قوّة عثمانيـة أمام

صالونا (Salona) . فلا عجب إذا أعان إبراهيم فى غضب : „ أن العثمانيين مكتوفو الأيدى بينما اليونان أحرار فى متابعة الأعمال العدوانية“ وأضاف إلى ذلك„ أنه ما دام اليونان لا يحترمون الهدنة التى قبلها هو على كره شديد منه ، فإنه لا يعدّ نفسه مقيدا بأى احتياط فى جانبهم“ . وفى ذلك يقول المؤرّخ الانجليزى فنلاى (Finlay) : „ تأبى علينا الصراحة أن نتجاهل أن إبراهيم وافق على وقف القتال وهو يعتقد أنه لن يسمح لليونان — أسوة بالترك — بأن يمضوا فى الأعمال العدائية“ . ومن ثم كان إرسال جزء من أسطوله لمعاقبة هاستنج ، وهو إذ ذاك فى خليج كورنثوس ، عملا مبررا من كل وجه . وكذلك كان عمله فى تموين بتراس التى كان كوكرين يسير قاصدا أخذها .

وما أن علم كدرنجتن بخروج الأسطول المصرى ، حتى أقلع من جزيرة زنطة وأنذر السفن الإسلامية بإطلاق النار على أية سفينة تتقدّم فى اتجاه بتراس وكان من نتيجة ذلك أن عادت السفن الى نوارين فى ٦ أكتوبر سنة ١٨٢٧ . ومن الممتع تخيل النتيجة لو أن إبراهيم أصرّ على تموين بتراس فى ذلك اليوم ، ونفذ الأميرال الإنجليزى تهديده فى حين لم يكن معه غير سبع سفن .

وبعد ذلك اجتمعت الأساطيل الثلاثة المتحالفة فى مياه زنطة وبلغ عددها عشر سفن من خط القتال وتسع فرقاطات وثمانى سفن صغيرة . وهنا برز الى عالم الوجود ذلك التصميم الذى أدّى الى معركة نوارين ؛ ومؤدّاه : „ أن أمراء البحر اقتنعوا — كما اقتنع كل رجل مفكر ما عدا أعضاء الهيئة الدبلوماسية — بأن العقدة التى عليهم حلها لن يفصل فيها إلا السيف“ وفى هذا المضمار أخذ دى ريني القياد وتبعه كدرنجتن وهيدن (Heiden) مختارين غير مكرهين .

ولا عجب فإن دى ريني كان قد غير رأيه فى المسألة اليونانية وشرع ينصح لرئيس الوزارة الفرنسية باستعمال القوّة لوقف العدوان لاعتقاده „ أن هذا يعدّ لفرنسا موقفا نبيلا جدا“ . وبهذا التحمس لإرضاء التلهف القومى لنيل المجد جرف رئيس الوزارة إلى وجهة نظره مؤقتا . ويؤيد رغبة دى ريني فى إنهاء المسألة

عن طريق القتال ما يقصه عنه كدرنجتن من أنه "لا يحب البحر ولا يستطيع أن يتخيل الحصار" وأنه من أجل ذلك كان مستعدا للتدليل على "أن استمرار الحصار طول الشتاء عمل شاق ، كثير النفقات ، ولعله عديم الجدوى : ذلك بأنه قد تهب عاصفة تشتت شمل الأساطيل الأوروبية ، فتتاح لإبراهيم فرصة نقل جيشه الى نواح متعددة من المورة والجزر" ومن ثم كان يرى "أن خير سياسة ما تجزه المدافع". و بناء على ذلك قرر أمراء البحر أن أقصر الطرق وأضمنها لتنفيذ معاهدة لندن هي حرمان السلطان من وسائل الاستمرار فى القتال .

وكتب دى رنيي خطابا الى الضباط الفرنسيين فى الأسطول المصرى يحذرهم "أنه من الجائز نشوب معركة ، وأنهم إذا ضبطوا يقاتلون ضد علم دولتهم فإن النتائج بالنسبة لهم قد تكون خطيرة جدا ، وأنه لذلك ينصح لهم بالتخلى عن أعمالهم" وكذلك فعلوا .

وفى ١٧ من أكتوبر سنة ١٨٢٧ كتب أمراء البحر إلى إبراهيم يعنفونه — فى غير استحياء ولا خجل من الكذب — بأنه أخل بتعهده وأنه بذلك وضع نفسه خارج نطاق القانون الدولى .

ولما كان إبراهيم غائبا أعيد الخطاب دون أن يفض غلافه . وفى اليوم التالى وقع أمراء البحر بروتوكول المفاوضات الذى نفذ بعد يومين فى نوارين . ونصت المادة الأولى منه على استبعاد الحصار أثناء الشتاء ؛ وتحدثت الثانية عن جمع الأساطيل فى نوارين نفسها حتى تكون إقامتها الدائمة هنالك ضمانا لعدم تحرك الأسطول العثمانى .

ولو أن أمراء البحر كانوا حقا يقصدون مجرد مظاهرة — كما كانوا يجاهرون — لكانت هذه المادة وافية بغرضهم . لكنهم أوضحوا أنهم بيتوا النية على تحطيم الأسطول العثمانى حين استرسلوا فى القول "بأن هذا الوضع وحده لا يؤدى الى الغاية ، لأن الباب العالى يصر على عدم تغيير خطته" . ومعنى هذا أن وجود الأساطيل الأوربية بصفة مستديمة فى نوارين لا يكفى لتحقيق أغراضهم . وعلى

الرغم من ذلك فإنهم بالمـادة الأخيرة أقنعوا أنفسهم بأن " مجـرد وجود الأساطيل بأبهتها فى نوارين يتولد عنه عزم يحقق الهدف المطلوب " .

والشيء الذى ما يزال بحاجة الى تفسير هـو المنطق الذى سوّغوا به أن وجود الأساطيل بصفة مؤقتـة يحدث أثرا أكبر من وجودها بصـفة مستديمة ؛ اللهـم إلا إذا كانـ الوجود المؤقت يفسر على طريقـة دى رنيى " بأنه يجب إدخال الأساطيل الثـلاثة الى نوارين نفسها و إنذار الأساطيل العثمانيـة — و يدنا على المـدفع — بأن تخرج ؛ و إلا هاجمناها على الفور " ومن ثم يتجـلى أن بروتوكول أمراء البحر يبرهن بذاته على أنهم لم يكونوا يقصدون شيئا أقل من تحطيم الأسطول العثمانى : ذلك بأن دى رنيى كان يعلم حق العـلم بأن روح إبراهيم العالية ورجولته تحولان دون انسحابه من نوارين؛ حتى ولو طلب إليه أمراء البحر —و يدهم على المـدفع — أن يفعـل ذلك ؛ اللهـم إلا إذا صـدر له أمر بهذا الانسحاب من السلطان أو من والده .

وفى ٢٠ أكتوبر انتهز كدرنجتن هبوب رياح شرقية مناسبة ودخل الى الميناء. وقد وجد القائد المصرى محرم بك والقـائد التركى طاهر باشا نفسيهما فى موقف حرج؛ لأن رئيسهما الأعلى وهو ابراهيم باشا كان غائبا ، ولأنهما يعلمان جيدا أن محمود ومحمد على يكرهان الاشتباك مع أوربا .وفى هذه الساعة المنحوسة الطالع سمحا لنفسيهما بأن تسيطر عليهما هذه الاعتبارات السياسية بدلا من أن يقوما بواجبهما كقائدين . و بذلك عمـلا على نقيض ما اعتزمه خصـومهما إذ أن أمراء البحـر الأوروبيين كانوا قد قرروا التضحية بالدبلوماسية إيثارا لمـا رأوه صوابا ومنتجا ، بينما القائدان المصرى والعثمانى قد عكسا الآية فضحيا بما يوحى به عقلاهماخوفا من اعتبارات سياسية بسبب فرط حرصهما على الإبقاء على حسن العلاقات مع أوروبا ، و بسبب إصرارهما على ألا يكون العـدوان من جانبهما إن كان ولا بدّ من قطع هذه العلاقات .

وهذه الاعتبارات بذاتها هى التى حدت محرم بك على اقتراف خطأ كان ينبغى أن يحاكم من أجله أمام مجلس عسكرى : ذلك لأن مكانه كان عند مدخل الخليج، ولأنه كان يدرك موقف التحدى الذى يقفه خصومه ؛ فكان ينبغى عليه أن يعترض دخولهم ، فاذا هم أبوا الرجوع ، هاجمهم وهم يدخلون فرادى ، بسفنه وبطارياته المنصوبة على البر .

وبما أن ابراهيم لم يكن يسمح البتة لعدوّه بأن يختار نقطة الهجوم ، فمن الجائز أنه لو كان حاضرا لنفذ هذه الخطة . واذن ، لجاز أن تكون نتيجة المعركة مخالفة لما حدث . وها هو كدرنجتن نفسه يقول : " لو أن محرم بك عجل قليلا بضرب النار لواجهنا صعوبة كبيرة " . لكنه بدلا من الوقوف موقف الرجولة انخدع بوعد الأميرال البريطانى بأنه لن يطلق النار حتى يبدأ محرم بك، ومن ثم احتفظ بحياده .

وبعد أن استغل الأميرال البريطانى حياد الأميرال المصرى المخدوع استغلالا كاملا، انقلب عليه دون أن يشعر بوخز الضمير؛ وهاجمه فى الوقت الذى كان فيه قبطان مصرى يتحدث الى ياور الأميرال البريطانى .

وبينما العثمانيون يتلفتون يمنة ويسرة لا يدرون ما يعملون كانت الأساطيل الأوروبية تأخذ أماكنها فى فسحة من الوقت : ففى منتصف الساعة الثانية دخلت السفن البريطانية حتى صارت فى وسط الهلال بالضبط فى مواجهة سفينتى أميرى البحر التركى والمصرى، ودخلت السفن الفرنسية فأخذت مكانها عن يمين كدرنجتن فى مواجهة الفرقاطات المصرية ؛ وذلك بقصد التأكد من تخلى الضباط الفرنسيين . وأما الأسطول الروسى فوقف عن يسار زميله البريطانى .

وقد ثار الجدل حول الجانب الذى أطلق القذيفة الأولى ويقول ابراهيم : "إن كلا الفريقين يتبرأ منها؛ والثابت أن الفرقاطة البريطانية "دار تموث" بدأت أولا وبدون مبرر تستولى على حراقتنا فكان الدفاع المشروع من جانبنا سبب القذيفة

الأولى التى ألقتها دار تموث " . ولتأكيد المؤكد أطلق دى رنى على الأسطول المصرى كل مدفع على سفينته يواجه ذلك الأسطول ؛ فلم يكن من قبيل المصادفة أن أول قذيفة مصرية وقعت على السفينة لاسيرين (La Siréne) التى كان الأميرال الفرنسى على ظهرها . وهذان الحادثتان كانا بمثابة إشارة الاشتباك العام، وهو اشتباك لا يترك مجالا للمناورة ولا للفن البحرى بحكم ضيق الخليج فلم تكن هناك حاجة لغير الضرب الشديد . ويقول دى رنى فى وصفه : " فى وسط هذا التنور كانت ترى سفن بأكملها مشتعلة ، وأخرى تقفز فى الهواء بانفجار مروع . ولما غطيت الميناء بالحطام بدت فى صورة بحيرة من تلك البحيرات الجهنمية التى يعوم فيها الكفار بين أمواج من النار والقار الملتهب " . وكتب كدرنجتن الى زوجته فى اليوم نفسه : " إيه ياعزيزتى ، لقد حارب الترك والحق أنهم أجادوا الحرب، وقد أعدمنا أسطولهم ، وكلفنا ذلك ثمنا غاليا " .

ولم يكن أحد يشك فى النتيجة إذ الواقع أن تفوق الأساطيل الغربية تفوقا لاشك فيه هو الذى شجع أمراء البحر على المخاطرة بهذه الخطوة : ذلك بأن الوحدات المقاتلة إنما هى سفن خط القتال . وكان نصيب العثمانيين من هذه الوحدات أقل من ثلث نصيب خصومهم من حيث العدد . وفضلا عن هذا فانهم كانوا مقيدين بنطاق ضيق . وزاد الحال سوءا أن السفن الصغيرة والنقالات الكثيرة لما حطمها الأعداء — ولم يكن ذلك عملا شاقا — صارت خطرا على أصحابها وعائقا لهم . فما جاءت الساعة الخامسة حتى كان الأسطول العثمانى لا وجود له باعتبار كونه قوة بحرية .

هكذا حدثت موقعة نوارين تلك الموقعة التى قيل عنها بحق إنها دقت ناقوس الاستقلال اليونانى؛ فان دم بحارة الحلفاء وقد اختلط فى خليج نوارين ربط بعضهم ببعض على الرغم من تباين مصالحهم . ولا ننسى أن زعماء جيش ما أو أسطول ما لا يناط بهم تفسير نص معاهدة ما ، ومط موادها مطا كثيرا بحيث تناقض معانيها الحرفية ، كما لا يجوز لهم أن يقيموا أنفسهم قضاة يفصلون فى أمور السلم والحرب .

ومن ثم وجد كدرنجتن أن عمله هذا بحاجة الى التبرير فكتب الى الوزارة البريطانية يقول : " إن أول أثر عظيم سيكون قبول السلطان للهدنة المقترحة حين يجد ، بعد فقد أسطوله ، أنه لم تعد له وسيلة للاستمرار فى الحرب . وسيكون الأثر الثانى إقلاع الروس عن عزمهم على تسيير جيوشهم نحو القسطنطينية ذلك العزم الذى أخاطر بالقول بأنه الآن موضع التنفيذ" . على أن هذا التبرير لم يحل دون تجريده من القيادة .

وإذن فان التدخل بالقوة بين تركيا واليونان كان من أوله الى آخره من اقتراح القيصر نقولا الأول ومن خوف انجلترا من ازدياد النفوذ الروسى فى تركيا ، وكانت موقعة نوارين النتيجة المباشرة لمعاهدة ٦ يوليه سنة ١٨٢٧ كما توقعها نقولا ومترنخ ومحمد على . وإنما وافقت عليها فرنسا لأن حكومة شارل العاشر كانت فى مسيس الحاجة الى شيء من المجد ينسى الشعب إدارتها المستبدة المحدودة النظر ، وبخاصة لأن الشعب كان قد سئم جمودها وكان يرى فى هذا الجمود مضيعة لحسن الصيت وهو لدى الفرنسيين غذاء شهى .

وما أن وصلت أخبار المعركة إلى الحكومات الثلاث وشعوبها حتى تجلى شعور هذه وتلك : ففى لندن كان الرأى العام منقسما فالهويج قابلوها بالابتهاج بينما أحس التورى — ومعهم الحكومة — بأنها على أحسن الفروض « حادث مشئوم » . وفى باريس أعلن " أن الشعب هو الذى كسب المعركة ، وأنها مبدأ انتصار الرأى العام »؛ وسر شارل العاشر بما لاحظه من حب الشعب لوزرائه كأثر حسن من آثار المعركة ، ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يمتدحها دون تحفظ . أما فى بطرسبرج فان الفرح كان غير مشوب ، وظن حزب الحرب أن نوارين تؤدّى إلى حرب مع الترك طالما رغبوا فيها . وكان نقولا الملك الوحيد الذى ابتهج بها فحلى صدور أمراء البحر الثلاثة بالأوسمة ، وهنأ كدرنجتن " على النصر الذى ينبغى على أوربا

المتحضرة أن تعترف لك بجميله مضاعفا ". ولم يكن وزيره أقل منه سرورا وعبر عن ذلك بقوله : " إن أمراء البحر يستحقون أن يكونوا رؤساء وزارات يدبرون السياسة ".

أما ابراهيم باشا فلم تخفض موقعة نوارين البحرية من شجاعته مثقال ذرة، فبقى ثابتا كما كان من قبل؛ بل لعل تحطيم الأسطول جاء منقذا له بإزاحة الضباب الدبلوماسى الكثيف الذى كان يحجب الطريق عن عينيه؛ فأصبح بعد هذا الحادث يستطيع أن يؤدّى واجبه للدولة العثمانية من غير أن تعوقه عن ذلك اعتبارات السياسة الدولية . ومن ثم شرع يعمل على الفور لقضاء الشتاء فى المورة . واتضح له بعد الحساب الدقيق أن ما عنده من المؤن، مضافا إليه ما يرغب تجار اليونان فى بيعه له، يكفيه الى أن يظهر المحصول الجديد . ولبلوغ هذه الغاية أرسل الى مصر كل من يعوق وجودهم تنفيذ الخطة وهم ٢٤,٠٠٠ شخص حملهم على ما بقى من سفنه وهى قوة أكبر مما قدر الجمهور المصرى إذ كان فيها ٢٦ سفينة حربية و ٢١ نقالة .

ومهما يكن من أمر فان أخبار نوارين لم تحدث فى مصر حنقا يذكر، بل أظهر الوالى فى هذه المحنة تجلدا وسمو نفس عظيمين فكان فى أثناء قراءة التقرير الطويل الذى بعث به أليه ابنه يتوقف و يقول فى صوت مسموع " لقد أخبرتهم بهذه النتائج ". ولا غرو فان الخبر لم يجئ مفاجئا لمحمد على إذ كان قبل ذلك بأشهر مشغولا بعمل الترتيب اللازم " لإرجاع حملته سالمة". ولما أشار القنصل البريطانى باركر (Barker) من طرف خفى الى أن الترك هم الذين أطلقوا القنبلة الأولى قال محمد على : "كلا كلا ! إن الموقعة كان لا بدّ أن تحدث " وأصر على أننا نحن[1] المعتدون ؛ وأكد أن تحطيم الأسطول بأجمعه لا يؤثر فى حال الأوروبيين المقيمين فى تركيا . واستهجن القول بأن السلطان سيأمر بذبح الأوربيين المقيمين ببلاده مؤكدا : " أن مثل هذا المسلك

(١) يقصد الأوربيين عامة والبريطانيين خاصة .

يخالف مبادئ الدين الإسلامى على خط مستقيم ، وأن السلطان لو ارتكب مثل هذا العمل فانه لا يعدّه مسلما ، بل يعتبره كافرا " .

وتحقق ماتنبأ به محمد على من أن السطان لن يفكر فى مذبحة عامة ، بل على العكس بقى هادئا وطلب تعويضا واعتذارا وألح على السفراء بالبقاء فى عاصمته ، إلا أنهم حين رأوا أن الباب العالى ما يزال مصرا على موقفه غادروا القسطنطينية بغير جوازات سفر .

ولما أحس السلطان بأن الحرب آتية لا ريب فيها عرض على محمد على أن يمنحه ولايات سوريا الثلاث ثمنا لمساهمته فى حالة نشوب حرب مع الفرنج . ومع أن الوالى لم يكن يخطر بباله يومذاك أن يفكر فى الاستقلال فانه اقتنع اقتناعا تاما بأنه قد أدّى واجبه نحو السلطان ، وضحى فى هذه السبيل بأسطوله وبجزء من جيشه وأنفق فى ذلك أموالا طائلة ؛ وأدرك بثاقب فكره أن المضى فى معاونته للسلطان لم يعد من المستطاع أن يؤدّى إلى إخضاع اليونان ، ولا أن ينجى الدولة العثمانية من الإذعان لأمر أوروبا . وعلى أساس هذا التفكير السليم استقر عزمه على استنقاذ مصر من شراك السياسة الأوربية وتجنيبها التورط فى خطة العناد التى اندفع فيها محمود الثانى على غير بصيرة بعاقبة الأمور .

ومن ثم شرع يترقب أنسب الظروف وأشرف الوسائل التى تمكن لابنه وجيشه وبقية أسطوله من العودة إلى مصر . وحانت له الفرصة حين قررت انجلترا وفرنسا والروسيا فى يوليه سنة ١٨٢٨ إبعاد ابراهيم عن المورة وتكليف فرنسا تنفيذ هذا القرار ، فعمد إلى الاتفاق مع الأميرال كدرنجتن فى أغسطس من تلك السنة على إخلاء المورة وأصدر أمره إلى ابنه بالعودة إلى بلاده .

وبينما ابراهيم يعدّ العدّة لتنفيذ أمر والده إذا بجيش فرنسى قوامه ١٥,٠٠٠ جندى ينزل بالمورة بقيادة الجنرال ميزون « Maison » بعد أن أصبح الموقف فى غنى عن تجريد الجيوش ، ولم يبق إلا أن يتآخى القائدان والجيشان . وأبدى زعماء الجيش

الفرنسى فى هذه المناسبة نهاية التعظيم والمجاملة لابراهيم باشا : ومن ذلك أن الجنرال « ميزون » أمر بإجراء عرض حاشد إكراما له ودعاه فى اليوم التالى إلى طعام العشاء . وتتابعت حفلات التكريم والولائم للقائد المصرى إلى أن جلا عن المورة فى أكتوبر سنة ١٨٢٨ ؛ وعاد البطل المفدّى إلى وطنه . وما أن وقع بصره على والده بين رجال دولته حتى انكب يقبل أطراف الأريكة التى كان محمد على جالسا عليها . فكان هذا اللقاء من أسعد اللحظات فى حياة ذلك المصلح الفذ .

وبعد ، فان الحملة المصرية إلى بلاد اليونان كانت — على الرغم من الظروف السيئة التى أحاطت بها — مليئة بالأعمال المجيدة التى سجلت لإبراهيم ومحمد على ومصر فخرا أبديا : فقد كان عامة الأوروبيين لا يعرفون هذه الأسماء الثلاثة إلا مقرونة بالتوحش والجهل والتأخر . فجاءت الحملة من أولها إلى آخرها عرضا شائقا لبطولة ابراهيم وعظمة محمد على ونهوض مصر : فإن الأسطول المصرى ما كاد يتصل بالأسطول العثمانى فى بحر الأرخبيل سنة ١٨٢٤ حتى أعجب الناس بحسن سفنه وسرعة سيره وبراعة مناوراته وقرنوا ذلك بارتباك الأساطيل العثمانية وبطء حركتها ، مما مكن اليونان من تحطيم ثلاثة منها ، واضطرار خسرو باشا الى الفرار أمامهم الى الدردنيل حتى لم يجد السلطان بدّا من أن يترك لمحمد على التصرّف فى الأسطولين العثمانى والمصرى ، وبينما كان ابراهيم فى مياه جزيرة ساموس ، أطلقت عليه إحدى السفن اليونانية رصاصها فبقى فى مكان الربان ينظر باسم الثغر الى الرصاص وهو يقع حوالى قدميه . ولم يمض كثير على نزوله بالمورة حتى كان صوت نفير جيشه يملأ قلوب اليونانيين فزعا ويفرّق جموعهم فى أنحاء شتى ، وذلك بعد أن مزّقوا أربعة جيوش تركية ، منها جيش من خمسين ألف مقاتل كانت قيادته الى خورشيد باشا الذى كان يوما من الدهر ينازع محمد على ولاية مصر .

وما أن استولى إبراهيم باشا على المورة حتى أقرّ بفضله خصمه فى المستقبل محمد رشيد باشا فكتب إليه : " لقد أفنيت هذا الجنس الممقوت جنس المورالية —

سكان المـورة — فسـارع بالحضـور لتنكل بأولئـك الصيادين سـكان مدينـة مسّولونجى ، فانهم أصبحوا من الشياطين بمـا هم مكبون عليـه من عمل السحر . ومن آيات سحرهم أنى أقمت أمامهم جبلا يتجاوز علوه ارتفاع أسـوارهم فدمروه تدميرا بسحر رجل عندهم اسمه « كوكينس » . ويشتغل هؤلاء الكفار كل يوم بترميم أبنيتهم كلما سقطت جدرانها ، ويجرءون على شتمى من أعلى الأبراج . فهل يرضيك أن تتركنى هكذا هزأة لهؤلاء الملاعين ولعبة فى أيديهم ؟ إن امتلاك بلاد اليونان كلها يتوقف على أخذ أسوار مسّولونجى ، فهلم إليها من غير تأخير" .

وأهم من هذا فى تقدير ابراهيم باشا أن السلطان كان قد كتب اليه خطابا بخط يده يوليه المورة ، ومعه كتاب آخر يطلب اليه فيه المسير الى مسّولونجى إذا استنجد به رشـيد .

ومن مواقف البطولة التى وقفها ابراهيم أنه حين بلغت اليـه معاهدة لنـدن سـنة ١٨٢٧ كان جوابه لأمراء البحر الأوربيين : "ليس لى أن أعمل إلا بأمر الوالى أو السلطان ، ومهما يكن الخطـر الذى أصبحت به مهدّدا فلن أحيـد عن الخطة التى رسمت لى قيد شعرة" . وبقى إبراهيم على هذا التصميم فى أقسى الظروف وأشدّها هولا الى أن تسلم من والده أمرا بإخلاء المورة .

ولم تكن الشجاعة وثبـات الجنان كل ما عرفه الأوربيون من فضائل ابراهيم بل لقد أدركوا منـه جانبا آخر ما كانوا يتوقعونه من أهل الشرق فى ذلك العصر ، ذلك هو الجانب الإنسانى ، الذى تجلى فى مناسـبات تفوق الحصر ، نكتفى بذكر بعضها على سبيل المثال ، منها أن أسقف موذون الذى حرّض مواطنيه سنة ١٨٢١ على ذبح جميع مسلمى نوارين بعـد أن استسلموا إليهم وقع سـنة ١٨٢٥ أسـيرا فى يد إبراهيم فاكتفى بإبقائه فى الأسر حقيرا مهينـا وأبى أن يأمر بقتـله . ولم يكن هـذا الحادث فريدا فى بابه ، بل كان إبراهيم يعـامل اليونانيين عامة بالرفق والإحسان ، ويترفع عن سـفك الدماء خارج ميـادين القتـال ، مقتديا فى ذلك بوالده العظيم فإن محمـد على كان فى أثنـاء حرب اليونان وبعدها يستبقى الموظفين

اليونانيين فى خدمته و يتجاوز ذلك الى استخدام بعض مهاجريهم ولا يتعرّض بسوء للتجار منهم حتى فضل كثير من أسراهم البقاء فى مصر على العودة الى وطنهم .

ولم يقف إبراهيم فى رفقه عند هذا الحد بل تخطاه الى درجة تخجل كثيرا من متحضرى أوربا فى عصرنا الحالى، إذ كان يعنى بالمرضى والجرحى من أعدائه عناية فائقـة و يكلف طبيبه الخاص علاج بعضهم . و بلغ من ذلك أنه أحيى تقاليـد صلاح الدين الأيوبى حين شكت إليـه عجوز يونانية فقيرة أن ضابطا مصريا أسر ابنها الوحيد فأعطاها إبراهيم من المـال مايكفى لافتداء ابنها وردّ حريته إليه .

وتأصل تقدير البطولة فى قلب إبراهيم حتى كان يكبرها فى أعدائه : جاءه وهو يحاصر مسّولنجى ضابطان يونانيـان ومعهما قسيس يرجونه السماح لهم بمغـادرة المدينـة بحجة وثوقهم من قرب سـقوطها فكان جوابه : " عودوا بسلاحكم إلى مراكزكم لتخبروا مواطنيكم بأنى أحترم من يحمون ذمارهم إلى النهاية " .

ومن هذا القبيل أنه بصر يوما ببعض جنوده يطلقون الرصاص، فى غير معركة، على ألد خصومه «كولوكترونيس» فزجرهم وناداه : " سلم نفسك أيها القائد " . فكان جواب « كولوكترونيس » أن أطلق الرصاص يريد قتـل إبراهيم، ولكنه أخطأ الهدف فأصاب أحد أتباعه .

ولا غرو بعـد هذا أن يشهد له جميع من اتصلوا به من الأوربيين بالشجاعة التى لا يرقى اليها ضرب من ضروب الخوف، أقرّوا له بالعبقرية الحربية وسعة العلم بالسياسة الأوربية، إلى جانب التفكير العميق والتدبير الحصيف، والرفق بالخصم المغلوب والعطف على المحتاجين من أعدائه وأسراه ومساواتهم فى توزيع المؤن بجنوده؛ فكان بذلك مثلا حيـا لمحمد على الكبير وعنوانا لمـا نالته مصر على يديه من النهوض من كبوتها والخروج من ظلمات الفوضى والارتباك إلى نور الاطمئنان والنظـام .

وهكذا كانت الحملة اليونانية وسيلة لتعريف أهل أوربا بما بلغته مصر يومئذاك من رقىّ مادى ومعنوى وتنبيـه أذهانهـم الى ما يرجى لهـا من مستقبل باهر .

فهرس بأهم الأسماء والألفاظ اليونانية الواردة فى هذا الفصل ورسمها بالحروف العربية كما ينطق بها اليونان

Adamantios Koraïs	أذمنديوس كورائيس
Anatoliko	أناتوليكو ومن معانيها الشرق
Argos	أرغوس
Armatole	أرماطول ومعناها حامل السلاح
Arta	أرتا
Botzares	بوتساريس
Capodistrias	كابوذ ستریاس
Condurotti	كندوريوتس
Corinth	كورنثوس
Daria	ذاريا
Demogerontes	ديموچيرنتس ومعناها شيوخ البلدية
Dervend	ذرفند
Dikaios	ذيكيوس
Gastouni	غستونى
George Mavromichalis	غيورغيوس ماڤروميخاليس
Germanos	غرمانوس
Hellas	إلاس
Hetairia Philiké	إتيريا فليكى ومعناها "شركة الاحباء"
Hospodar	هوسبودار ومعناها حاكم البغدان أو الافلاق
Hydra	إذرا
Hypsilanti	إبسلندس

Kalamata	كالاماتا
Kanaris	كاناريس
Karaiskaki	كارايسكاكس
Casos	كاسوس
Kleidi	كليذى
Klepht	كلفت
Krioneri	كريونيرى
Kromidi	كروميذى
Kitsos Djavellas	كتسوس دزاڤيلاس
Larissa	لاريسا
Maina	ماينا
Maniaki	مانياكى
Makrijanis	ماكريانيس
Makriplaye	ماكريبلايى
Makris	ماكريس
Makrynoros	ماكرينوروس
Mavrocordatos	ماڤروكورذاتس
Movromichalis	ماڤروميخاليس
Miaouli	مياؤليس
Missolonghi	مسولنجى
Modon	موذون
Nauplia	نافليو
Navarin	ناڤارينون

Olympus	أوليمبوس
Pallicar	باليكار ومعناها بطل
Pappadiamandopoulos	باباذيامندوبولوس
Pappa Phlessas	بابافليساس
Peta	بيتـا
Philhellenes	فيلهيلينس ومعناها أصدقاء اليونان
Piana	پيـانا
Pindus	پندوس
Proestes	بروستس ومعناها رجال بارزون
Psara	بسـارا
Pyrgos	برغوس
Rhegas	ريغـاس
Sachtouris	سختوريس
Skourtis	سكورتس
Souli	ســولى
Spezzia	سپتس
Sphacteria	سفكتريا
Theodore Koloktrones	ثيوذوروس كولوكوترونيس
Thucydides	ثوكيذيذس
Tombazes	تومبازيس
Tricoupi	تريكوبس
Tsamados	تساماذوس
Vasiladi	ڤاسيلاذى

Vervena	ڤرڤنـا
Volo	ڤولـوس
Zaimis	زايميس
Zerekovia	تسيروكوڤيا
Zygos	زڤفـوس

جهود ابراهيم باشا فى خدمة الزراعة والصناعة والتجارة

للدكتور أحمد أحمد الحته

اشتهر ابراهيم باشا ببطولته وكفايته الحربية فى ميادين القتال ببلاد العرب والسودان واليونان والشام والأناضول ، فذاع صيته فى الشرق والغرب حتى أن شهرته الحربية حجبت لدرجة ما النواحى الأخرى من مواهبه، فلم يعرفه بعض الناس إلا قائدا ماهرا و بطلا فذا، قاد الجيش المصرى فى ميادين النصر .

حقيقة كان ابراهيم باشا قائدا مظفرا، امتاز بالشجاعة وحب النظام، ولكن عظمته لم تقتصر على الناحية الحربية فقط، إذ تجلت جهوده الاقتصادية فى مصر والشام و بلاد العرب، وظهرت كفايته الإدارية فى حكم الشام، وفى المهام الإدارية التى تولاها فى مصر[(١)] .

(١) فى سنة ١٨٠٧ عين ابراهيم دفتردارا أى مفتشا عاما للحسابات فأدى عمله بجدارة خليقة بالإعجاب ، وفى سنة ١٨٠٩ عين حاكما على الصعيد علاوة على منصبه الأول فنجح فى إدارته ، وفى سنة ١٨٢٩ تألف مجلس المشورة برئاسة ابراهيم باشا للبحث فى مسائل الادارة والتعليم والأشغال العمومية والقضاء ، وفى نفس السنة كان ابراهيم باشا على رأس الادارة المدنية والعسكرية ، لا يمل من التفتيش على أعمال تلك الادارة ، وقد اضطلع بقسط وافر من إصلاح الحالة الإدارية بمديرية الشرقية مما جعل والده يصرح بأن ابراهيم قد حمل عنه عبئا ثقيلا ، وفى يناير سنة ١٨٤٧ تألف المجلس الخصوصى برئاسة ابراهيم باشا للنظر فى شؤون الحكومة الكبرى وسنّ اللوائح والقوانين و إصدار التعليمات لجميع مصالح الحكومة ، وفى ابريل سنة ١٨٤٨ تولى ابراهيم باشا حكم مصر ، واستمر واليا حتى وفاته فى ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨
Cattaui: Le Règne de Mohamed Ali, T. I, p. 355. — Crabitès Ibrahim of Egypt , pp. 5 – 7, 122 - 123.
عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية (الطبعة الأولى) ج ٣ ص ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٦ ، ٥٧٩ ، ٦٢٤ — ٦٣١

وجهود ابراهيم باشا الاقتصادية فى مصر معظمها فى الزراعة، فقد كان شديد العناية بها شعاره فيها كلمة مأثورة عن مراد بك زعيم المماليك وهى : " إذا طلبت الذهب فى مصر فانبش أرضها "(١) و يقرر هامون أن " ابراهيم باشا ينكبّ على الاقتصاد الزراعى، و يعكف عليه بسرور، و يمكن القول قطعا بأنه يحب الزراعة"(٢) ولا غرابة فى ذلك، فقد لمس ابراهيم باشا بنفسه — وهو لا يزال فى مقتبل العمر — أهمية الزراعة المصرية فى الحياة الاقتصادية عندما كان «دفتردارا» ثم حاكما على الصعيد .

وقد اهتم ابراهيم باشا بعوامل الإنتاج الزراعى : وهى الأرض والعمل ورأس المال، والمقصود بالأرض تلك العناصر التى يقدمها الينا الوسط الذى نعيش فيه من أرض وماء وهواء وضوء وحرارة، و يقصد بالعمل كل مجهود اقتصادى للانسان . سواء كان باليد أو العقل، أما رأس المال فهو كل ثروة سابقة ما عدا الأرض يعتمد عليها الانسان فى إنتاج ثروة أخرى .

ففى العامل الأول ساهم ابراهيم باشا فى الانقلاب الذى أحدثه والده فى حيازة الأراضى الزراعية، إذ قام بتنفيذه فى الصعيد، وذلك أن محمد على أخذ فى تغيير نظام الحيازة حتى أصبحت الأراضى الزراعية فى يده، واستطاع بذلك تنفيذ نظامه الاقتصادى، ولا شك فى أن رغبته فى زيادة موارده المالية وفى بسط نفوذ الحكومة كانت من أهم أسباب ذلك الانقلاب إذ كان فى احتياج دائم الى المال منذ توليته، فلما وجد أن نظام الالتزام حجر عثرة فى طريقه، وأن أراضى الرزق معفاة من الضرائب صمم على فك الالتزام ووضع يده على الرزق حتى

(١) ادوار جوان : مصر فى القرن التاسع عشر (ترجمة) ص ٧٩٠

(٢) Hamont: L'Egypte sous Méhémet Ali (Paris, 1843), T. I, p.186.

تزداد موارده المـالية و يتمكن من تنفيـذ إصلاحاته وتقوية نفوذه و بسط سلطته ومحاربة أعدائه[١] .

ساهم ابراهيم باشا فى ذلك الانقلاب باستيلائه فى سـنة ١٨١٢ — بنـاء على أمر والده — على معظم أراضى الالتزام فى الصعيد ، وبخاصـة حصص الالتزام التى كانت فى حوزة المماليك والتى استولوا على بعضها بعـد نزوحهم الى الصعيد ، وبذلك لم يبق من أراضى الالتزام بالوجه القبلى إلا النزر اليسير[٢] .

وفى نفس السنة أمر محمد على ابنه ابراهيم بالاستيلاء على أطيان الرزق المرصدة على المساجد والخيرات بالصعيد فنفذ الأمر ومسح الأراضى ، ولم تنته السنة التالية إلا وكان ابراهيم قد أخذ للحكومة معظم أطيان الرزق بالصعيد المرصدة على المساجد وعلى الأهالى والخيرات وعلى البر والصدقة[٣] .

كذلك اسـتولى ابراهيم باشا على ما فى الصعيد من الأطيان الأميرية المعروفة باسم اطلاق ، والتى كانت معـدّة لتموين خيل البكوات المـاليك بالعلف ، وذلك بعد القضاء على سلطة المماليك فى سنة ١٨١١[٤] .

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ج ٤ ص ١٩٦ (حوادث سنة ١٢٢٨)

نظام الالتزام هو أن يلتزم شخص ما للحكومة بدفع ضرائب الأطيان على أن يترك أرض الفـلاحة للفلاحين يزرعونها نظير دفع الضرائب عنها له و يستولى على أرض الوسية يستغلها لحسابه الخاص .

أطيان الرزق بعضها ملك ينتقل بالميراث و يتصرف فيـه أصحابه كيفما شاءوا وأكثرها أوقاف أهليـة وأوقاف على مكة والمدينة وعلى المساجد والأضرحة ، وعلى أعمال البر والصدقة والإحسان من مستشفيات وأربطة (تكايا) وسبل لسقى الناس وأحواض لسقى الدواب ومقارئ لتلاوة القرآن و بعض طلبة العلم والفقراء .

(٢) الجبرتى ج ٤ ص ١٦٤ (حوادث سنة ١٢٢٧) Reybaud et autres: Histoire de l'Expédition Française, Vol. 9. p. 407.

(٣) الجبرتى ج ٤ ص ١٦٤ و ١٩٦ (حوادث سنة ١٢٢٧ وسنة ١٢٢٨) .

(٤) الجبرتى ج ٤ ص ١٩٦ (حوادث سـنة ١٢٢٨) Estève: Mémoire sur les Finances de l'Egypte. (Description de l'Egypte, T. 12. p. 51) — Reybaud et autres: Op. cit. Vol. 9. p. 407.

وفى سنة ١٨١٣ عين ابراهيم مأمورا لمساحة القطر المصرى وشرع المساحون فى العمل بمباشرة محمود بك الدويدار والمعلم غالى وفى مايو سنة ١٨١٤ ظهرت نتيجة المساحة بعد صدور الأمر فى فبراير من تلك السنة بفك الالتزام (١) فكانت تلك المساحة ناسخة لنظام حيازة الأطيان الذى كان قائما فى مصر من قبل ونهاية لذلك الانقلاب الذى قام به محمد على منذ سنة ١٨٠٨ .

وتبعا لتلك المساحة التى كانت تحت إمرة ابراهيم أخذت الحكومة ما زاد فى قياس أطيان الالتزام سواء كان من أرض الفلاحة أو أرض الوسية وأعطت الملتزمين إيرادا سنويا يعرف باسم الفايض يستمر طول حياتهم تعويضا لهم عن أخذ حصص التزامهم كما منحتهم أطيان الوسية طول حياتهم إن شاءوا زرعوها وإن شاءوا أجروها وأعفت تلك الأطيان من الضرائب ومنحت أصحابها حق التنازل والهبة وصرحت لهم ببيعها للحكومة فقط (٢) .

وبذلك تم استيلاء محمد على على أراضى الالتزام ولم يخرج عمله هذا عن الأشياء المشروعة حيث كانت ملكية الأرض للحاكم ولم يكن الملتزمون مالكين الأرض بل وساطة بين الحكومة والفلاح لجمع الضرائب وكان رفع أيديهم عن التصرف مدعاة إلى تحصيل الضرائب على الوجه الأكمل وإخراجا للفلاح مما كان فيه من ظلم بعض الملتزمين الأقوياء وجشعهم ولقد شعر الفلاحون أنفسهم بهذا

---

(١) أمين سامى : تقويم النيل ج ٢ ص ٢٤٤ — الجبرتى ج ٤ ص ٢١٧ و ٢١٩ و ٢٢٢ و ٢٢٥ (حوادث صفر وربيع الأول وربيع الثانى وجمادى الأولى ورجب سنة ١٢٢٩) .

(٢) دفتر مجموع ترتيبات ووظائف ص ٢٥٣ (افادة من الروزنامه الى مجلس الأحكام فى ٢٦ ربيع الأول سنة ١٢٨٠) — الجبرتى ج ٤ ص ٢٢٢ (حوادث جمادى الأولى سنة ١٢٢٩) .

Mengin : Histoire de l'Egypte sous le gouvernement de Mohamed .Ali, T. II. p. 339.

الانقلاب فبعد أن كانوا مع الملتزمين أذل من العبيد صاروا يواجهونهم بقولهم: " أنتم إيش بقالكم فى البلاد قد انقضت أيامكم إحنا صرنا فلاحين الباشا"(١) .

هذا هو موقف الفلاحين الذين لم يقوموا بأية حركة ضدّ الانقلاب بل تقبلوه بقبول حسن نظرا لخروجهم من حالة الذل والظلم فقد " كانوا مع الملتزمين أذل من العبيد المشترى فربما أن العبد يهرب من سيده إذا كلفه فوق طاقته أو أهانه بالضرب وأما الفلاح فلا يمكنه ولا يسهل به أن يترك وطنه وأولاده وعياله ويهرب وإذا هرب إلى بلدة أخرى واستعلم أستاذه مكانه أحضره قهرا وازداد ذلا ومقتا وإهانة وكان من طرائفهم أنه إذا آن وقت الحصاد والتخضير طلب الملتزم أو قائم مقامه الفلاحين فينادى عليهم الغفير أمس اليوم المطلوبين فى صبحه بالتبكير إلى شغل الملتزم فمن تخلف لعذر أحضره الغفير أو المشدّ وسحبه من شنبه وأشبعه سبا وشتما وضربا وهو المسمى عندهم بالعونة والسخرة واعتادوا على ذلك بل يرونه من اللازم الواجب وهذا خلاف ما يلقونه من الإذلال والتحكم من مشايخهم والشاهد والنصرانى الصراف وهو العمدة والعهدة خصوصا عند قبض المال فيغالطهم ويناكرهم وهم له أطوع من أستاذهم وأمره نافذ فيهم فيأمر قائمقام بحبس من شاء أو ضربه محتجا عليهم ببواقى لا يدفعها وإذا غلق أحدهم ما عليه من المال الذى وجب عليه فى قائمة المصروف وطلب من المعلم ورده وهى ورقة الغلاق وعده لوقت آخر حتى يحرّر حسابه فلا يقدر الفلاح على مراددته خوفا منه فإذا سأله من بعد ذلك قال له بقى عليك حبتان من فدان أو خروبتان أو نحو ذلك ولا يعطيه ورقة الغلاق حتى يستوفى منه قدر المال أو يصانعه بالهدية والرشوة وغير ذلك أمور وأحكام خارجة عن إدراك البهيمة فضلا عن البشرية كالشكاوى ونحوها وذلك كما إذا تشاجر أحدهم مع آخر على أمر جزئى بادر أحدهم بالحضور الى الملتزم وتمثل بين يديه قائلا أشكو اليك فلانا بمائة ريال مثلا فبمجرّد قوله ذلك

(١) الجبرتى ج ٤ ص ٢٢١ (حوادث جمادى الأولى سنة ١٢٢٩) .

يأمر بكتابة ورقة خطابا إلى قائممقام أو المشايخ باحضار ذلك الرجل المشتكى واستخلاص القدر الذى ذكره الشاكى قليلا أو كثيرا أو حبسه وضربه حتى يدفع ذلك القدر ويرسل الورقة مع بعض أتباعه ويكتب بهامشها كراء طريقه قليلا أو كثيرا ويسمونه حق الطريق فعند وصوله أول شيء يطالب به الرجل حق الطريق ثم الشكوى فان بادر ودفعها وإلا حبس أو حضر به المعين الى بيت أستاذه فيوعده الحبس ويعاقبه بالضرب حتى يوفى القدر الذى تلفظ به الشاكى وإن تأخر عن حضوره أو حضور المعين أردفه بآخر وحق طريق الآخر كذلك ويسمونها الاستعجالة وغير ذلك أحكام وأمور غير معقولة المعنى قد ربوا عليها واعتادوها لا يرون فيها بأسا ولا عيبا ... ... وكذلك أشياخهم إذا لم يكن الملتزم ظالما يتمكنون هم أيضا من ظلم فلاحيهم لأنهم لم يحصل لهم رواج إلا بطلب الملتزم الزيادة والمغارم فيأخذون لأنفسهم فى ضمنها ما أحبوا وربما وزعوا خراج أطيانهم وزراعاتهم على الفلاحين . وقد انخرم هذا الترتيب بما حدث فى هذه الدولة من قياس الأراضى والفدن[(١)] " .

وقد أخذت الحكومة أيضا فى مساحة ١٨١٣ ما ظهر من الزيادة فى أطيان الرزق وقيدت ما بقى منها بعد ذلك باسم واضع اليد على الرزقة وواقفها وزارعها وقررت عليها المال مثل ضريبة البلدة فإن أثبتها صاحبها وكان عنده سند بها تقيد له فى الروزنامه معاشا سنويا يعرف باسم الفايض ومقداره يساوى نصف أجرة رزقته ولا يضاف للحكومة عند وفاة صاحبه وقد أخذ محمد على على عاتقه الأنفاق على المساجد والخيرات التى من أجلها أرصدت أطيان الرزق[(٢)] .

وعلى هذا كان محمد على بمثابة ناظر على أطيان الرزق الموقوفة وهذا مشروع كما أنه نظم أحوال الوقف بما يتفق مع مصلحة الوقف ومصلحة الدولة فأعطى معاشا

---

(١) الجبرتى ج ٤ ص ٢٢١ — ٢٢٢

(٢) دفتر مجموع ترتيبات ووظائف ص ٢٥٢ (افادة من الروزنامه إلى مجلس الأحكام فى ٢٦ ربيع الأول سنة ١٢٨٠) — الجبرتى ج ٤ ص ٢٢٣ (حوادث جمادى الأول سنة ١٢٢٩) .

من كانت تلك الأطيان فى حوزتهم وأخذ على عاتقه الإنفاق على المساجد والخيرات تنفيذا لأغراض الوقف وأفاد الحكومة بفرض الأموال الأميرية على تلك الأطيان وبإدارتها من الوجهة الزراعيـة كبقية أراضى القطر وعلى هـذا فإن محمد على لم يلغ أطيان الأوقاف بل أدخل عليها تعديلات تتفق مع نظامه الاقتصادى .

وتبعا لمساحة ١٨١٣ وزعت أطيان كل ناحية بين أهاليها القادرين على الزراعة وفرضت عليها الضريبة على حسب جودتها وأعطى مشايخ البلاد جزءا من الأراضى بنسبة خمسـة أفدنة من كل مائة فدّان معفى من الضرائب مقابل خدمتهم للحكومة وضـيافة الواردين على القرية وعرفت تلك الأطيـان باسم مسـموح المشـايخ والمصاطب (١) .

هكذا تم الانقلاب فى حيازة الأطيان ذلك الانقلاب الذى ساهم فيه إبراهيم باشا فنفذه فى الصعيد حيث كان حاكما وأشرف على مرحلته الأساسـية إذ كان مأمورا لمساحة ١٨١٣

هذا وقد أنعم محمد على على نفسه وعلى أفراد أسرته بأطيان واسعة من الأبعادية والمعمور رزقة بلا مال صارت ملكا مطلقا لهم فى فبراير سنة ١٨٤٢ يتصرفون فيها كيف يشاءون على الوجه الشرعى بدون قيد ولا شرط وعرفت تلك الأطيان باسم الجفالك ونتج عن ذلك إصلاح مقدار كبير من أطيان الأبعادية وزراعتـه فزادت بذلك الثروة الزراعية وقـد اتسعت مساحة الجفالك بضم مقدار كبير من الأطيان

---

(١) دفتر ١٨٨٩ أوامر رقم ١ (أمر فى ٢٤ المحرم سـنة ١٢٧٤) — دفتر مجمـوع نظام زراعة ص ١٥٨ (لائحة ٧ ربيع الأول سـنة ١٢٥٣) — دفتر ٧٣٦ ديوان خديوى تركى رقم ١٠٨ (قرار المجلس فى ٤ ذى الحجـة سنة ١١٤٢) — الجبرتى ج ٤ ص ٢٢٢ و ٣٣٢ (حوادث جمادى الأولى سنة ١٢٢٩ وحوادث سنة ١٢٣٥) — أرتين : الأحكام المرعية فى شأن الأراضى المصرية (ترجمة) ص ٤٧

إليها وذلك أن محمد على أضاف إليهـا أطيان بعض القرى العاجزة عن دفع ما عليها من الضرائب المتأخرة والمـال وأعفاها من المـال وكانت الروزنامة تعطى صاحب الجفالك تقسيطا باسمه يثبت إعطاء الأطيان له رزقة بلا مال (١) .

وتبعا لذلك امتلك إبراهيم باشا أطيانا واسـعة فكانت جفالكه كثيرة العـدد (٢) و بذا ساهم فى زيادة الإنتاج الزراعى والثروة القومية .

وقد اعتنى إبراهيم باشا بالرى فى جفالكه لمـا له من أهميـة كبرى فى الإنتاج فأدخل وابور الميـاه فى مصر لرفع المـاء اللازم لزراعاته و يدار ذلك الوابور بالبخار (٣) وقد اقتـدى به فى ذلك بعض الأغنياء حتى أن كبار الزارعين فى الوجه القبـلى ممن فى حوزتهم أطيان كثيرة استعملوا وابور المياه فى زراعاتهم حوالى سنة ١٨٥٢ (٤)

هـذا ما عمله إبراهيم باشا فى العامل الأول للإنتاج وهو الأرض أما فى العامل الثـانى وهو العمل فقد اهتم منـذ البدء بالقائمين به وهم الفلاحون إذ وضـع حدا لاستبداد المشايخ فى الوجه القبلى عندما كان حاكما عليه وكان هؤلاء المشايخ يسيرون بين الناس بالظلم قضاء لمطامعهم وغاياتهم كما دافع عن حقوق الفلاحين فى الصعيد بما أوجب شكرهم له وحبهم إياه (٥) .

(١) تقاسيط الجفالك باسم محمد على وأفراد أسرته بدار المحفوظات العمومية — دفتر ٥٦ معية تركى رقم ٢٨ و ٢٠٠ (أمر فى ٢٥ ذى الحجة سـنة ١٢٤٩ وأمر فى ٢٩ ربيع الأول سنة ١٢٥٠) — دفتر جفالك نبروه والنجرية وبشبيش وطنبارة وبسنديلة بدار المحفوظات العمومية (أمر فى ١٤ ربيع الثـانى سنة ١٢٥٧) — دفتر مجموع ترتيبات ووظائف ص ٢٤٥ و٢٤٦ (فرمان عالى فى ٥ المحرم سنة ١٢٥٨) .
أطيان الأبعادية هى التى لم تدخل فى مساحة ١٨١٣ لكونها بورا خالية من الزرع إذ ذاك بخلاف المعمور .

(٢) Hamont: Op. Cit. T. I, p. 82.

(٣) St. John: Village life in Egypt. Vol. I, p. 62.

(٤) Bellefonds: Mémoires sur les Principaux Travaux D'Utilité Publique, p. 548.

(٥) أدوار جوان : مصر فى القرن التاسع عشر (ترجمة) ص ٥٩٣

وعندما كان إبراهيم باشا يزور أوربا فى سنة ١٨٤٥ كتب إلى والده يقول : إن أفضلية الحضارة الأفرنكية راجعة إلى أن الطبقات الفقيرة أحسن حالًا[١] ويدل قوله هـذا على موقفه من الفلاحين ورغبته فى إصلاح حالهم وهم يكونون معظم الطبقة الفقيرة فى مصر .

وفى عهد ولايته على مصر من ابريل سنة١٨٤٨ إلى ١٠ نوفمبر من نفس السنة قامت الحكومة بحماية الفلاحين من ظلم المتعهدين وذلك أن محمد على كان قد أنشأ من قبـل نظام العُهَد فى بعض القرى التى عليها ضرائب متأخرة تعـرف باسم البقايا وبها أطيان متروكة بدون زراعة وتبعا لذلك النظام كان المتعهد يلتزم للحكومة بدفع ما على القرية من الأموال الأميرية والبقايا ويترك للأهالى أطيانا على حسب قدرتهم يزرعونهـا ويدفعون له ما يخصها من الأمـوال والبقايا أما هـو فيزرع ما بقى من الأطيان لحسابه الخاص بواسطة الفلاحين غير المقتدرين مقابل إعطائهم أجرا على العمل فى زراعتـه بشرط أن تترك للأهالى أطيانهم تدريجيا كلمـا تحسنت حالتهم المـالية حتى إذا عم التحسن جميع الأهالى أعيدت إليهم أطيانهم نهائيًا[٢] ، وعلى حسب تقسـيم الأطيان بين المتعهد والأهالى فى أول الأمر كان كل من الطرفين يزرع أطيانه ويدفع أموالها الأمـيرية وما يخصها من البقايا فإذا عجز بعض الأهالى عن زراعة أطيانه أو عن دفع ما عليها من ضرائب وبقـايا ترك بعضها أو جميعها للمتعهد وكذلك إذا أصـبح بعض الأهالى مقتـدرا وطلب أطيـانا من المتعهد أعطاها له وفى الحالتين يضاف على من يأخذ الأطيان بعـد التقسيم الأول ما يخصها من البقايا التى دفعها الطرف الآخر[٣] .

---

(١) Paton: A History of the Egyptian Revolution, Vo. II, p. 239.

(٢) دفتر ٨٥ معية تركى رقم ١٧٢ (إرادة إلى مفتش عموم الحسابات المصرية فى ٢٢ ذى الحجـة سنة ١٢٥٢) — دفتر ٦ رقم ٧١ (أمر إلى حسن بك مدير القليوبية فى ٥ ذى القعدة سنة ١٢٥١) .

(٣) الوقائع المصرية عدد ٢٦ ذى القعدة سنة ١٢٦٤

ولكن بعض المتعهدين ظلم الفلاحين فأعطاهم القمح وغيره من الحبوب مقابل أجرتهم بثمن أعلى من سعر السوق وألزمهم شراء القمح التالف بسعر الأردب خمسين أو ستين قرشا مع أنه لا يساوى عشرين قرشا فما كان من حكومة ابراهيم باشا إلا أن أجبرت هؤلاء المتعهدين على دفع الفرق بين السعر الذى أخذ به الفلاح الحبوب والسعر المتداول فى الأسواق عند صرفها له كما قررت أن يكون سعر الحبوب التى تعطى فيما بعد الفلاح نظير أجره موافقا للسعر المتداول فى السوق وقت الصرف [1].

كذلك وزع بعض المتعهدين البقايا على أطيان الفلاحين ولم يفرضوا على الأطيان التى زرعوها لحسابهم الخاص نصيبها من تلك البقايا فصار الفلاحون بذلك مكلفين بمال أطيانهم وجميع البقايا التى على القرية وفى هذا ظلم للفلاحين ونقض صريح لشروط العهد ولذا تدخلت حكومة ابراهيم باشا لحماية الفلاحين فأمرت المديرين بمراجعة دفاتر هؤلاء المتعهدين وإضافة نصيب أطيانهم من البقايا عليهم مع خصمه مما على الأهالى كما أوجبت على المتعهدين التدقيق فى توزيع البقايا بالتساوى على أطيانهم وأطيان الأهالى على أساس الفدان وحذرتهم من مخالفة ذلك وقررت عقاب من يقترف منهم فيما بعد مثل تلك المظالم فى توزيع البقايا على أطيان القرية [2].

كذلك حمى ابراهيم باشا الفلاحين من أنفسهم وذلك أنهم لجأوا إلى تشويه أعضاء أولادهم منعا لذهابهم إلى الخدمة العسكرية فى الجيش والأسطول وقد سرت تلك الروح فى الشبان حتى تحملوا عن طيب خاطر إتلاف أعضائهم ما دام ذلك موجبا لبقائهم بين أسرهم بعيدين عن شبح الجندية التى لم يتعودوها من قبل ولا شك فى أن إتلاف الأعضاء من سمل الأعين وبتر أصابع الأيدى والأرجل

---

(١) دفتر مجموع أمور إدارة وإجراءات ص ٨٧ (قرار عليه أمر فى غاية جمادى الآخرة سنة ١٢٦٤)

(٢) الوقائع المصرية عدد ٢٦ ذى القعدة سنة ١٢٦٤ — دفتر مجموع إدارة وإجراءات ص ٨٧ — ٨٨ (قرار المجلس العمومى وعليه إرادة فى ١٤ ذى القعدة سنة ١٢٦٤).

وإسقاط الأسنان أنقص من كفايتهم فى العمل[1] فأثر ذلك أثرا سيئا فى الزراعة ولذا اتخذ محمد على عدّة إجراءات ضد إتلاف الأعضاء حتى أن ذلك العمل قلّ ولكنه لم ينقطع فلما تولى ابراهيم باشا حكم مصر ورأى استمرار قطع أصابع الأيدى قرر فى يونيه سنة ١٨٤٨ نفى من يقطعون أصابع أيديهم مؤبدا الى جبل ددل بالسودان للعمل فى أشغال المعدن إن كانوا بالغين فان كانوا دون البلوغ ينفى بدلهم من تسبب من أهاليهم فى قطع أصابعهم[٢] .

ورغبة فى المحافظة على صحة الفلاحين وغيرهم من المصريين حرّم محمد على زراعة الحشيش فى مصر منذ أوائل سنة ١٨٣٨ تبعا لمنع استعماله لما له من آثار سيئة فى صحة الأهلين وعلى الرغم من ذلك ومن معاقبة من يتجاسر على زراعته عاود الناس زراعته خفية بعد مدّة يسيرة وأخذوا يستعملونه من جديد. ولذا اتخذ ابراهيم باشا فى يونيه سنة ١٨٤٨ تدابير حاسمة لمنع زراعته وبيعه منعا باتا وذلك بتشديد الرقابة على زراعته وفرض غرامة على من يزرعه مقدارها خمسمائة قرش تعطى من يخبر عنه فضلا عن قلعه من الأرض[٣] .

هذا وكان الفلاحون فى چفالك ابراهيم باشا أحسن حالا من زملائهم فى المزارع الأخرى إذ كانت أجرة الواحد منهم ٤٠ بارة يوميا يأخذ منها خبزا كل يوم بمقدار ٣٠ بارة والباقى يأخذه نقدا من وقت لآخر وفى مقدوره تربية بعض الحيوانات

---

(١) Bowring: Report on Egypt and Candia, pp. 13, 52, 196. Lane: An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians, p. 177.—Combes: Voyage en Egypte, En Nubie, Vol. I, p. 133.

(٢) دفتر مجموع أوامر جنائية ص ١٩٦ و ٢٠٢ (أمر فى ١٣ رجب سنة ١٢٦٤ وإفادة فى ١٨ رجب سنة ١٢٦٤) .

(٣) دفتر مجموع نظام زراعة ص ١٦٤ (الى مديرى الوجهين البحرى والقبلى فى ١٨ ذى القعدة سنة ١٢٥٣ — قرار المجلس العمومى فى ٥ رجب سنة ١٢٦٤) — دفتر ٤٥٢ ج ٤ معية تركى رقم ٦٦ (الى جميع الجهات فى ٢٢ رجب سنة ١٢٦٤) .

والدجاج فى الوقت الذى كانت فيه أجرة الرجل القوى الماهر فى الزراعة تتراوح بين ٢٠ بارة و ٣٠ بارة فى الصعيد وبين ٣٠ بارة و ٤٠ بارة فى الوجه البحرى [١]. وإليك ما جاء فى أمر محمد على الى مدير النصف الثانى للوجه القبلى : " اطلعت على التقرير المؤرخ فى ٩ شوال سنة ١٢٥١ الذى أرسلته ورأيت فيه أنك بحثت مع نظار الأقسام موضوع جلب العمال اللازمين لزرع قصب السكر المرتب زرعه فى أراضى نجلنا الباشا السرعسكر الكائنة فى مديريتك وأنهم تعهدوا بتقديمهم ورأوا من المناسب ترتيب عشرة قروش شهريا لكل منهم ... ... يامحرم أغا إن نجلنا السرعسكر رتب لكل من العمال المستخدمين فى أعماله الكائنة فى هذه الجهات أجرا يوميا قدره قرش واحد (أربعون بارة) وهذا يدل على أنه لم يطلب إليك أن ترتب لكل منهم عشرة قروش شهريا ويخيل إلىّ أن النظار هم الذين ظلموا الأهلين هذا الظلم وأنت أقررتهم عليه للزلفى والتظاهر بالإخلاص ... ... " [٢].

هكذا اهتم ابراهيم باشا بالأرض والعمل أما العامل الثالث للانتاج وهو رأس المال ويشمل المبانى المقامة على الأراضى وما تحتويه من الآلات الزراعية المستعملة فى الخدمة والحصاد وآلات الرى وحيوانات الزراعة والبذور والسماد [٣] فقد اهتم به أيضا ابراهيم باشا إذ أدخل فى چفالكه كثيرا من الآلات الزراعية

---

(١) Gliddon : A Memoir on the Cotton of Egypt, P. 26. — Hamont : Op. cit., T. I., p. 77.

القرش = ٤٠ بارة .

(٢) دفتر ٦٣ معية تركى رقم ٣٢٦ (من الجناب العالى الى مدير النصف الثانى للوجه القبلى فى ١٨ شوال سنة ١٢٥١) — تمتد مديرية النصف الثانى للوجه القبلى من وادى حلفا الى فرشوط .

(٣) جيد : مبادئ الاقتصاد السياسى ص ١٠٥ — ١٠٨، ١١٢

Carver: Principles of Rural Economics, pp. 204 — 207, 211 — Rew: A Prime of Agricultural Economics, pp. 64, 66, 73.

الحديثة التي كان الأهلون يجهلونها حتى ذلك الوقت[1] وأدخل من آلات الري وابور المياه الذى يدار بالبخار[2] كما كانت الحيوانات الزراعية فى چفالكة قوية معتنى بها[3] .

هذه هى جهود ابراهيم باشا فى عوامل الإنتاج الزراعى أما فى الثروة النباتية فقد بذل جهودا محمودة أفادت الزراعة المصرية فائدة جليلة فقد ساهم مساهمة قيمة فى أقلمة النباتات إذ أنشأ بجزيرة الروضة حديقة من قسمين أحدهما على النسق الإنجليزى والآخر على النمط الفرنسى ووكل أمرهما الى اثنين من مهرة الإخصائيين فى فلاحة البساتين هما : (تريل) الإنجليزى و (نقولا بوفيه) البلجيكى وجمع فى الحديقة أغلب النباتات الأوربية والأمريكية والهندية[4] وبذلك أصبحت الحديقة بقعة لأقلمة النباتات وإجراء التجارب الزراعية وإليك ما قاله هامون فى صدد ذلك : "أشار بعض المؤلفين الى النباتات الأجنبية التى جلبها ابن محمد على الى أرضه بجزيرة الروضة فهذه النباتات عددها كبير جدا وحديقة الأقلمة يمكن ذكرها كواحدة من أحسن الحدائق الموجودة ... وقد جلب ابراهيم باشا الى مصر النباتات الثمينة فى العالم المعروف وفى الهند خاصة[5]" ويقرر بورنج أن "حديقة ابراهيم باشا بجزيرة الروضة إحدى الحدائق المغرية ... وقد أجريت فى هذه الحديقة تجارب كثيرة مفيدة جدا ومهمة[6]" .

وقد تقدمت فلاحة البساتين فى مصر فى ذلك العهد ودخلت فى الحدائق المصرية أشجار ونباتات أجنبية كثيرة من جهات مختلفة وكان لإبراهيم باشا يد طولى

(١) Hamont: Op. cit. T. II, p. 305.

(٢) راجع ما ذكر عنه أثناء الكلام على الأرض .

(٣) Hamont: Op. cit., T. I, p. 77.

(٤) كلوت : لمحة عامة الى مصر (ترجمة) ج ١ ص٢٤٣ — دلشيفالرى : حدائق القاهرة ومتنزهاتها (ترجمة) ص ص ٦٦ و ٥٩ و ٩٥ Bowring: Op. cit. p. 26.

(٥) Hamont: Op. cit., T. I, p. 186.

(٦) Bowring: Op. cit., p. 26.

(٧) تريل (Traill) — نقولا بوفيه (Nicolas Bové) .

فى هـذا التقدم فقد طلب من حديقة النباتات بباريس أن ترسل إليـه إخصائيا فى فلاحة البساتين فأرسلت إليه (تقولا بوفيه) البلجيكى سنة ١٨٢٥ فأنشأ لإبراهيم باشا حديقة عظيمة لأقلمة النباتات الأجنبية فى جزيرة الروضة وأدخل فى أطيان ابراهيم باشا بجزيرة الروضة عددا كبيرا من الأشجار النافعة من الهنـد وبلاد العرب وقد سافر فى ديسمبر سنة ١٨٣٠ الى بلاد العرب لجلب نباتى الكاد (الشاى) والبن ورجع من رحلته هذه فى يونيه سنة ١٨٣١ ثم سافر ثانية فى أبريل من السنة نفسها الى بلاد العرب والشام للبحث عن نباتات جديدة لإدخالها فى حدائق ابراهيم باشا ورجع الى القاهرة سنة ١٨٣٢ (١)

وأيضا أرسـل ابراهيم باشا بستانيه الى بلاد الهنـد للبحث عن نباتات نافعة للزخرفة والزينة وقد زرع معظمها فى حدائق ابراهيم باشـا بالمنيل وجزيرة الروضة ومصر القديمة وبحديقة الوالى بشـبرا وحديقة القبة وحديقة سليمان باشا وحدائق أخرى كثيرة بالقاهرة والإسكندرية (٢) .

وكذلك أرسل ابراهيم باشـا الى جزيرة جميكا عمر أفندى الاخصائى فى صناعة السكر بعد رجوعه من بعثته فى أوربا فأحضر منها نوعا من القصب الأحمر (٣) .

ومن أهم النباتات الأجنبية العظيمة القيمة التى أدخلها ابراهيم باشا فى حدائقه الجوافة والبن وشجرة التيكا والبياز والقشطة وشجرة الصمغ المرن وشجرة كف مريم

---

(١) دلشيفالرى : حدائق القاهرة ومنتزهاتها ص ص ٥٨ — ٦٠ ، ٦٦ ، ٩٥
Delchevalerie: Calendrier Egyptien, p. 33.

(٢) Delchevalerie: Flore Exotique de Jardin d'acclimatation de Ghézireh et des Domaines de S. A. le Khédive, pp.14 — 15.

(٣) محفظة ٧٧٩ ديوان خديوى تركى (من الديوان الخديوى الى سامى بك فى ٢٩ ربيع الأول سنة ١٢٤٨) — Mazuel: Le Sucre en Egypte, p. 33.

وأم ألف ورقة والزنجبيل والصنوبر الهنـدى وشجرة كايبوت والخيزران والمـانجو وجوز الهند والفلفل الأسود والقرفة والشاى[١] وشجرة الأبنوس وشجر البقّم الهندى[٢] .

وقد ذكر دلشيفالرى النباتات الأجنبية التى أدخلها ابراهيم باشا فى حديقته بجزيرة الروضة فنجحت زراعتها واستمرت نامية حتى رآها بنفسه عندما كان فى خدمة الخديو اسماعيل فيما بين سنتى ١٨٦٨ و ١٨٧٨ وها نحن نلخصها فيما يلى :

١ — أشجار الأخشاب :

أبنوس الحبش وأبنوس الهند وخشب السرسوع من الهند وخشب المهجنو من سان دمنج وخشب الصندل الأبيض من الهنـد الشرقية والخشب الأملس من جزيرة موريس وخشب بليساندر من الهنـد والخشب الوردى من أمريكا الجنوبية وخشب التونة من اليتپول بالهند وخشب سندروس من أمريكا الجنوبية وخشب الكابلى من أمريكا الجنوبيـة وخشب مـورايا ايكزوتيكا من الصـين وخشب الاما يريس جونا نسيس من الجويانة وخشب الزيتـون من جزيرة موريس وخشب الصندل من جزيرة بوربون وخشب البقم من الهنـد الشرقية وشجرة تين الوثنيين المعروفة بين العامة بالجميز الافرنكى من الهند وشجرة التيك الهندية من الهند .

٢ — أشجار الفاكهـة :

المـانجو من الهند واللوز الهندى من الهند الشرقية والبكان من أمريكا والتمر الهندى من الهنـد والكوكا من السنغال والتبلدى من السودان والكاكى من اليابان والجوافة والقشطة والجمبوزا .

---

(١) أدخلت هـذه النباتات الأجنبية فى حدائق ابراهيم باشا منذ نشأتها سنة ١٨٣٠ الى أوائل سنة ١٨٣٨ Bowring : Op. cit, pp. 26 — 27 — Delchevalerie : Calendrier Egyptien, P. 33.

(٢) فيجرى : حسن البراعة فى علم الزراعة ج ٢ ص ص ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٣

٣ — أشجار الزينة :

(ا) من الهند : شجرة تفاح الفيل والازادرخت وميليا سمبر فيرنس واليسار وشجرة الجناجل وخف الجمل وشجرة المرجان الهندية .

(ب) من أمريكا الجنوبية : بيجنونيا سبيسيوزا والجهنمية وودن الفيل ودورانتا بلوميراى وبنت القنصل الحمراء والبيضاء وفلفل أبو ورق رفيع .

(ح) من اليابان والصين : الباسقة والغاب الافرنجى والرابص .

(د) من بلاد أخرى : نخل الرخام الهافانى من جزيرة كوبا واللاتانيا العادية من جزيرة بور بون والكادى من مدغشقر .

٤ — أشجار أخرى :

الكاد (الشاى) والبن من بلاد العرب ونخلة الدقيق من جزيرة سيلان وشجرة الدهن اليابانية والبوسيانوس من مدغشقر وشجرة الفيكوس تسيلا من الهند الشرقية وجزائر الفلبين وشجرة الصمغ المرن والفيكوس أبو لسان من جزيرة جاوه والفيكوس بوبوليفوليوم من الحبشة والفيكوس لوريفوليوم من أمريكا الجنوبية (١) .

هذا ويبين فيجوى فضل ابراهيم باشا ووالده فى أقلمة الأشجار الخشبية الأجنبية فى مصر حيث يقول : " إن اقليم وادى النيل والدلتا مناسبان لتعود عدة أشجار أجنبية يتحصل منها الخشب والذى يثبت ذلك ويحققه التجارب التى فعلت فى شأن ذلك جملة سنوات ببستان شبرا والمنيل ومصر العتيقة وأثر النبى وأكاف الاسكندرية أيام جنتمكان الحاج محمد على باشا ونجله جنتمكان ابراهيم باشا والى الآن يوجد

(١) دلشيفالرى : حدائق القاهرة ومتنزهاتها ص ٥٣ — ٩٩

بالبساتين المذكورة عدّة أشجار منها نجحت وتكاثرت بالبزور أو العقل المتحصلة منها وهذا يؤيد أنها تعودت على أهوية هذا القطر[١] ".

ومن سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٤٨ غرس ابراهيم باشا فى الحدائق والحقول كثيرا من الأشجار الأجنبية من توت وزيتون وبرتقال وأنواع أخرى فنجحت زراعتها وتأقلمت ومن بين تلك الأشجار التوت الأبيض المجلوب من الصين والتوت المنسوب الى الفلبين وكذلك البرتقال الدموى وهو نوع نادر إذ ذاك لون لحمه فى حمرة الدم وكان فى حدائق ابراهيم باشا مثل نظيره فى مالطة والبرتغال[٢] .

وقد أدخل ابراهيم باشا ووالده فى مصر زراعة أنواع العنب المعروفة فى أوربا وبلاد اليونان فنجحت بأجمعها تقريبا نجاحا باهرا واستخرج منها الأوربيون نبيذا جيد النوع فالنبيذ الأبيض كان مشابها لنبيذ مرسالا بجزيرة صقلية والنبيذ الأحمر كان مماثلا لنبيذ اسبانيا[٣]، وقد زرع ابراهيم باشا أصنافا كثيرة أجنبية من العنب فى بساتين المطرية والقبة فتحصل منها عنب جيد استخرج منه نبيذ كالذى يستخرج من هذه الأصناف فى بلادها الأصلية[٤] .

كذلك أدخل ابراهيم باشا زراعة الخضر الأجنبية مثل الهليون والشليك والبطاطا والبطاطس[٥] .

---

(١) فيجرى ج ٢ ص ٩٦ — جاء فيجرى الى مصر حوالى سنة ١٨٢٧ وكان أستاذ علم النبات بمدرسة الطب فى عهد محمد على ثم رئيس الصيادلة فى عهد اسماعيل وألف كتابه هذا فى أوائل عهد اسماعيل .

(٢) فيجرى ج ٢ ص ١٦ ، ١٧ ، ١٤٤ — كلوت ج ١ ص ٢٧٠ : Delchevalerie: Aperçu Général sur les Vegetaux Exotiques Naturalisés en Egypte, pp. 2, 13, 14, 53.

(٣) كلوت ج ١ ص ٢٧٢ .Bowring: Op. cit. p. 25

(٤) فيجرى ج ٢ ص ١٢٢

(٥) كرتوا جيرار : الروضة البهية فى زراعة الخضراوات المصرية (ترجمة) ص ٥

وبالاختصار أدخل ابراهيم باشا فى الزراعة المصرية جميع النباتات الأجنبية التى اعتقد أنه من المستطاع نجاحها فى مصر من فاكهة وخضر وأشجار نافعة وأشجار الزينة (١) .

وفضلا عن أقلمة النباتات الأجنبية اهتم ابراهيم باشا بزراعة الحاصلات المصرية حيث كان مزارعا عمليا من الدرجة الأولى فعنى عناية خاصة بزراعة القطن وحسن صفاته كثيرا (٢) .

كذلك أولى إبراهيم باشا زراعة القصب كثيرا من رعايته فكانت له مزارع من القصب فى الصعيد وبخاصة فى بلدة الروضة بلغ إنتاج الفدان منها سبعا وعشرين قنطارا ونصف قنطار من السكر فضلا عن العسل والمكسب الصافى من الفدان ٣٢ جنيها استرلينيا (٣) .

وبلغ من رغبة إبراهيم باشا فى توسيع مزارعه من القصب أن طلب من والده أن يمنحه ألف فدان من أطيان الابعادية فى مديرية النصف الأول من الوجه القبلى (جرجا وأسيوط) لزراعتها قصبا لحسابه الخاص فوافق والده على ذلك وأمر بإعطائه ذلك المقدار من الأطيان من أحسن أطيان الابعادية بالبلاد التى عينها فى طلبه (٤) .

كذلك أرسل إبراهيم باشا بعض الأشخاص إلى الوجه القبلى للبحث له — بدلالة أناس من أصحاب الخبرة — عن أطيان تصلح لزراعة القصب (٥) .

---

(١) داشيفالرى : حدائق القاهرة ومتنزهاتها ص ٦٧

(٢) Charles — Roux; La Produciion du Coton en Egypte, p. 82. Crabitès: Ibrahim of Egypt, p. 124.

(٣) Bowring: Op. cit., pp. 21 — 23 — Taylor: Journey to Central Africa., p. 104.

(٤) دفتر أوامر عربى أمر رقم ٨٣ (أمر إلى مدير نصف أول قبلى حسين أغا فى ١٩ شوال سنة ١٢٥٠) .

(٥) دفتر ٦٢ معية تركى رقم ٥٠٩ (من المعية السنية إلى باقى بك فى ٩ ذى الحجة سنة ١٢٥٠) .

وقد عمل إبراهيم باشا على تكثير أشجار الزيتون فغرس أشجارا كثيرة منها نجحت نجاحا حسنا وأثمرت ثمارا جيدة (١) حتى أن فيجرى قرر أن " تكاثر شجر الزيتون بالقطر المصرى أحدث فى ولاية جنتمكان الحاج محمد على باشا ونجله جنتمكان إبراهيم باشا (٢) " .

كذلك أمر إبراهيم باشا بغرس مئات من أشجار خيار شنبر (٣) كما زرع آلافا من أشجار اللبخ فى مصر السفلى وغرس (٤) أشجار التوت فى مئات كثيرة من الأفدنة (٥) .

وقد اهتم إبراهيم باشا بغرس الأشجار سواء كانت من أشجار الغابات أو أشجار الفاكهة وأنفق الأموال الكثيرة على إنشاء المزارع والمغارس فى أرجاء البلاد المصرية فغرس حتى سنة ١٨٣٥ لحسابه الخاص ٥,٠٠١,٥٣٤ شجرة من ٢٥ نوعا من أنواع أشجار الغابات و ٥٨٦,٢١٤ شجرة من ٤١ نوعا من أنواع الفاكهة تنقسم إلى ٧٣٤ صنفا مختلفا (٦) . وكان عدد أنواع الأشجار الخاصة بالقطر المصرى قبل ذلك لا يتجاوز ١٢ نوعا كما كان لا يوجد من الشجيرات التى لا يتجاوز ارتفاعها القدمين سوى ١٨ نوعا وكانت هذه الأشجار والشجيرات بأنواعها المذكورة متفردة على ضفاف النيل أو مبعثرة هنا وهناك حول السواقى (٧) .

وفضلا عن أقلمة النباتات الأجنبية والعناية بزراعة الحاصلات المصرية اهتم إبراهيم باشا بالدعاية الزراعيــة فى مدة ولايته على مصر فقــد رأى أن ينشئ صحيفة

---

(١) Bowring: Op. cit., p. 24.

(٢) فيجرى ج ٢ ص ١٢٥ .

(٣) Crabitès: Op. cit., p. 124. — شجرة خيار شنبر من النباتات الطبية وتستعمل ثمارها فى الشئون الطبية .

(٤) دلشيفالرى : حدائق القاهرة ومتنزهاتها ص ٩٣ .

(٥) Bowring: Op. cit., p. 21.

(٦) Marmont: Voyage du Maréchal duc de Raguse, T. 3. p. 349.

(٧) كلوت ج ١ ص ٢٤٠ — ٢٤١ .

أسبوعية باللغة العربية تشتمل على أخبار التجارة والزراعة والإعلانات الملكية تنشر على جميع البلاد والقرى زيادة على الوقائع المصرية ليعلم أرباب التجارة والزراعة منها رواجهما ومحسناتهما وقد عملت لائحة ببيان الإفادات والكشوف والإعلانات الواجب إرسالها فى كل أسبوع إلى ديوان المدارس بالأخبار المذكورة وحررت أوّل نسخة من هذه الصحيفة وطبعت ونشرت على المديريات فى الأسبوع الأوّل من ذى الحجة سنة ١٢٦٤ هـ (١٨٤٨ م)(١) ولا نعلم من أمر تلك الصحيفة شيئا بعد ذلك ولعلها ألغيت بعد وفاة منشئها فى الأسبوع التالى لصدورها ولا شك فى أن تلك الصحيفة لو قيض لها الاستمرار لأدّت خدمات جليلة للزراعة والتجارة .

هكذا كانت جهود إبراهيم باشا فى الثروة النباتية أما فى الثروة الحيوانية فقد ساهم أيضا فى تقدمها وزيادتها وذلك أنه عندما فتح بلاد العرب أخذت مصر تجلب منها الخيل النجدية وهى أولى أنواع الخيل وأجملها وأسرعها فاتخذ منها المصريون والأتراك فى مصر فحولا للنزو على أفراسهم إذ أن الفحل النجدى ينجب نتاجا ممتازا كما استخدمها الوجهاء والأعيان للركوب أو للإنتاج والتناسل(٢) .

كذلك عندما فتح إبراهيم باشا الشام أرسل منها بعض مئات من الأفراس إلى قرى الوجهين البحرى والقبلى فأعطيت للأتراك لتربيتها من أجل التناسل وتكاثر النوع(٣)، والخيل الشامية عدة أنواع أحسنها العنيزى نسبة إلى قبيلة عنيزة وله مكانة عظيمة ويعتبره الشرقيون والأوربيون أوّل خيول العالم بعد النجدى ولذا استخدم فى مصر لركوب العظماء أو للإنتاج وفى كلتا الحالتين كان مفيدا جدا وقد تفوّق الحصان العنيزى على الحصان المصرى تفوّقا عظيما كما أن نتاجه كانت له قيمة كبيرة(٤) .

(١) الوقائع المصرية عدد ١٢ ذى القعدة سنة ١٢٦٤ وعدد ٣ ذى الحجة سنة ١٢٦٤ .

(٢) Hamont: Op. cit., T. I, pp. 529, 531 — 536.

(٣) Hamont: Op. cit. T. II. p. 237.

(٤) Hamont: Op. cit. T. I, pp. 529 — 531.

وقـد أنشأ إبراهيم باشا اصطبلا لتربية الخيل لحسابه الخاص يقع على ضفاف النيـل بالقرب من قصره عند القصر العينى وكان به ٤٠٠ رأس من الخيول منهـا بعض الأفـراس والفحول المصرية وكثير من الفحول العنـيزية التى تلى النجدية فى المرتبة أما أكثر الأفراس والفحول فنجدية أخذها إبراهيم باشا من بلاد العرب عندما فتحها، وكان الاصطبل فى أول الأمر على النظام المتبع إذ ذاك فى مصر فلما وقف إبراهيم باشا على حالة اصطبل شبرا الجديد الذى أنشأه والده حوالى سنه ١٨٣٧ بإشراف (هامون) ناظر مدرسة الطب البيطرى استشار (هامون) فقدّم هـذا إليه تقريرا بالإصلاحات اللازمة غير أن إبراهيم باشا ترك له الحرية فى العمل كما يرى فقام بالإصلاحات بمساعدة رجل فرنسى فى خدمة إبراهيم باشا فعدّلت أحوال الاصطبل ونظـامه وأنشئت حظائر يطلق فيهـا سراح الأمهار أثناء النهـار وأعطيت إدارة الاصطبل لطبيب بيطرى مصرى يراقبه (هامون)[١] .

وقد اعتنى إبراهيم باشا بالحيوانات الزراعية فى جفالكه فكانت قوية كما خصص بعض الأبقار والجاموس فى عزبه للذبح لاستهلاك الأوربيين فى القاهرة[٢] .

كذلك ساهم إبراهيم باشا فى تربية دود القز فغرس أشجار التوت فى مئات كثيرة من الأفدنة لتوفير الطعام اللازم للدود[٣] وكانت مصر تزرع التوت البلدى والشامى من قبـل فجلبت نوعين آخرين هما التوت الأبيض من الصين والتوت المنسوب إلى الفلبين والنوع الأخير أوراقه كبيرة محدّبة مدوّرة تنبت قبـل أوراق التوت المعتاد وتستعمل غذاء لدود القز الصغير الذى يخرج من بيضه قبل الأوان وفيما بعد تصير هذه الأوراق يابسة فتستعمل غذاء للحيوانات الكبيرة وبخاصة الخيل والضأن والمعز

---

(١) Hamont: Op. cit., T. I, 530, T. II, pp. 234, 236.

(٢) Hamont: Op. cit., T. I, pp. 77, 336.

(٣) Bowring: Op. cit., p. 21.

وقد عرف هذا النوع من التوت فى مصر باسم البكير وقد زرعه إبراهيم باشا كما زرع التوت المجلوب من الصين فضلا عن التوت البلدى والتوت الشامى (١) .

كذلك حاول إبراهيم باشا أقلمة دودة الصباغة فزرع فى بستان المنيل النبات الذى تعيش عليه وهو نوع أجنبى من التين الشوكى وجلب حشرات تلك الدودة فتكاثرت تكاثرا عظيما على نحو أربعة أشجار من التين الشوكى الخاص بتربية هذه الحشرات لكن هذه الأشجار اختنقت وماتت بسبب تراكم هذه الحشرات عليها وبذا لم تأت التجربة بنتيجة جيدة غير أن هذا ليس ناشئا عن عدم تعود هذه الحشرة على أهوية مصر بل عن نفاد الطعام وعدم تعود النبات الذى تعيش عليه (٢) .

هذه هى جهود إبراهيم باشا فى الزراعة أما فى الصناعة فقد اهتم بصناعة السكر تبعا لعنايته بزراعة القصب فأنشأ مصنعا يدار بالبخار لتكرير السكر بالقرب من فرشوط (٣) .

كذلك أدخل إبراهيم باشا صناعة الروم فى مناطق القصب التابعة له ولكن نوع الروم كان متوسطا فأرسل إلى جزيرة جميكا عمر افندى للوقوف على صناعة الروم هناك وادخال أحسن أساليب إنتاجه فى مصر وقد رجع هذا المبعوث بمعلومات أتاحت للباشا إقامة معمل لصناعة الروم يعمل على أحدث الأصول (٤) .

---

(١) فيجرى ج ٢ ص ١٦ — ١٧ ، ١٢٧ — ١٢٨ — كلوت ج ١ ص ٢٥٤ — ٢٥٥ — دفتر ٧٣١ ديوان خديوى تركى رقم ٧٧ (إلى زكى أفندى فى ٥ شوال سنة ١٢٤٠) — دفتر مصلحة الحرير ص ٣ (لائحة ترتيب زراعة أشجار التوت وتكثير محصول الحرير فى ذى الحجة سنة ١٢٤٧) .
Delchevalerie: Aperçu Général sur les Végétaux Exotiques; p. 53.

(٢) فيجرى ج ٢ ص ١٩ — تستخدم دودة الصباغة فى صبغ الطرابيش .
Hamont: Op. cit., T. I. pp. 186 — 187, T, II, P. 249.

(٣) Taylor: Journey to Central Africa, p. 104 — Pascal: La Cange, Voyage En Egypte, p. 147.

(٤) Bowring: Op. cit. p. 23. — Mazuel: Op. cit., p. 33.

أما عن جهود إبراهيم باشا فى التجارة فقد أصلح المحكمة التجارية وذلك عندما أمر بإخراج الأرائك من دارها ووضع بعض الكراسى ومنضدة بدلا عنها وتعيين كاتب خاص ليدون محاضر الجلسات (١) .

وقد أنشأ إبراهيم باشا صحيفة أسبوعية تشتمل على أخبار التجارة والزراعة وقد سبق الكلام عليها فى الزراعة .

هذا ويفضل إبراهيم باشا حرية التجارة على الرغم من أن الاحتكار كان أساس النظام الاقتصادى فى مصر فى عهد والده وأن الحكومة كانت تأخذ حاصلات معينة بالثمن الذى تحدده ، وكان إبراهيم باشا يعتقد أن نظام الاحتكار لا بد أن يؤدى إلى تدهور ثروة أى قطر وأن مثله كمثل قطع الشجرة الطيبة التى تبشر بثمر عظيم فى موسمها للحصول عاجلا على مقدار تافه من الفاكهة الفجة (٢) .

هذه هى جهود ابراهيم باشا الاقتصادية فى مصر أما فى الشام أثناء الحكم المصرى فقد عمل على تنمية موارد الثروة والحصول على إيراد للحكومة دون الأضرار بالاقتصاد القومى وأولى الزراعة جل عنايته واهتمامه لأنها الفرع الأساسى للاقتصاد الشامى فتقدمت تقدما عظيما (٣) .

وقد اهتم إبراهيم باشا بعوامل الإنتاج الزراعى فعمل على زيادة الأراضى الزراعية وذلك بأن أعطى الأطيان لأى شخص يريد زراعتها مع إعفائه من ضريبتها إن كانت فى حالة غير حسنة كما شجع الفلاحين على زراعة الأراضى وتعمير القرى المهجورة وأمنهم من غارات البدو عليهم تلك الغارات التى كانت فيما مضى تحملهم

(١) Cattaui: Le Règne de Mohamed Ali, T. I, p. 356. (Pezzoni à Heyden, 25 août, 1829.)

(٢) Yates: The Modern History and Condition of Egypt, (1843), Vol. II, p. 172.—Douin: La Mission du Baron de Boislecomte, p. 248.

(٣) Sabry: L'Empire Egyptien Sous Mohamed Ali et la Question d'Orient, pp. 351, 358, 366.

على ترك الأراضى وكذلك ألزم الموظفين التجار والأهالى الأغنياء إصلاح القرى الخربة وزراعة أطيانها وأنفق أموالا كثيرة فى المشروعات الزراعية مما أدى إلى تعمير قرى كثيرة كانت مهجورة من قبل والى زراعة أراضيها وأيضا اهتم ابراهيم باشا بزراعة الأطيان البور فأرغم الأهالى على زراعة الأراضى الصالحة وأنفق مبلغا كبيرا من المال فى مشروعات من هذا القبيل ليكون مثلا أعلى لغيره وألزم ضباط الجيش حتى رتبة بكباشى الإنفاق على مشروعات مماثلة لذلك وزرع لحسابه الخاص سهل انطاكية الفسيح وكان بورا وأيضا طهر النهر الصغير بين عنتاب وحلب مما جعله يأتى بكمية أكثر من المياه وقد زادت الأراضى الزراعية ٨٠,٠٠٠ فدان فى مدى سنتين فى سنة ١٨٣٦ وزاد إيجار الأطيان فى بعض الأماكن الى ثلاثة أمثال إيجارها من قبل (١) .

وأيضا اعتنى ابراهيم باشا بالعامل الثانى للانتاج الزراعى فاهتم بالفلاحين وعمل على ما فيه خيرهم فأمنهم من ظلم الحكام ونهب البدو واعتدائهم فصاروا سعداء ميسورين لعدم تعرضهم للجور الذى كانوا فيه من قبل ، وكذلك رغب ابراهيم باشا البدو فى ممارسة الزراعة وتعمير القرى المهجورة وأرغم بعض القبائل الرحالة على الإقامة فى سهل انطاكية لزراعته على حسابه الخاص ، وبذا تحول آلاف من البدو الى زراع (٢) .

كذلك اعتنى ابراهيم باشا بالعامل الثالث للانتاج فأنشأ البنك الزراعى وأقام صرافا فى كل من حلب واطنه ودمشق معه ٥,٠٠٠ جنيه لتسليف المال اللازم للزراع المحتاجين كما أعطى سلفيات من المال للفلاحين الذين قطنوا القرى المهجورة

---

(١) محمد كرد على : كتاب خطط الشام ج ٣ ص ٦٨ Dodwell: The Founder of Modern Egypt, p. 253 — Sabry: Op, cit., pp. 351 — 356, 367.

(٢) Dodwell: Op. cit., pp. 253 - 254 - Sabry: Op. cit, pp. 341 - 343, 351, 352, 354, 355, 358. — محمد كرد على : كتاب خطط الشام ج ٣ ص ٦٨

لإصلاح بيوتهم وتموينها وأعفاهم من الضرائب ثلاث سنين وقدم فى سنة ١٨٣٦ للفلاحين المساعدات الآتيـة : ٣٣٠,٤٠٠ قرشا و٤٤٧ شنبلا من القمح و ٢٠٧ شنابل من الشعير كما أنشأ فى السنة السابقـة ١,٧١٨ محراثا وأنفق أموالا كثيرة فى المشروعات الزراعية .

هذا عن عوامل الإنتاج أما عن الثروة النباتية فقد بذل ابراهيم باشا مافى وسعه لتحسين الزراعة وزيادة الإنتاج فأدخل فى الشام كثيرا من الخضر الجديدة وبخاصة البطاطس وجلب ١٤,٠٠٠ شجـرة من عنب بردو زرعها بالقرب من حلب وعمل على تكثير الزروع المختلفة فلم تنقص زراعة أى محصول بل بالعكس اتسعت زراعة الحبوب والخضر اتساعا كبيرا وصـارت من حاصلات التصـدير كما زاد محصول القطن وكثرت أشجـار التوت والزيتون والعنب حيث ألزم الفلاحون زراعة عدد كبير منها فى كل قرية كما زادت أشجار الخروع وأجريت التجارب فى زراعة القصب والنيلة وشجر البن وقطن مصر[2]، وكان ابراهيم باشا يفتش دائما على الأعمال الزراعية ويحرث الأرض بنفسه ليشجع الفلاحين وليضرب لهم المثل الأعلى ، كما كان يبذل أقصى جهده فى مقاومة الجراد حتى لايتلف الزرع وذلك بتكليف الأهالى والجنود القضاء على الجراد وقيامه بمباشرة العمل بنفسه وجمعه بعض الجراد بيديه تشجيعا للأهالى[3].

أما عن الثروة الحيوانية فقـد كان الحرير المحصول الرئيسى للشام وعماد ثروتها ينتج بالأخص فى مناطق صيدا و بيروت وجبل لبنان ودمشق وطرابلس واللاذقية

(١) محمد كرد على : كتاب خطط الشام ج ٣ ص ٦٩ — الشنبل = ٥٠ رطلا = ١٠٠ أقة شامية Sabry: Op. cit, pp. 351, 353.

(٢) سليمان أبو عز الدين : ابراهيم باشا فى سوريا ص ٣١٦ — ٣١٧, Sabry Op. cit., pp. 335, 353—355, 357, 360, 365.

(٣) محمـد كرد على : كتاب خطط الشـام ج ٣ ص ٦٩ Barker: Syria and Egypt under the last Five Sultans of Turkey, Vol. II, pp. 209—210—Sabry: Op. cit, p. 354.

وانطاكية تلك الأقاليم التى توجد بها مزارع واسعة من أشجار التوت زادت كثيراً أثناء الحكم المصرى، وقد تحسن نوع الحرير نتيجة لإدخال بيض دود القز من فرنسا وإيطاليا على يد باركر القنصل الانجليزى فى الشام الذى اتبع الطريقة الأوربية فى تربية دود القز فأثر ذلك البيض وتلك الطريقة فى تحسين الحرير عامة [١] .

كذلك ادخلت الأغنام الاسبانية فى ضواحى نابلس وأرسلت بعض الذكور من الأغنام الاسبانية لضمها الى الأغنام الموجودة فى عكا كما طلب ابراهيم باشا إرسال أغنام من كريت الى الشام لتربيتها هناك [٢] .

هكذا استأثرت الزراعة بمعظم نشاط ابراهيم باشا الاقتصادى فى الشام لأنها الفرع الأساسى للاقتصاد القومى أما الصناعة فكان الاهتمام بها أقل من الزراعة ومع هذا فقد استمرت المنسوجات الحريرية الانتاج الرئيسى للمصانع ففى سنة ١٨٣٦ استهلك نحو ١,٢٠٠ قنطار من الحرير الناتج من الشام فى مصانع حلب ودمشق وطرابلس وحماة وبيروت ودير القمر وصيدا، وكذلك أنشئ فى صور مصنع لنسج الصوف، وعمل ابراهيم باشا على إدخال طريقة أكثر إتقانا لاستخراج زيت الزيتون فى طرابلس وما جاورها بجلب معاصر الزيت من فرنسا واستخدم عمالا أوربيين فى العمل وكانت النتيجة سارة جدا بالنسبة الى الكم والكيف للزيت الناتج، وأيضا بذلت الحكومة المصرية جهودا عظيمة لكشف المعادن واجتهدت فى التنقيب فى جبال الشام بواسطة اخصائيين ففى الجنوب بحث بعض الفرنسيين عن الرخام وفى لبنان اكتشف بعض الانجليز نوعا جيدا من الفحم الحجرى وفى الشمال اختبر بعض النمساويين الأرض وظنوا وجود الرصاص والنحاس والفضة والذهب بها ومهما يكن فمن الثابت أنه عند نهاية الحكم المصرى تأكدت الحكومة من وجود الفحم والحديد بكثرة فى مناطق مختلفة [٣] .

---

(١) Barker: Op. cit., Vol. II, p. 255 — Sabry: Op. cit., pp. 335, 352, 355.

(٢) أسد رستم : بيان بوثائق الشام ج ٢ ص ٤٩٤ ؛ Sabry: Op. cit. p. 335.

(٣) Sabry: Op. cit., pp. 358 — 362.

هـذا وقد أدّت العناية الخاصـة بالزراعة إلى نشاط التجارة فزادت التجارة الخارجية زيادة مستمرة كما تأثرت التجارة الداخليـة تأثرا عظيما من زيادة الإنتاج الزراعى وتقـدم التجارة الخارجية فصارت دمشق مركزا عظيما للتجارة مع بغـداد والبصرة والفرس والبـلاد المجاورة كما زادت تجارة حلب زيادة عظيمة وأصبحت مصر الأولى بين الدول فى تجارتها مع الشام بعد أن كانت فى أول الأمر فى الصف الثانى، وقد امتازت سياسة ابراهيم باشا التجارية فى الشام بزيادة الإنتاج الزراعى من حرير وزيت زيتون وقطن وقمح وشعير وبإلغاء ما كان موجودا من قبل من عوائق التجارة من احتكارات ومظالم وجمارك داخلية وبتنظيم توزيع الضرائب ، وقد عمل ابراهيم باشا على تحسين طرق المواصلات فأنشأ ٣٠ مركبا للملاحة فى نهر الأورنت حتى أنطاكية ، وكانت حرية التجارة من قواعد السياسة المـالية فى الشام وذلك لأن الروح التجارية عند الشاميين وكره الأوربيين للاحتكار واعتناق ابراهيم باشا مبادئ الحرية كل ذلك كان مضادّا لإنشاء الاحتكارات فى الشام غير أن تلك القاعدة قد كسرت عندما أنشأ ابراهيم باشا — بناء على أمر والده — احتكار الحرير للحصول على الكمية اللازمة منه لاستعمال البلاد ومع هذا فقد منح حرية تصدير الباقى بعـد ذلك الى الخارج (١) .

تلك هى جهود ابراهيم باشا الاقتصادية فى الشام أما فى بلاد العرب فانه عندما فتحها وضع أساس الإصـلاح الزراعى فيها فأمر بحفر الآبار فى الأماكن الجـدباء التى ظنّ فيها ماء (٢) .

هكذا كانت جهود ابراهيم باشا الاقتصادية فى مصر والشام و بلاد العرب وهى جهود محمودة تنهض دليلا على أن عظمته لم تقتصر على الناحية الحربية التى اشتهر بها بين الجميع بل تعدّتها الى النّاحية الاقتصادية .

(١) Sabry : Op. cit., P. P. 363 — 368

(٢) Crabitès : Op. cit., P. 36.

إدارة الشــام

روحهــا وهيكلها وأثرها

للدكتور أسد رستم

دخل بطل مصر الى ربوع الشام فاتحـا منتصرا ، وقضى عشر سـنوات فيها موطدا مؤسسا . وكان رحمـه الله مؤمنا برسـالة والده الكبير مخلصا لهـا مندفعا فى تنفيذها اندفاعا نادرا . وكانت رسالة العزيز هـذه تتلخص بمـا يلى : أولا بالاعتراف بتأخر « المـلة المحمدية » بتعبير ذلك العصر وبضعف الدولة العثمانيـة وبعجزها عن حماية هذه الملة . وثانيـا بوجوب الصمود لطمع أوروبة وجشعها ودفع شرها عن الملة . وثالثـا بوجوب التذرّع بجميع الوسائل الفعالة للوصول الى هذا الهدف النبيل . قال العزيز فى كتاب له أرسله الى إبراهيم عند تأزم العلاقات بينـه وبين الباب العـالى للمرة الثانية وبمناسبة تدخل الدول الأوروبية مامعناه : لا تهدف الدول الى تعضيد الدولة العثمانيـة ولكنها ترمى الى إضعاف الطرفين كى يتسنى لها الاستيلاء على البلاد الإسلامية بسهولة ولذا فإن قبول تدخل هذه الدول خيانة للملة ولتمـام استقلالها . فبدلا من أن نقبل هـذه الخيانة فنذكر باللعنة الى يوم القيامة أجدر بنا أن نموت فى سبيل الدين فنشيد بذلك دنيانا وآخرتنا معا . هذا إذا غلبونا وأما إذا لم يغلبونا ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا فحينئذ نجد فى الدنيا الجنة التى يبحث عنها الناس فى الآخرة . فيدوى فى الافاق صـدى بطولتنا وسمعتنا الطيبة ويذكرنا العالم بخير الى يوم القيامة .. هذا لا ريب فيه . والله كفيل بعباده.(1)

(1) عابدين دفتر ٢١٤ رقم ٦٣٣٦ ، راجع كتابنا المحفوظات الملكية المصرية - بيان بوثائق الشام ج ٤ ص ٢٨٦

وكان العزيز يرى من واجبه إزاء ماتقدم ذكره عن رسالته أن يؤمن العباد ويعدل بينهم ويوحد قلوبهم ويزيد فى إنتاجهم كى يتسنى له الذود عن الملة والدين . ولم ير ما يمنعه عن الأخذ بجميع ماتوصلت إليه أوروبة من أسباب الرقى والعمران للقيام بمهمته وأداء رسالته . فاستقدم من أوروبة رهطا كبيرا من أهل الاختصاص فى الحرب والسلم . ووكل إليهم أمر الإصلاح . وأيدهم كل التأييد وأرسل الوفد تلو الوفد من أبناء بلده الى أوروبة لتحصيل العلوم والفنون كى يتمكن فى النهاية من الاستغناء عن الغربيين الغرباء . ولم يقم فى ذلك العهد فى الآستانة من كان يصلح أن يعدّ للعزيز نظيرا . ولكن شاءت الأقدار أن ينبرى من رجال الحاشية السلطانية من يعترض سبيل العزيز ويشوه سمعته أمام السلطان ، فخشى العزيز سوء العاقبة ، واضطر أن يستعد لمحاربة السلطان وحاشيته فى سبيل الدفاع عن النفس .

حمل ابراهيم رسالة والده الى الشام ، وبدأ بتأمين الأمن ، فامتنع عن إرهاب الأهالى ، وامتثل فى ذلك لأمر خاص صدر من والده يوصيه فيه " بوجوب تأمين الأهالى وعدم اتباع سياسة التخويف والتهويل "(١) .

وكان قد استدعى اليه منذ بدء أعمال الفتح الأمير اللبنانى الكبير بشير الشهابى للتداول معه فى تدبير الأمور ، وقد أكبر بعمله هذا مواهب الأمير وخبرته وإصالة رأيه وإخلاصه ، ونتج عن هذا التداول أن أقصى القائد المصرى عددا لا يستهان به من ولاة الأمور فى البلاد ، وأحلّ محلهم من وجد فيه الكفاءة ، وأوصى " بوجوب المحافظة على راحة الأهالى ، وتأمين العباد ، وزجر المعتدين ، وتحاشى أسباب الجور والاعتساف "(٢) . ووضع فى الوقت نفسه تحت تصرّف هؤلاء الولاة فى جميع المراكز الهامة عددا كافيا من الجند لتنفيذ الأحكام وإحقاق الحق ، ثم

---

(١) عابدين دفتر ٣ رقم ٩٣ : راجع كتابنا المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٢٦٩ .

(٢) كتابنا الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على باشا ج ١ ص ٧٦ .

أمر عددا من كبار معاونيه بالتجوّل فى البلاد وتفقد أحوال السكان للتثبت من تنفيذ أوامره السابقة .

وكان العزيز نفسه شديد الاهتمام بهذه المراقبة ملحا كل الإلحاح بتنفيذها موجبا على ابراهيم نفسه أن يقوم بشيء منها . فقد جاء فى إحدى رسائله الى ابنه فى الشام " ان التجول فى الولايات الجديدة وتفقد شؤون الرعايا أفضل من إصلاح الطرق ومجارى الأنهار فى ادنه وطرسوس " .

وبعد أن أتمّ ابراهيم كل هذا منع جباية " الخوة " فى معابر البلاد ومسالكها وكانت السلطات العثمانية قد غضت النظر عن جبايتها أجيالا طوالا ، فانحطت كرامتها وقلّ نفوذها ، وأصبح جباة هذه " الخوة " أسيادا فى مناطقهم يفعلون ما يشاؤون . من هؤلاء آل أبى غوش فى الطريق المؤدّى من يافا إلى القدس وآل رستم فى جسر شغور عبر العاصى بين اللاذقية وحلب وعشيرة الدنادشة فى تل كلخ بين طرابلس وحمص . نهى إبراهيم عن الخوة وهدّد بالعقاب الصارم فامتنع جباتها عنها وامتثلوا للأمر وأصبحت معابر البلاد ومسالكها حرة طلقة يسلكها التجار وأبناء السبيل آمنين فرحين بالامنة . ومما جاء من هذا القبيل قوله فى مرسوم له وجهه إلى قاضى القدس وشيخ الحرم فيها ومفتيها ونقيبها وخدّام المسجد الأقصى " انه ليس خافيكم أن القدس الشريف محتوى على معابد وأديرة ترد لأجل زيارتها جميع أملال العيسوية والموسوية وفرقهم من كل فج ويقصدونها من ساير الأقطار والديار فبحسب تواردهم كان يحصل عليهم المشقات الباهظة لسبب الأغفار الموضوعة بالطرقات ولأجل إجراء الوفق بين الناس صدرت أوامرنا إلى جميع المسلمين الذين فى ايالة ألوية صيدا وألوية القدس الشريف ونابلوس وجنين برفع هذه الأغفار من جميع الطرقات والمنازل بوجه العموم (١) .

---

(١) كتابنا الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على باشا ج ١ ص ٨٧ — ٨٨ ، راجع أيضا عابدين محفظة ٢٣٢ رقم ٢ : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ١٨٨

ورأى بطل مصر موطد الأمن فى الشام أن لا بد من جمع السلاح وتجريد السكان منه فأمر بذلك وشرع فى التنفيذ . وما أن بدأ عمله فيه حتى ثارت القبائل والعشائر وقد رأوا ترك أزواجهم خيرا لهم وأجل وأشرف من ترك أسلحتهم فعقد الزواج بنادقهم . ومما زاد فى الطين بلة أن عملاء الآستانة استغلوا الموقف وحرضوا السكان على الصمود فى وجه الحكومة المصرية فاشتدّ ساعد السكان وأعلنوا العصيان . فجرّد ابراهيم على كل من عصى حملة أكرهه فيها على الإذعان والطاعة . وتكبد فى سبيل تأمين الأمن خسائر فادحة فمن حرب فى فلسطين عم البلاد بأسرها الى حملة تأديبية على النصيريين إلى مواقع دامية فى وادى التيم وجبل الدروز إلى محاربة الأكراد فى أقصى الشمال إلى فتنة مستعصية فى لبنان أدّت فى نهاية الأمر إلى تدخل الدول الأجنبية و إقصاء المصريين عن البلاد .

أما عن العدل وهو وسيلة العزيز الثانية فحدّث عنه ولا حرج . والواقع الذى لا جدال فيه إن الشام لم تنل من العدل فى أى عهد مضى منذ أيام عمر بن الخطاب ما نالته فى ظل العزيز. قال العزيز فى رسالة له وجهها إلى أحد رجاله ناظر الجهادية : "كنت أودّ أن نكون قد تخلصنا من الشعوذة والغفلة والرخاوة والغرض والضغينة والمحاباة التى طالما ألفناها ومللناها فى الأيام الحالية وأن يكون ذلك العهد قد مضى وانقضى وبدلنا به عهدا يقوم على أساس الإنصاف والإنسانية والكياسة والعدالة والاجتهاد والغيرة بحيث يتسنى لنا نحن أيضا أن نصرف عملنا وننجز مصلحتنا على أسلوب من اللطف والحسنى يدخلنا فى مصاف البشرية الراقية" (١) .

هذا هو العزيز وهذا هو رائده فى الحكم . فاذا ما ذكرنا حزمه ونشاطه ومثابرته ومتابعته لما يصدر عنه أدركنا قيمة هذا القول وأثره فى توجيه القضاة ورجال الإدارة والجيش .

---

(١) معية تركى دفتر ٣٦ رقم ١٦١ . المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٩٦ .

وفهم العزيز عقلية شعبه فهما تاما ، فأمر بشدّة العقاب وسرعة التنفيذ جاعلا من أحكامه وتنفيذها عبرة لمن يعتبر، ومثال ذلك أن تشا كى كبار الموظفين انتشار الرشوة فى دوائرهم فى الشام فأمر العزيز بوجوب التثبت مما يقال وسمح بالشنق عند ثبوت الجرم، فنفذ حكم الإعدام أكثر من مرّة فى أناس ثبت عليهم هذا الجرم، قال ابراهيم فى كتاب له الى سامى بك معاون العزيز : " ستعلمون عندما تقرأون أوراق نعوم نوفل[1] أن أهل عربستان ميالون جدا الى إعطاء الرشوة ومراعاة الخواطر حتى أدّى ذلك إلى اكتشاف خيانة بعض المتسلمين ومحاسبتهم وعزلهم. وقد تحملنا فى سبيل إنقاذهم من بلية الرشوة كثيرا من العناء ولكننا لو تركناهم على حالهم لخاضوا فى السلب والنهب خوض المقدمين على الإغارة[2]" .

وأبقى اتفاق كوتاهيه تعيين قضاة الشرع فى الشام بيد السلطان فخشى العزيز عدول هؤلاء عنه وانحيازهم إلى جانب السلطان وأثر ذلك فى أحكامهم فأوصى بمراقبتهم مراقبة خفية شديدة[3] وأمر بوجوب عرض أحكامهم على كبار رجال الإدارة قبل تنفيذها . ثم لمس عجزهم عن النظر فى بعض الدعاوى الحقوقية التجارية فسمح لمجالس المشورة أن تبت فيها حرة طلقة . ولم يتردّد العزيز عن التدخل عند الحاجة فى فهم الشرع الشريف وتطبيقه . فرضى رحمه الله عن موقف اللواء سليم بك من شيخ المغاربة فى اللاذقية عندما أفتى هذا الأخير بأسر أولاد النصيريين ونسائهم وعندما قاومه اللواء المصرى وهدّد بإنزال العقاب بمن يفعل ذلك[4] . وقل الأمر نفسه عن موقف العزيز من علماء دمشق عندما اعترضوا على نظام الكرنتينا . قالوا : " إن حبس الناس فى البيوت وإقامة خفراء مأجورين عليهم وإخراج بعضهم على

---

(١) كاتب الخزينة فى طرابلس .

(٢) عابدين محفظة ٢٥٢ رقم ١٣٠ . المحفوظات الملكية المصرية ج ٣ ص ٦٩ — ٧٠ .

(٣) عابدين دفتر ٦ رقم ١١٠ : المحفوظات الملكية المصرية ج ٤ ص ١٠١ .

(٤) عابدين محفظة ٢٥٠ رقم ٢٣٦ : المحفوظات نفسها ج ٢ ص ٤٨١ .

هيئة مرعبة وإحراق بعض أشيائهم ودفن الموتى بملابسهم وتكليسهم والكشف عن عورة الأموات كل ذلك دليل على خوف الموت والعجز عن تمرين القلوب عن الصبر وفيه ما فيه من مخالفة الشرع إذ أن الحبس وإخراج الناس فى هيئة مخيفة إنما يجوز فيمن يكون مجرما ولا جناح على الذى ظهر الطاعون فى بيته ولا يستحق الأجرة إلا من قام بعمل نافع للأجر . ولا ينبغى أن يضايق المحبوس فى عيشه " .
قالوا هذا كله فاستقدم العزيز من أفتى بما يلى : " لقد دلت أخبار السلف وآثارهم على أن الأجواء تختلف وأن بعضها قد تكون ضارة وأن الانتقال من محل ثبت فساد جوه إلى محل آخر واشتمام الروائح الطيبة واستعمال البخور لإزالة الروائح الكريهة والفصد والحجامة والاستقاءة لما وردت بها السنة المحمدية ولا تنكر إذا نفذت بطريقة لا تخل بإحدى الفرائض . فإذا أمر ولى الأمر بإجرائها بشروط هى أن لا يضيع حق المطعون ولا الذى ظهر الطاعون فى بيته وأن لا تكون معيشة أحد عرضة للضيق وأن لا يحتفل بالميت مطعونا دون الاحتفال بالمائت ميتة عادية ونفذت بطريقة لا تخل بالشعائر الدينية فإن إطاعة أوامره فى إتيان المباحات واجبة فكيف بالحجر الصحى وهو بين الوجوب والاستحباب[1] " .

وعندما رحب العزيز بقدوم صارم أفندى إلى مصر رجاه أن يغض النظر عن بقائه مدة طويلة فى الحجر الصحى ثم أبدى رأيه فى هذا التدبير فقال : " إن مسألة الحجر الصحى وإن كانت سببا صوريا لصيانة البرية والرعية من الأمراض المعدية إلا أنها بفضل السلطان تدبير لترويج التجارة الملكية التى لا يخفى أمر ارتباطها بالتجار الأوروبيين والمسؤول عنها قناصل الدول فلو تدخل الجناب العالى فى أمرها لعد تدخله تجاوزا على العرف المرعى وهذا لا يوافق مزاج الجناب العالى ولا يحوز رضى صارم أفندى[2] " .

(١) عابدين محفظة ٢٥٩ رقم ٤٦ وعابدين دفتر ٢١٤ رقم ٣٨٣ = المحفوظات الملكية المصرية ج ٤ ص ٣١٤ — ٣١٥ .

(٢) عابدين دفتر ٦ رقم ٢٧ : المحفوظات الملكية المصرية ج ٣ ص ١٨١ .



ابراهيم الفاتح



محمد شريف باشا

وقال العزيز بوجوب توحيد القلوب فقام ابنه إبراهيم ينفذ هذه الرغبة السامية وكتب فى أوائل عهده فى الشام إلى متسلم اللاذقية يقول : " والتعرض إلى الرعايا وعدم مؤاساتهم هـذا مخالف لرضانا لأن الاسلام والنصارى جميعهم رعايانا وأمر المذهب ماله مدخل بحكم السياسة فيلزم أن يكون كل بحاله المؤمن يجرى إسلامه والعيسـوى كذلك ولا أحد يتسلط على أحد[١] " . واحترم إبراهيم زعامـة النصارى والدروز فى لبنان احترامه لزعامـة إخوانهم المسلمين فى سائر الأقطار الشامية . ولم يتأخر قيـد شعرة عن ترقية النصارى والدروز عند ثبوت الاسـتحقاق فعرض على الشهابى الكبير الأمير بشير الثانى حاكمية جميع الأقطار الشامية قبل أن يرشح محمـد شريف باشا للمنصب نفسـه . وكان قد عين هـذا الأمير مديرا لمصالح البلاد يختم الأوراق التى تصـدر عن مقر السرعسكر[٢] وقال عنه سرا لا يوجد عندى فى بر الشام رجل بمعنى الكلمة سوى هذا الرجل الشهم وحيث أنه أظهر هذه الصداقة والأمانة فلا يهمنا قط أكثر عدد الأصدقاء أم قل[٣] . وقدر إبراهيم نصرانيا آخر حق قدره أعنى حنا بحرى فرقاه إلى المرتبة التى استحقها وجعله مديرا عاما للمالية متنعما برتبة البكوية . وهو أول نصرانى فى الأقطار العربية نال هذا اللقب . ولم يتردّد العزيز وابنه إبراهيم عن منح هذا اللقب نفسه لأربعة من دروز لبنان هم نعمان جنبلاط ونصيف أبو نكد وخطار العماد وعبد السلام العماد[٤] . وسمح العزيز وابنه ابراهيم بترميم الكنائس والأديرة و بإنشاء الجديد منها وغضا النظر عن ارتداد ثلاثة من الموارنة كانوا قد قبلوا الإسلام فاستمالا قلوب «الرعايا» وخطا فصلا جديدا فى تاريخ الحكم فى الشام . ولكنهما

---

(١) عابدين محفظة ٢٣٨ رقم ٢٤٥ — ٢٤٧ : المحفوظات الملكية المصرية ج ٢ ص ١١٧

(٢) عابدين محفظة ٢٣١ رقم ١٢١ : المحفوظات ج ١ ص ١٧٦
عابدين محفظة ٢٣٧ رقم ١٥٦ = المحفوظات ج ٢ ص ٨٦

(٣) عابدين محفظة ٢٣٢ رقم ٧٦ = المحفوظات ج ١ ص ٢١٨

(٤) عابدين دفتر ٢١٤ رقم ٥٣٢ : المحفوظات ج ٤ ص ٤٧٢ — ٤٧٣ .

لم يسمحا بتنصر بعض الدروز خوفا من إساءة الفهم واستفزاز الجمهور[١]. وعاقب محافظ بيروت بعض المسلمين علنا لأنهم تفوهوا ببعض كلمات غير لائقة بحق النصارى[٢]. ورأى العزيز أن يجند العيسويين لتيأس الدول المسيحية عن إثارة الفتن فى الشام ولتزول عداوة المسلمين ولتتوطد صداقتهم[٣].

ومن الوسائل التى تذرع بها العزيز وابنه لتوحيد القلوب أنهما حافظا على العدل فى التوظيف فامتنعا عن إغراق الشام بالموظفين المصريين ولم يستقدما من وادى إلا من استوجبت الضرورة قدومه. ومن ذلك أن العزيز أمر محمد شريف بك لدى تسلمه أزمة الحكم فى الشام بوجوب إسناد منصب المتسلمية فى دمشق الى أحد أعيان هذه البلدة أو الى مصرى إذا تعذر وجود كفؤ لها من الدمشقيين أنفسهم[٤]. وقال أيضا فى كتاب أرسله إلى سليمان باشا بأنه عين حراس الصحة فى المراكب المسافرة إلى بر الشام من أبناء مصر لأنه لم يجد من هو أهل لذلك فى بر الشام[٥]. وكان من نتائج النزاع الذى نشب بين مصر والباب العالى أن شعر العزيز بأهمية العنصر العربى وبوجوب التودّد إليه والاتكال عليه فخرج عن تقاليد الادارة فى مصر ووافق على ترقية البارزين من أولاد العرب فى القراءة والكتابة إلى رتبة يوزباشى. وذهب ابراهيم إلى أبعد من هذا فأكد لوالده بأن نسبة المخلصين من العرب الملتحقين بالخدمة كانت أعلى من نسبة المخلصين من زملائهم الأتراك وحبذ إفساح المجال

---

(١) عابدين دفتر ٢١٤ رقم ٢٣٦ : المحفوظات ج ٣ ص ٤٤٤ .
عابدين محفظة ٢٥٥ رقم ١٩٩ : المحفوظات ج ٣ ص ٢٨٥ و ٢٨٨ و ٢٩٥ .
عابدين دفتر ٢١٢ رقم ٣٦٤ : المحفوظات ج ٣ ص ١٣٧ وغيره .

(٢) عابدين محفظة ٢٥٩ رقم ٢٢٨ : المحفوظات ج ٤ ص ٤١٥ — ٤١٦ .

(٣) عابدين دفتر ٢١٤ رقم ٤٣٨ : المحفوظات ج ٤ ص ٤٢٦ .

(٤) عابدين دفتر ٢١٠ رقم ٤٢٢ : المحفوظات ج ٢ ص ٢٨٠ .

(٥) عابدين دفتر ٢١٢ رقم ٣٥٧ : المحفوظات ج ٣ ص ١٣٣ .

اترقية بعض العرب الى رتبة بيكباشى[١] . ونوه بفضل العرب على المدنية فى التاريخ وقال فى ظروف معينة أنه أتى مصر طفلا وأن شمسها غيرت دمه بجرى عربيا[٢] . ومما ساعد على توحيد القلوب أن العزيز فرق فى سياسته بين وطنى آمن و بين أجنبى طامع فشمل الأول بعطفه وحذر بطش الآخر فوافق مثلا على السماح لتابع قنصل انكلترة فى رودس باستخراج الإسفنج من مياه الشام ولكنه رأى أن يمنع عن ذلك إذا كانت هذه المصلحة بيد رجل وطنى . وأوجب منح التجار الوطنيين الامتيازات نفسها التى تمتع بها التجار الأجانب وساوى بين الوطنيين وبين الأجانب فسمح للوطنيين بتصدير بضائعهم من مرافئ بر الشام . وجاء فى رسالة من المعية السنية إلى ابراهيم باشا أنه لا يمكن ائتمان الأجنبى المتجنب على مصالح البلاد وأنه نظرا لتصلب اسكواره بك فى رأيه واستئثاره بشؤون مدرسة المدفعية تقرر تشكيل لجنة من خريجى مدارس أوربة من أبناء البلاد للنظر فى تنظيم المدارس[٣] .

عنى العزيز وابنه ابراهيم بالمحافظة على ثروة البلاد و بزيادة الإنتاج فيها وسعيا سعيا حثيثا للوصول إلى مرحلة معينة من التطور الاقتصادى يتمكنا فيها من الاستغناء عن أوربة . ولم ير العزيز مبررا لخوف ابراهيم من تسرب النقود الى الخارج لأن الشام ستقدم له من الفحم والحديد والخشب ما يستغنى به عما يستورده من أوروبة ولأنه كان يأمل أن يكفى بر الشام مؤونة الشيت والملبوسات بفضل ما كان يقوم به من تنظيم الصناعات فلا يبقى القطر الشامى والحالة هذه بحاجة إلى منتوجات البلدان الأجنبية[٤] . والواقع أن العزيز وابنه ألحا منذ بدء

---

(١) عابدين دفتر ٢١٢ رقم ٢٣١ وعابدين دفتر ٢١٤ رقم ١٥٠٢ المحفوظات ج ٣ ص ٦٧ وج ٤ ص ٤٦٠ .

(٢) يراجع كتابنا أسباب الحملة على الشام ص ٦٤ — ٩٥ .

(٣) عابدين دفتر ٢١١ رقم ١٠٥ وعابدين دفتر ٢١٤ رقم ٢٢ وعابدين دفتر ٢١٢ رقم ١٧٧ المحفوظات ج ٢ ص ٣٨٨ وج ٣ ص ١٨٨ و ٧٩ .

(٤) عابدين دفتر ٢١٢ رقم ٢١٤ : المحفوظات ج ٣ ص ١١٢ — ١١٣ .

حكمهما فى الشام بوجوب إرسال عشرين أو ثلاثين صبيا من بر الشـام إلى مصر لتعلم صنع الجوخ والطرابيش ولإدخال هذا الفن إلى بلاده "فتتحول إذ ذاك أرباح الأجانب من هذه البضاعة إلى أبناء البلاد"[١] . ووافقا بعد مدة وجيزة "على إنشاء معمل لصنع العباءات فى عكة تدار دواليبه بواسطة المياه وإصدار الأمر لإرسال الدواليب والمدقات اللازمة من مصر[٢] . وكان إبراهيم يعير الزراعة فى الشام شطرا وافيا من اهتمامه الشخصى فنراه يستطلع رأى الجناب العالى" هل يسمح بإعفاء من يحيى الأراضى المهمولة بغرس الأشجار والعنب من الأموال تشجيعا له أم لا[٣] "ونرى اللواء أحمد بك يكتب الى ابراهيم نفسه مبينا عدد القرى والمزارع التى تم إحياؤها حتى سنة ١٢٥٢ فيقول أن عددها فى جهات حلب وحدها بلغ الرقم ٨٥ وأن عدد الأفدنة التابعة لهـذه القرى والمزارع نفسها بلغ الرقم ١٠٣٧[٤] . ونلمس فى موضع آخر وصـول بعض رجال الاختصاص الذين درسوا الزراعة فى فرنسا إلى فلسطين والتحاقهم بمصلحة تطعيم الأشجار[٥]. وحمى العزيز وابنه مصالح التجار الوطنيين فمنحاهم الامتيازات نفسها التى كان يتمتع بها التجار الأجانب واستغلا لهذه الغاية ظرفا دوليا دقيقا . وتفصيل ذلك أن الحكومة الانكليزية كانت قـد احتجت لدى البـاب العالى على جباية بعض الضرائب المستحدثة فى بر الشام . فقامت الحكومة المصرية تغض النظر عن جميع الرسوم الجمركية وتطلق حرية التجارة لاستمالة جميع الأوروبيين الى جانبها كى يقول هـؤلاء " إذا كان الإنكليز قد رجعـوا الى الدولة فى أمر تافه فمحمد على رفع جميع الرسوم من تلقاء نفسه[٦] . ثم استطرد العزيز فساوى بين التجار

---

(١) عابدين دفتر ٢١٠ رقم ٤٩٥ : المحفوظات ج ٢ ص ٣١٣ .

(٢) عابدين دفتر ٢١٠ رقم ٥٤٠ : المحفوظات ج ٢ ص ٣٣٥ .

(٣) عابدين محفظة ٢٤٨ رقم ٢٤٣ : المحفوظات ج ٢ ص ٣٨٦ — ٣٨٧ .

(٤) عابدين محفظة ٢٥٣ رقم ١٧٠ : المحفوظات ج ٣ ص ١٤٨ .

(٥) عابدين محفظة ٢٤٧ رقم ٢٠ : المحفوظات ج ٢ ص ٣٢٦ .

(٦) عابدين محفظة ٢٥٢ رقم ٢٩١ المحفوظات ج ٣ ص ٩٩ .

الأجانب و بين زملائهـم الوطنيين كما أشرنا سابقا . وطعن بعمله هـذا فى صميم الامتيازات الأجنبية فبدأ فصلا جديدا فى تاريخ العرب الحديث لم ينته إلا بعـد مرور مائة عام ! ولمس إبراهيم الظلم الذى لحق بالفلاح و بالمزارع أيضا من جراء تلزيم الضرائب فهب للدفاع عن الحق المهضوم وكتب رسالة الى معاون العزيز يلح فيها بوجوب الغاء التلزيم و بجباية الضرائب مباشرة بواسطة موظفى الإدارة . قال: " إنى لم أقصد من طرح هذه الضرائب على الأهالى جلب وفر لجانب الميرى فقط بل إنى رأيت فى ذلك نفعا وسهولة يعودان على الجانبين معا . فقد تيقنت ما يلقاه الأهالى من الظلم والجور والأذى والخسارة من الملتزمين حين يأتون الى القرى التى التزموا عشرها و يقيمون فيها فمأكول الملتزم ورجاله وعليق دوابهم ومأكول معارفهم الذين يمرون عليهـم فى أثناء السفر جميع هـذا على حساب الأهالى وليس بإمكان هؤلاء أن ينقلوا غلالهم من البيادر ما لم يأمر الملتزم بذلك . فقد تبقى هـذه الغلال على بيادرها حتى موسم الخريف وتتعرض للتلف والفساد من جراء سقوط المطر . ولو فرض حدوث مظالم وأكل حقوق بموجب النظام الجديد فانه سيكون نادرا كما أننا لا نحجم عندئذ عن إجراء التحقيق اللازم . ولقـد سأل شيوخ القرى بين الشام وحلب جرمانوس لدى مروره فيها إننا سمعنا أن ضرائب العشر ستطرح على الأهالى بالمقطوعية فقل لنا ماذا تم[1] " .

هـذه نماذج متنوعة من أقوال العزيز وابنه ورجالها الذين قاموا بأعباء الحكم فى الشام زهاء عشر سنوات . وقد اقتبسناها ممـا بقى من أوراق الادارة فى ذلك العهد . ورائدنا فى ذلك إظهار الرسالة التى تحمس لهـا العزيز ودرجة تطبيقهـا . والشهادة التى تشهد بها هذه الأوراق لاتحتاج إلى الكثير من الجرح والتعديل . فهى أقوال المسؤولين من رجال الإدارة وقد دونت فى زمن وقوعها . ولم يقصد بها قائلوها أية مصلحة شخصية أو دعاية عمومية لأنها كانت سرية أو على الأقل غير مباحة للجمهور .

(١) عابدين محفظة ٢٥٣ رقم ٤٦ : المحفوظات ج ٣ ص ١٢٠ — ١٢١ .



ولا بدّ قبل الخوض فى الكلام عن هيكل الإدارة من إجلاء أمرين أساسيين هامين أوّلهما حدود الشام والثانى صلاحيات العزيز. فالشام فى عرف العزيز ورجاله شملت آنئذ أيالات حلب ودمشق وطرابلس وصيدا وسنجق القدس ونابلس . بيد أن قلة الثقة بين السلطان وبين العزيز أدّت إلى مفاوضات شاقة حول الحدود الشمالية الشرقية لأيالة حلب والى أخذ ورد نتج عنه غموض فى المراجع الأوّلية يضيع الباحث ويحيره وجل مايمكننا أن نقوله الآن بهذا الصدد هو أن الفرات كان بوجه إجمالى الحد الفاصل بين الأراضى التابعة لحكم العزيز وبين سائر الولايات الشرقية وأن عينتاب وكلس وقسما كبيرا من كورد داغ وقعوا جميعا ضمن الحدود المصرية .

والأمر الثانى الذى لا مفر عن الانتباه اليه هو أن العزيز بقى من الناحية القانونية حتى السنة ١٨٤١ واليا من ولاة السلطنة يحكم جزيرة كريد ومحصلية أدنة وأيالات الشام والحرمين الشريفين وما يليهما ومصر بموجب أمر سلطانى يوجه اليه سنة فسنة . ولكن الواقع الذى لا جدال فيه هو أن هذا الوالى كان أقوى ولاة السلطنة وأجدرهم بالحكم وأنه كان يضاهى السلطان نفسه قوة وعزة ومجدا وقد تمكن بالفعل من قهر الجيش السلطانى ومن أسر قائده الصدر الأعظم نفسه . ولذا فاننا نرى علماء الشام يعترفون بالواقع فيخاطبون العزيز بالعبارات التالية :

اللهم ياواجب الوجود منك نسأل وبرسولك الأعظم إليك نتوسل بدوام عز دولة ولى النعم صفى الشيم الدستور الوقور (المكرم والمشير المظفر والمعظم أعظم الوزراء فى العالم مدبر أمور جمهور أخص وأشرف بنى آدم الخديوى الأعظم أدام الله تعالى ظل أبهة دولته ونصره وتأييده فى الأمم أفندم سلطانم[١]) .

ولم يختلف رأى العزيز فى نفسه وفى صلاحيته عما تقدّم فهو المرجع الأعلى فى الحكم وحكمه لايردّ ولكنه يرى هو أن يشترك الأعيان فى حكمه فيستشير فى كثير

(١) عابدين محفظة ٢٥٩ رقم ١٠٠ : المحفوظات ج ٤ ص ٣٢٤

من الأمور ويحتفظ بالرأى الأخير لنفسه . فهو إذا من دعاة الحكم المطلق الذين يصغون لأصحاب الرأى . وميزاته الكبرى بين حكام العرب فى العصور الحديثة أنه كان يحب النظام ويحترمه ويلح فى تطبيقه إلحاحا شديدا فيطلع يوميا على جميع التقارير الإدارية وغير الإدارية التى كانت ترفع إليه فيبدى رأيه فيها ويردّها للتنفيذ . ومن ذلك قول إبراهيم إلى والده عن عكة : "إنى لم أكتب شيئا من ذلك إلى الأعتاب الكريمة لأن التقارير اليومية ترسل كل يوم إلى الجناب العالى فيطلع منها على جميع الوقائع ولا شك فى أنه قد أطلع على مايوجب إصدار هذا الفرمان فأصدره بدون أن يكون لى أدنى علم بذلك"(١) . ومما يؤيد هذا الاستنتاج أن معاون العزيز كتب إلى حنا بحرى بك ينقل إليه رضى العزيز عن تقاريره ويطلب إليه أن يرفقها بترجمة تركية لأن " الجناب العالى " يودّ الاطلاع عليها لدى وصولها . فإذا وردت وهو فى دار الحريم تعذر نقلها .

وقام العزيز بنفسه يأمر حنا بحرى بك بوجوب إرسال محاضر المجالس فى دمشق يوميا إذ لا فائدة من تأخيرها لديه حتى تتراكم فترسل دفعة واحدة(٣) .

وقدّر العزيز ابنه إبراهيم حق قدره فسلمه قيادة الحملة على الشام وجعله حاكم الأقطار المحتلة . وما أن بدأ هذا البطل أعماله فى الشام حتى شعر بوجوب فصل القيادة عن الحاكمية فطلب إلى والده أن يعين حاكما عاما محله يعنى بإدارة الأراضى المحتلة ورشح لهذا المنصب الرفيع الأمير اللبنانى الكبير بشيرا الثانى وعندما اعتذر الأمير عن قبول هذا المنصب الجديد طلب القائد المصرى تعيين محمد شريف بك أحد أقرباء العزيز وحاكم الصعيد فى المنصب نفسه فلبى شريف الدعوة وجعل دمشق مركزا لحكمه واتخذ لنفسه لقب حكمدار الآيالات الشامية أو كتخداى

(١) عابدين محفظة ٢٣١ رقم ٥٨ : المحفوظات ج ١ ص ١٤٠

(٢) عابدين دفتر ٣ رقم ٦٩ : المحفوظات ج ١ ص ٢٥١

(٣) عابدين دفتر ٢١٠ رقم ٢٧٢ : المحفوظات ج ٢ ص ١٨٢

خديو أعظم وحكمدار أيالات عربستان أو ما قارب ذلك . ومما كتبه الحكمدار فى هـذا الموضوع إلى أعيان حلب مثلا قوله "لا خفاكم ما فاضت به بحور إحسانات سعادة أفندينا ولى النعم الخديو الأعظم عزيز مصر المعظم دام ما دام العالم وذلك بتفويض أحكام أيالات الأقطار الشامية لعهدة عجزنا الخ[١]" .

وما أن اتخذت هـذه الخطوة الأساسية حتى تفرع عنها خطوات أخرى فقسمت البلاد إلى مديريات أربع وإمارة ممتازة وأشرف الحكمدار بنفسه على مديرية دمشق وتولى أعمال مديرية حلب أحد أنسباء العزيز إسماعيل عاصم بك وقام بأعمال الإدارة فى مديريتى طرابلس وصيدا كل من يوسف بك شريف والشيخ حسين عبد الهادى وولده بعده . أما لبنان فإنه بقى فى عهـدة شيخه الجليل وأميره الكبير واكتسب عزا فى ظل العزيز لم ينله من قبل واحترم استقلاله الداخلى احتراما تاما . قال الحكمدار إلى القائد العام : "فكتبت أستعلم عن موضع إقامة مير أفندى فتبين أنه مقيم فى قرية مشغره الكائنة بداخل الجبل المتحول لحكومة الأمير بشير فأوقفت إرسالى الفرسان للقبض عليـه واكتفيت بعرض الحالة على الأعتاب السنية" . فأجيب الحكمدار : "يجب أن تشعر الأمير بشير بمن أخبرك بهـذا الخبر[٢]" . وهنالك دليل آخر على استقلال هـذا الجبل : عندما أوشك حكم العزيز أن ينتهى ، وبدأت أصابع الدول تلعب فى لبنان كتب ريتشارد وود عميـل بريطانيا الأكبر آنئذ الى الأمير بشير ما نصه بالحرف : "لم يجب تخشوا من وجه كون الأربع دول المشار اليهم يتعهدوا بأن يعطوا لجبل لبنان تلك الشرايع والحرية السالفة مع الإنعامات التى كانت تتمتع بها الأهالى تحت أحكام السلاطين[٣]" .

وكان على رأس كل مدينـة أو قرية كبيرة من هـذه المديريات وقراها متسلم يعينه الحكمدار بموجب أمر رسمى صادر عنه ، وكان المتسلم يعنى بأمور الإدارة ،

(١) يراجع كتابنا الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على باشا ج ٢ ص ٥٠ — ٥١

(٢) عابدين محفظة ٢٥٨ رقم ١٣ : المحفوظات ج ٤ ص ١٩٠ .

(٣) عابدين محفظة ٣٦٠ رقم ٢٢٤ : المحفوظات ج ٤ ص ٤٣٢ .

و يبت فى بعض الدعاوى الحقوقية البسيطة و يتعاون ومجالس المشورة فى حل المشاكل الإدارية المهمة ، وكانت هذه المجالس تتألف من عدد معين من أعيان المدن والقرى وتمثل فيها جميع الطوائف تمثيلا نسبيا ، أما صلاحية هذه المجالس فانها لم تكن فيما يظهر دائما واضحة محدّدة . فبينما نرى مجلس حلب ينصرف بكليته تقريبا للمحافظة على مصالح الحكومة المادّية[١] نفاجأ بأمر من العزيز الى ابنه ابراهيم يستنسب فيه إنشاء مجلس شورى فى قونية "للنظر فى أمور تلك البلاد ومصالحها ولإصدار البيانات اللازمة لتشويق الأهالى وحضهم على الطاعة[٢]" ونرى فى الوقت نفسه مجلس بيروت ينظر فى بعض الدعاوى الحقوقية التجارية التى لا علاقة لها بمصالح الحكومة .

وكان العزيز بنوع خاص شديد الاهتمام بالمال يقول : "إن النقود رأس كل عمل ، ويوجب بذل الهمة فى تحصيلها على كل محب مخلص له[٣]" ولا غرو فى ذلك فالمال المقنن عليه سنويا للآستانة فقط بلغ فى أوائل عقده فى الشام ١٩٨٧٧٦٥ غرشا . ثم طلب منه بموجب جداول ممثلة فى الآستانة ٥٠٢٢٠١٥ غرشا[٤] و إذا ذكرنا المبالغ الطائلة التى يستوفى بها رجال الآستانة ونفقات جيشه العظيم وأسطوله الكبير و إدارته الواسعة إذا ذكرنا جميع هذا رفعنا لومنا عن هذا الرجل الفذ فى تمسكه بالمال وفى إلحاحه على رجاله بوجوب جمعه وضبطه .

شعر العزيز بما تقدّم فأنشأ فى الشام إدارة خاصة للمال وعين على رأسها برتبة مدير حنا بحرى بك ثم أرفق كل متسلم فى البلاد بموظف مالى خاص أطلق عليه لقب الصراف . وحاول بحرى بك أن يجمع ما أمكنه من المال وأن يقوم بواجبه

---

(١) يراجع "ابنا الأصول ج ٤ ص ١٠٧ ١ ٢٣١ .

(٢) عابدين دفتر ٢١٠ ورقم ٣٣٧ ؛ المحفوظات ج ٢ ص ٢١٩ .

(٣) عابدين دفتر ٢١٠ رقم ١٧٧ : المحفوظات ج ٢ ص ١٦٩ .

(٤) عابدين دفتر ٤ رقم ٣٢ : المحفوظات ج ٢ ص ٣٩٣

"كمحب مخلص" ولكنه لم يفلح فعرض عندئذ على العزيز مشروعا لإصلاح الحال يلخص بما يلى :

(١) تحديد المبالغ المطلوبه من كل مديرية ومدينة وقرية وطبعها بوضوح فى دفاتر معينة وطبع غيرها للحاسبة وتعليم خطباء القرى وفقهائها استعمال هذه الأوراق والدفاتر وتعيين خطيب لكل قريتين أو ثلاث وتعيين " معاون " لكل خمسين قرية يشرف على أعمال الخطباء وكاتب يقوم بتعليمهم عند الحاجة .

(٢) مراقبة القرى وحمايتها من جور التجار واعتداء أصحاب القوّة والاقتدار وشذوذ الموظفين واستخفافهم بالقانون .

(٣) إعداد دفاتر خاصة يوضع على رأس كل صحيفة من صحائفها رقمها المتسلسل وتختم بخاتم ديوان الحكومة وتوزع على الجهات التى تستعمل فيها .

(٤) الاهتمام بضبط المكاييل والموازين و إبطال ما كان مختلا منها .

(٥) جرد النقود الموجودة لدى الصيارفة فى أوقات غير معلومة وفحص حساباتهم (١) .

وعندما تم إصلاح الدواوين فى مصر وانتهى على تقسيمها إلى أقلام أسس قلم خاص " بمصالح بر الشام" . فكتب العزيز الى الكمدار يقول : لما كان لبر الشام ككل قطر من الأقطار مصطلحات وقواعد قد يستشكل أمرها و يستبهم فهمها على رجال هذا القلم فالجناب العالى يطلب الى شريف باشا أن يختار رجلا ذا فطنة ودراية مطلعا على قواعد بر الشام فيرسله عاجلا الى مصر ليستقيم فى القلم المذكور فيستعان بعرفانه عما يلزم حينا فحينا. ثم يعود فيقول : " أنه عاد ففكر فى كثرة أيالات بر الشام فاستبعد وجود رجل واحد تتيسر له معرفة أصول كافة الأيالات ولذا فانه يرى أن يستحدث فى بر الشام قلم صغير خاص بمصالح المقاطعات

---

(١) عابدين محفظة ٢٥٧ رقم ٣٠ : المحفوظات ج ٤ ص ٢٧ — ٣١

والالتزامات يتولى بحث الأوراق العـديدة وتدقيقها هناك ثم يبعث بخلاصة بحثه ونتيجة تدقيقه الى مصر . يفضل الجناب العالى هـذا على إرسال الدفاتر والأوراق المتنوعة الى مصر و يستطلع رأى شريف باشا بالأمر"(١) .

وعهد العزيز بعد موافقة ابنه إبراهيم الى سليمان باشا الفرنساوى بمراقبة شؤون الأجانب فى بر الشام . فحاول هـذا ضبط هويتهـم وأمر بتطبيق قوانين التجوّل المتبعة فى البلدان الأوروبية . ففرض على الأجنبي وجوب اتصاله بقنصله للتأشير على جواز سفره لدى وصـوله الى بر الشام ووجوب مثـوله أمام السلطات المحلية للحصـول على شهادة هوية يبرزها عنـد الطلب(٢) . وكان إبراهيم باشا قـد عهد الى إسماعيل عاصم بك مدير أيالة حلب بمراقبة الحدود التركية وتنظيم شبكة للجاسوسية للغرض نفسه . فلما بدأت علاقات العزيز مع السلطان تتأزم من جديد أراد إبراهيم باشا أن ينشئ قلم استخبارات عسكرية برئاسة المسيو إليه رئيس الاستخبارات بجزيرة كورسكه(٣) . وعنى إبراهيم عناية خاصـة بتحسين المواصلات ولاسيما بتنظيم الـبريد العسكرى وقسمه الى قسمين بريد عادى و بريد مستعجل فكانت رسائله المستعجلة تصل من بعلبك الى مصر فى سـتة أيام(٤) . ثم أراد إبراهيم أن يخدم الجمهور فأمر بإعداد مشروع خاص لإنشاء بريد عام ينـقل رسائل جمهور الناس . وما أن علم قنصـل بريطانية فى دمشق بهـذا حتى احتج مدّعيا أن إنشاء بريد عام يضر بالبريد الإنكليزى الذى كان يصـل بيروت بدمشق . فاستدعى العزيز قنصل بريطانية العام اليـه وفاوضه فى الأمر فوعده بالتدخل . فأمر العزيز ابنـه ابراهيم

---

(١) عابدين دفتر ٢١٢ رقم ١٢٣ و ١٢٥ : المحفوظات ج ٣ ص ٤٠

(٣) عابدين محفظة ٢٥٣ رقم ١٩٦ : المحفوظات ج ٢ ص ١٥٢

(٣) عابدين محفظة ٢٥٦ رقم ١٦٣ : المحفوظات ج ٣ ص ٤٤١

(٤) عابدين دفتر ٢١٤ رقم ٤٨٠ : المحفوظات ج ٤ ص ٤٤٧

بوجوب المضى فى العمل و إجراء التغييرات اللازمة لإنشاء البريد الجديد[(١)] . وقبيل انتهاء الحكم المصرى فى الشام أمر العزيز بانشاء أبراج للاشارة بين مصر والعريش ورأى أن المصلحة تقضى بإكمال هذه السلسلة وأنشأ أبراج للاشارة بين العريش وعكة[(٢)] . وكان سليمان باشا الفرنساوى قد اقترح على سامى بك معاون العزيز إنشاء طريق تصل بيروت بدمشق وطريق أخرى تربط قرنايل ببيروت[(٣)] .

وأراد إبراهيم إصلاحا حقيقيا فوقب الإدارة الجديدة رقوبا شديدا وتفهم ضعفها فكتب مرارا وتكرارا الى القاهرة يشكو الاضطراب الذى وقع فى هـذه الإدارة ويعزو ذلك إلى إهمال الموظفين وانصرافهم عن المصالح العامة الى ملذاتهم وشؤونهم الشخصية ومن هؤلاء محمد شريف باشا واسماعيل عاصم بك . وتولى تفتيش الإدارة بنفسه فألفاها ملوثة تلويثا ووجد بحرى بك مهملا ولمس تراكم أعمال المجلس فى دمشق سنة ونصف سـنة فأمر بحبس أعضائه فى قاعة المجلس الى أن يتموا رؤية الشؤون الموقوفة . وشكى ارتباك الأمور فى أيالة صيدا بنوع خاص فأفاد أن رجلا أتى اليه وادّعى أنه بامكانه أن يثبت أن متسلم غزة اختلس ما لا يقل عن ألفى كيس وأنه قرر أن يقضى فصل الشتاء فى أيالة صيدا للاعتناء بشؤونها . وكتب فى إحدى رسائله الى معاون العزيز يقول : "أخى ، تعلمون أنى مريض أتمتع بالصحة يوما فينتابنى المرض يومين وأنى أتنقل من محل الى آخر لإخماد الثورات التى تظهر بدون انقطاع ولذا فإنى لا أقدر على إدارة الشؤون العسكرية والمدنية فى آن واحد . فلا بدّ والحالة هذه من تعيين شخص يكرس وقته للشؤون المدنية . و إنى أرى فى شرمى أفندى خير

(١) عابدين محفظة ٢٥٨ رقم ٢٤٦ ومحفظة ٢٥٩ رقم ١١ وعابدين دفتر ٢١٤ رقم ٣٦٦ : المحفوظات ج ٤ ص ٢٨٨ و ٢٩٨ و ٣٠٨ .

(٢) عابدين دفتر ٢١٤ رقم ٤٨٩ : المحفوظات ج ٤ ص ٤٥٨ .

(٣) عابدين محفظة ٢٥٤ رقم ٢٦٥ : المحفوظات ج ٣ ص ١٦٨ .

من يقوم بهذه المهمة . فإذا وافقت الإرادة السنية على تعيينه قام هو فى التفتيش وقمنا نحن بتفتيش آرائه[1]" .

والغريب المستغرب أن القائد العظيم شكى كل هذا ولكنه لم يربط بينه وبين تأخر مرتبات هؤلاء الموظفين تأخرا قد لا نجد مبررا له . قال رحمه الله فى الرد على الخطاب الذى التمس فيه الحكدار صرف مرتبات نظار المستودعات مرة كل أربعة أشهر : "أيها الباشا إذا كان لهؤلاء طلب فلنا واحد وعشرون مرتبا . وقد كتبت اليك غير مرة فى مسألة النقود وكانت تأتى منك كتب يحتوى كل منها على أربع مائة سطر لا ذكر فيها للنقود . وهل يرضى الله تعالى أن ينام الناس فى أحضان أزواجهم ويظل الجنود التعساء تائهين فى الجبال وبين الصخور وليس لديهم نقود" . وكتب الى الأمير بشير فى الموضوع نفسه مانصه بالحرف : "وردت ورقتكم المتضمنة خصوص استنظار العيسوية من شأن صدقة . ياميرا يلزم فى هذا الخصوص تحملم علينا . فى الواقع يقولوا الصدقات ترد البلاد وتزيد العمر . ولكن فى حقنا العسكر بقا لهم واحد وعشرين شهر لم أخذوا نصف فضة . وقال بحرى بك فى كتاب رفعه الى ابراهيم باشا ما معناه : لقد تفضلتم فى أثناء وجودكم فى هذه الجهة فأصدرتم إرادتكم العلية بصرف مرتب شهرين من مرتبات الموظفين الملكيين بعد صرف مرتبات أربعة شهور للعساكر . والآن وقد تم صرف مرتبات أربعة شهور للعساكر فانى أعرض ما يلى :

إن الموظفين الملكيين مثل المتسلم والكاتب أصبحوا فى حاجة الى قوتهم اليومى من جراء عدم صرف مرتباتهم الموقوفة . وحيث أنهم أصحاب أولاد وليس لهم مورد رزق آخر فلا يبعد والحالة هذه أن يفتروا عن أداء الواجب وأن يمدوا بضغط

---

(١) عابدين محفظة ٢٥٦ رقم ١٣٣ : المحفوظات ج ٣ ص ٤١٧ — ٤١٨

(٢) عابدين محفظة ٢٥٨ رقم ٤٣ و ٤٩ : المحفوظات ج ٤ ص ٢٠٦ و ٢٠٨

الضرورة أيدى العبث والتطاول الى المصالح الأميرية المحوّلة إلى عهدتهم والى أموال الأهالى . ولذلك فإنى أقترح ما يأتى : يصرف مرتب شهرين لمن أوقف مرتباتهم ستة أشهر ثم يصرف مرتب شهر واحد فى كل شهرين كما هو جار مع أفراد الجيش (١) .

ولم يكتف إبراهيم بمثل هذه المطالبات الرسمية ، فإنه هدّد أكثر من مرة بالاستقالة فكان لتهديداته وقع أليم فى نفس والده " ولا سيما وأن هذه التهديدات صدرت عن ابن العزيز الذى هو من صلبه " (٢) .

هذه هى حكومة العزيز فى الشام ومميزاتها الكبرى إنها كانت حكومة قوية أحلت النظام محل الفوضى والارتباك . قال إبراهيم عن حكمه لمرعش وأورفة : "إننى فى خلال المدّة التى وليت فيها القيام بخدمة الجناب العالى الخديوى لم أتسبب فى أذية أى إنسان ولم أعمد إلى إيقاع الضرر بملك أو مال أى فرد من الناس . وهذا أمر يعرفه جميع أولى الأبصار كما يعرفه جميع أهالى البلدان التى جبتها وأهالى البلدة التى أقيم فيها الآن . ولما كنت أعامل الضباط والعساكر حسب نصوص القوانين ولا أحيد عنها فى علاقتى معهم قيد شعرة فقد اقتفوا هم أيضا أثرى ولم ينحرفوا عن هذه القوانين . إننى وإن كنت لم آت بعد أورفة فإننى منذ عشرة أشهر أقيم فى مرعش ولقد أعلن وجوه الأهالى فى مرعش المرة بعد المرة أنهم لم يتمتعوا طيلة حياتهم بمثل حكمنا العادل . أعلنوا هذا فى أسواق البلدة وفى جامعها الكبير وهم يقولون لقد كانوا فى العهد السابق يستولون على ما فى بنادرنا من غلال وينهبون أثمار بساتيننا وهب الله سلطاننا العمر الذى لا يفنى وعساه ألا يحرمنا من وزيرنا هذا العادل أى العزيز نفسه ذلك أننا لا نعاملهم كما كانوا يعاملون قبلا

(١) عابدين محفظة ٢٥٧ رقم ٢٩ : المحفوظات ج ٤ ص ٢٦ — ٢٧ .

(٢) عابدين محفظة ٢٤٨ رقم ١٧٩ : المحفوظات ج ٢ ص ٢٨١ .

من حيث التجنى عليهم وإتهامهـم بدون حق لغرض ما . والأهالى الآن يؤدون الويركو على نحو ما هو مسجل فى سجلات المحاكم لا أكثر ولا أقل. إننى أدفع أثمان جميع حاجياتى اللهم إلا إيجار المنزل الذى أقيم فيه وثمن المـاء الذى أشـتريه وأنا متكفل أمر استقامة العساكر وحسن سيرهم"[(١)] .

ومن ميزات هذه الحكومة أنها كانت تميل إلى المشاورة فى الأمور قبل إبرامها وإنها كانت متنورة تحب العلم وتشجع طلابه موظفين وعاديين وقـد أشرنا سابقا إلى ترقيـة الضباط الذين أثبتوا مقـدرتهم على القـراءة والكتابة . ونزيد الآن أن الحكمدار كتب مرة إلى معاون العزيز يفيـد أنه أعلن لمن يعنيه الأمر من موظفى الحكومة فى بر الشام استعداد ديوان المدارس لبيع بعض الكتب التى كانت تطبع فى بولاق وإنه مقـدّم لنا القوائم التى وردت عليـه من الشام وحلب وطرابلس واللازقية وغزة ويافه : أما الكتب المطلوبة فهى قانون الصناعة وعقرب الساعة وكتاب الحكمة وعلم الحساب وتاريخ أميركة وكتاب المعاون والتشريح البشرى وقلائد المفاخر وعقـد الجمان وشرح المثنوى وكليلة ودمنـة وتاريخ قدماء الفلاسفة وتاريخ الإسكندر وتاريخ المصريين والجغرافيـة الطبيعيـة وكتاب الطبيعة وأخلاق علائى وكتاب الطاعون وكتاب الفطر وتاريخ إيطاليا وابن عقيل وتطعيم الجدرى والتشريح العام ورحلة الشيخ رفاعة وقانون الزراعة وإنشاء الشيخ عطار وكتاب المنطق وصناعة الأقرباذين واللوغرتمة وجر الأثقال وتاريخ الأديان وكتاب الجراحة والفسيولوجية والبتالوجية[(٢)] . ونرى حنا بحرى بك ينوه بأهميـة تاريخ ابن خلدون ويذكر المساعى التى أمر الجناب العالى ببذلها لاستنساخه عن نسخ المغروب ولنقـله إلى التركية ثم يرجو التفضل بإرسال ما ترجم منه كى يمرّن أولاده عليه ويعلمهم أصوله[(٣)] . وقـد

---

(١) عابدين محفظة ٢٥٩ رقم ٢٣ : المحفوظات ج ٤ ص ٣٠٥ .

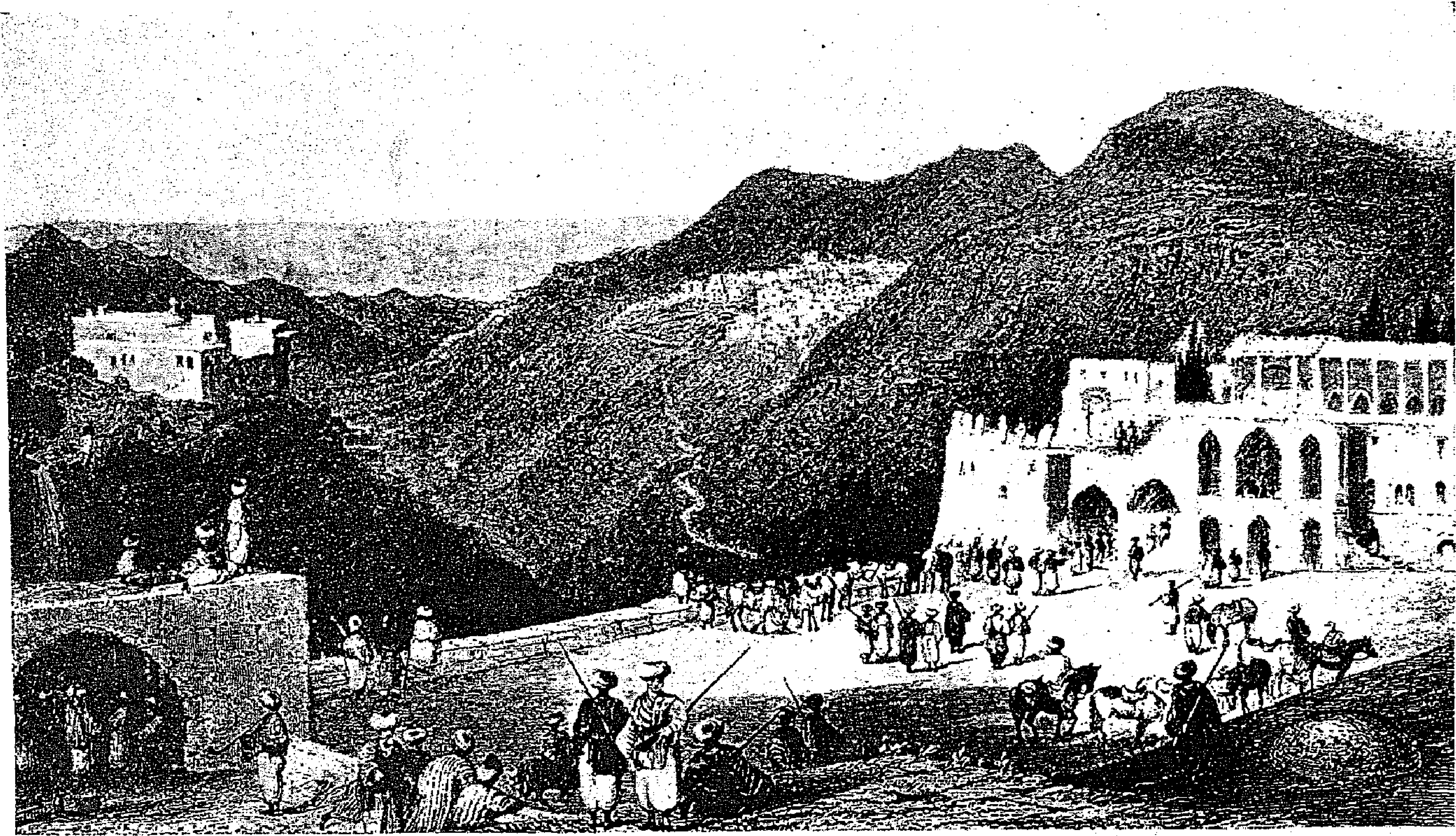
(٢) عابدين محفظة ٢٥٧ رقم ٢٠٤ : المحفوظات ج ٤ ص ١٧٦ — ١٧٧ .

(٣) عابدين محفظة ٢٥٩ رقم ٥٧ : المحفوظات ج ٤ ص ٣١٧ .

أشرنا سابقا إلى اهتمام هذه الحكومة بالصحة العامّة أن من حيث إنشاء المستشفيات أو من حيث تطبيق قوانين الصحة .

ولعل أبهج ميزات هذه الحكومة وأقربها إلى نزعة العرب في هذه الأيام أنها سبقت أخواتها في سائر الأقطار العربيـة في ميدان الوطنيـة والعروبة . فقدّمت الوطني على الأجنبي كما سبق فقلنا وعنيت بطبع الكتب العربية و بنشرها بين الناس وقبلت العرب في الوظائف الهامة وقللت الأتراك .

عن بيروت في ١٥ أيلول سنة ١٩٤٨



بيت الدين

القسم الثاني

التاريخ الحربي

الجيش الذى قاده ابراهيم

للبكباشى عبد الرحمن زكى مدير المتحف الحربى

لم يرث محمد على ملكا موطد الدعائم منظم الأركان . ولم يهبه الله دولة كاملة الموارد مستحوذة للسيادة ! بل أتى إلى مصر — كما لا يجهل أحد — ضابطا برتبة البكباشى ضمن أفراد حملة تركية ، ابتغاء طرد الأعداء من أرض الوطن .

وما زال يدرج به الحال ، حتى استقرت له الأمور ، وأسلس اليه القياد ، بما أحرز من فطنة بادية ، وبما تحلى من شخصية ظاهرة . وصار على رأس وادى النيل ، الربان الأمين ، يوجه السفين بيد حكيمة ، وعين بصيرة ، رغم ما تحوطه من أنواء عصافة ، وأمواج هدارة .

وأحس بشىء فى أعماقه يربط مصر بحياته ، ويستحثه لأن يخلص لها الحب ، ويوفى إليها بالجهاد . فنذر لها العمر بما فيه من بذل وجهد وتضحية .

فانطلق يقطع الشوط تلو الشوط — منافحا ومجاهدا — سنين طويلة ليجعلها أمة خليقة بالاستقلال ، جديرة بالحياة . وقد واتاه التوفيق بل ما هو أكثر من التوفيق ، وظفر بتحقيق ما ساور رأسه من أمان . رغم ألوان الصعاب التى واجهته ، وأشتات المتاعب التى بثت فى طريقه .

وغنى عن القول إن إنشاء الجيش المصرى كان الدعامة الأولى التى حقق بها معظم أمنياته ، بعد إصلاحه أداة الحكم فى مصر ، واكتسابه عطف العالم الإسلامى ، ثم عنايته برفع مستوى البلاد الاقتصادى .

فكيف تهيأ لهذا العاهل الكبير إعداد مثل هذا الجيش الذى تشيد صفحات التاريخ بمفاخره ، وتكاد تنحنى هامة الزمن قبالة فتوحاته . كيف عالج هذا القائد

الأسباب والمسببات التى أفضت به إلى الحصول على " إدارة عسكرية " كانت لها صولة وجولة ، فى عهدها المنصرم ! ؟

ينبغى أن نعود إلى الماضى، ونقفو آثار الخطوات التى انتهجت، والممهدات التى اختطت ، ففيها الضوء ، وعليها الإبانة .

من البداهة بمكان، إنه لم يك فى مصر جيش منظم يستند عليه محمد على، لتأسيس ملكه الجديد . فبذل همه، مذ تبوّأ الولاية، فى تهيئة جيش وطنى من أشبال البلاد.

ولكن مثل هذه الفكرة الصائبة بيّتها فى نفسه متحيّنا الفرصة الملائمة لتنفيذها، ورأى من الحكمة — مهما استطال الوقت — ألا يتعجل فى إيقاظها . وظل يستخدم جنوده من أخلاط الأجناس العثمانية فى حروبه لمعاونة سلطان العثمانيين ، فى بلاد العرب واليونان ، وفى حملته السودانية . وكانت هذه الجيوش تنتهج الأساليب الحربية العتيقة ، سواء فى مطالب التسليح أو طرائق القتال . حتى إذا خرج ابنه القائد إبراهيم ظافرا ، أقدم الوالد بما أوتى من الشجاعة الأدبية، والسعة الفكرية ، على تحطيم آلته الحربية القديمة ، ليستبدل بها آلة أخرى من نوع مستحدث .

وشرع محمد على بالفعل — وقد اختمرت الفكرة — فى تنفيذ الخطة . و بمعنى أوضح لكى يهيئ فى وادى النيل جيشا جديدا مدرّبا على أحدث القواعد والنظم العسكرية .

واستهل محمد على سبيله الشائك بأن راح يقنع قوّاد الجندية بأفضلية النظام المبتغى ومازال بهم حتى أفضى الأمر أن يتقبله بعضهم . فلم يأت أغسطس عام ١٨١٥ حتى أشاع رغبته الملحة على رؤس الأشهاد، وصحبها بما يتسمى بـ"التنفيد".

وقد وصف الجبرتى مؤرخ ذلك العصر ما حدث من الجند عقب المحاولة الأولى التى أرداها الفشل، ونراه يسجله بين أحداث (٢٥ شعبان عام ١٢٣١ هـ — ٣ أغسطس عام ١٨١٥ م) فيقول :

" أمر الباشا جميع العساكر بالخروج إلى الميدان قبيل الفجر للتعليم على طريقة الإفرنج إلى الضحوة فأخذوا فى الرماحة والبندقيــة المتواصلة المتتابعــة مثل الرعود ورجعوا داخلين فى المدينة فى كبكبة عظيمة وداسوا أشخاصا بخيولهم بل وحميرا أيضا".

وقد دبر الجنود غير النظاميين مؤامرة وسيعة النطاق بين جوانح القاهرة فى وجه هـذا المشروع الجرىء . فنشهدهم ينسابون أو يتوزعون فى طرق المدينــة ينهبون ويهشمون بل ويقتلون كل ما صادفهم فى طريقهم . ولولا الذين تصدّوا لهم من الأهالى بالبنادق، وغلق أبواب الأحياء والمتاجر، لكانت الحال أفظع ! .

ولكن قابل محمد على هذه الحركة اللافحة بسمات الحلم والأناة . وتسنى له أن يستغل تلك الحوادث المنكرة لخـدمة مشروعه العظيم . وبادر إلى إبداء مظـاهر استيائه وعوامل استنكاره بما اقترفه المتمردون — وأكثرهم من شبان المماليك والألبان — وقرّر تعويض جميع التجار الذين نهبت حوانيتهـم ، مما جعل الشعب يلهج بالثناء عليه ، ويسخط على الجند المتمردين . بل وكان فى هذا العمل دعاية طيبة " للنظام الحديث " .

وطفق الباشا يهيئ الوسائل لإدخال ذلك النظام ، الذى لم يقـدم على تنفيذه إلا سـنة ١٨٢٠، بينما كان يتحين الفرص تدريجيا للتخلص من أدران الجنود غير النظاميين ، وإبعادهم عن القاهرة، حتى لا يكون احتشادهم فيها عونا على تمردهم ، وباعثا لتجديد الفتن ، فوزعهم على الثغور المختلفة .

وفى هذا السياق نأتى على ما سطره الجبرتى فى حوادث عاشر المحرم سنة ١٢٣١ — ١٢ ديسمبر ١٨١٥ :

"رجع الباشا من الإسكندرية وأوّل ما بدأ به إخراج الجنود مع ضباطهم الى شمال الدلتا وجهة البحيرة والثغور فنصبوا خيامهم بالبر الغربى والشرقى تجاه الرحمانية وأخذوا صحبتهم مدافع وبارود وآلات الحرب واستمر خروجهم على دفعات كل يوم وذلك

لإبعادهم عن مصر جزاء فعلتهم المتقدمة واستهل ربيع الأول عام ١٢٣١ هـ وفيه سافر طوسون باشا وأخوه إسماعيل باشا الى ناحية رشيد ونصبوا خيامهما (عرضيهما) عند الحماد وناحية أبي منذور (من أعمال مركز دسوق) وذلك لكى يدخل على الجند أنه أخرج معهم أثقاله للمحافظة ومعهم الكثيرون من كبراء البلاد الى جهة البحر الشرقى ودمياط» .

وقال عن بناء الثكنات للجنود الذين شتتهم محمد على بالأقاليم : إن الباشا أمر ببناء مساكن للجند الذين أخرجهم من مصر بالأقاليم يسمونها القشلاقات بكل جهة من الأقاليم لسكن الجند المقيمين بالنواحى لتضررهم من الإقامة الطويلة بالخيام فى الصيف والشتاء واحتياج الخيام فى كل حين الى المحافظة والعناية بها .

واضطلع محمد على بمحاولة ثانية — وهو الصبور الذى لا ييأس — عقب حملته فى السودان ، فأمر بجلب عدد من السودانيين ليجندهم ، غير أن المرض أنشب أظفاره فى جسومهم ، حتى كاد يستأصل شأفتهم . فأخفقت تجربته الثانية .

فلم يتبق قبالة محمد على — والحالة هذه — إلا أن يرجع الى الأمر الطبيعى ، وأن يعهد بالدفاع عن مصر الى سواعد بنيها البررة .

وكان أن أنشئ المعسكر الأول لتدريب النواة الأولى للجيش فى ربوع اسوان . وتشاء الظروف المواتية أن يصل الكابتن سيف الى مصر ، فيطلب اليه أن يكون رئيس المدربين العسكريين فى المعسكر الجديد . ثم بعث بابنه إبراهيم ليشرف على تدريب الغلمان الذين يعهد اليهم فى قابل حياتهم مهمة تدريب الجند (يوليو عام ١٨٢٠) .

وفى الثالث من أكتوبر عام ١٨٢١ (٦ محرم ١٢٣٧ هـ) صدر أمر من لدن محمد على باشا الى محمد بك لاظ أوغلو ناظر الجهادية ، أشار به الى تعيين أمين أفندى المعمارى للقيام ببناء ثكنات اسوان ، تسع كل ثكنة ألفى جندى ، على أن تبعد الواحدة

عن الأخرى مدى ربع ساعة . وأمره بأن يتعاون مع أحمـد باشا طاهر متصرف جرجا، لكى يستكمل العمل سريعا .

وفى التاسع عشر من أكتوبر من العام الآنف (١٢ المحرم) صـدر أمره الى مدير دنقلة لتشييد ثكن بالصعيد الأعلى بمعرفة محمـد بك لاظ أوغلو، ليكون مأوى السودانيين المجندين من السودان، وأوصاه ببذل ما يستطاع من الجهد والهمة . ولم ينس أن يكتب الى محمود بك مدير بربر وشندى يشير له باستعمال الوسائط الضرورية للعناية برفاهية السودانيين ومأكلهم ومشربهم وسفرهم برا وبحرا ؛ لأنه وصل الى مسامعه نزول تلف جسيم بهـم فى خلال الطريق . كما أشار — فى خطاب بنفس المعنى — الى نجـله إبراهيم باشا والى جدّة وأمره بوضـع النظم والتسهيلات التى تكفل تسيير أحوالهم فى متباين الظروف .

وفى نفس الوقت (١٣ المحرم ١٢٣٨ ﻫ) صدر أمر من محمد على الى محمد بك لاظ أوغلو ذكر فيه أنه انتخبه دون سواه لوثوقه به ناظرا على الجهادية — مؤسسته الجديدة — ومن معه من الضباط المعينين وأغلبهم من غلمانه الذين رباهم ، وأن له أملا أن يسلكوا السلوك الحميد .

ميلاد النظام العسكرى فى وادى النيل

وفى السابع عشر من شهر فبراير عام ١٨٢٢ (٢٥ جمـادى الأولى ١٢٣٧ ﻫ) صدر أمر من محمد على الى أحمد باشا طاهر ذكر له فيه أنه لضرورة إعادة الجنود الترك من السودان لعدم تحملهم حر البلاد استصوب جمع أربعـة آلاف مصرى من الوجه القبلى لينضموا الى محمد بك لاظ أوغلى ناظر النظام العسكرى، ومن يجمع يرسل الى سليمان بك أغا (الفرنسى) معـلم الجنود باسوان، لتعليمهم حسب مقتضيات النظام الجديد . وبعد خدمتهم ثلاث سنوات يعودون لبلادهم ويعافون من جميع التكليفات . وإنمـا يعتدون من الجنود ما داموا على قيـد الحياة . وكان هـذا أوّل تأسيس للنظام العسكرى بمصر .

ومثل هذا النظام الحدث، كان بحاجة ماسة الى إقناع القائمين به قبل سواهم بقيمته، و توجيه نظرهم الى أهميته، وما يعقد من الآمال على نتائجه، لكى يعنوا به عناية وفيرة ويؤتى ثماره . ولذا لم يك بدعا حين نرى محمدا عليا يبعث برسائله فى هذا المعنى الى المختصين .

فمن رسالة وجهها الى ناظر مصلحتى اسوان وفرشوط يقول :

” لقد اقتضت التجليات الإلهية التى أظهر الله فينا آياتها أن يخرج هذا الأثر الجليل — أى النظام الجهادى الجديد — من حيز القول الى حيز الفعل فى زمان شيخوختنا فماذا عسانا صانعون ؟ ... اللهم إلا أن نكون قد أدّينا على قدر كبرنا خدمة للدين المبين وأن نكون قد ضاعفنا ما اكتسبنا من مجد وشهرة “ .

وجاء فى رسالة أخرى كتبها لابنه إبراهيم بمناسبة تجنيد الفلاحين ما يلى :

الى مولانا صاحب الدولة إبراهيم باشا (١)

لما كتبنا الى أحمد باشا متصرف جرجا والى محمد بك ناظر مصلحتى أسوان وفرشوط أمر جلب وجمع الأفراد المعلمين المراد تدريبهم من الأقاليم الصعيدية أدرجنا لهم وسطرنا أن يفهموا من مقتضى الحال أنها مهم أن يكون كل واحد من هؤلاء الأفراد متوطنا فى القرية التى يجلب منها و إذا أهل وسكن فيها وليس من أولئك الدخلاء الشاردين الذين لا يضبطهم رش ولا يقفهم زمام وأن يحرّر هؤلاء الأفراد بمعرفة حكام أقاليمهم وبكفالة شيوخ قراهم بحيث يكونون مستقرين فى أماكنهم مهيئين للطلب وأن يثبت فى الدفتر أسماء قراهم وأسماؤهم وأسماء آبائهم وأنهم سيستخدمون ثلاث سنين و يعطون فى أثناء خدمتهم لحما وأرزا مفلفلا مرتين فى الأسبوع ومرتبا قدره ثمانية قروش كل شهر والكسى اللازمة لهم فى كل عام ثم يطلقون ويسرحون بعد السنين الثلاث وتسلم إليهم وثائق مختومه تتيح لهم الإقامة فى قراهم معافين من التكاليف .

---

(١) المكاتبة التركية رقم ١٦٨ دفتر ١٠ معية تركى بتاريخ ٦ رجب سنة ١٢٣٧ ﻫ (مارس ١٨٢٢) .



ابراهيم باشا

وقد جاءنا والحالة هذه عثمان أغا "أمين ملابسنا"[1] فقال لنا إن الفلاحين المتوطنين لا يحترزون بل سيفرون وأن متصرف جرجا وناظر مصلحتى أسوان وفرشوط يشاهدان هذه الحالة فيميلان الى تحرير الفلاحين الدخلاء . وأنه اتخذ طريقا يمر بكم فعرج عليكم وأخبركم بما هو واقع ومع أن هـذه المصلحة الخيرية ظاهر أنها من الأمور الدينيـة وبديهى وظاهر أنها على كل حال ستكون موجهة للسعادة إلا أنه لما لم يكن من عادة الفلاح ولا من طبعه أن يقبل على هـذا الأمر فلم يكن ثمـة ما يوجب إرغامه عليـه ولا معاملته بالعنف فيـه بل كان يلزم تحـرير الفلاحين وتجنيدهم باستدراج عقولهم إليه وذلك بتفهيمهم تدريجا أنه أمر منطوٍ على الخير ويملأ آذانهـم بالأقوال التى تستوجب حسن قبولهم إياه وقد يكون ذلك بوساطة الواعظين والفقهاء الذين يمرنونهم على الانعطاف إليه وتولية وجوههم شطره فالذى يلوح لى هو أنه لم يشرع فى إنشاء أساس هذه المصلحة على هذا الوجه الذى تتطلبه طبيعة العمل فيهـا بل اعتبرت كمسائل السخرة وعولجت كيفما اتفق فكان هـذا داعيا الى إباء الفلاح وامتناعه . وعلى هذا التقدير فلو كتبتم سعادتكم الى متصرف جرجا والى ناظر مصلحتى أسوان وفرشوط بمراعاة قاعدة التدرّج وعدم اتخاذ سبيل الجهر فى التجنيد بل تلقين الفلاحين وملء آذانهـم واستدراك أذهانهـم بواسطة الوعاظ والفقهاء ولـو أن الطرق التى من شأنها جلب الفلاحين أرشـد إليها ودل عليها لكان من البديهى أن يقترن هذا العمل بالتنفيذ على وجه السهولة كما أن من البديهى أنه لو ذكر الفلاحون مثـلا بأن الفرنساويين لمـا أرادوا أخذ عسكر من القبط لم يخالف القبط فى ذلك ولم يتخلفوا عنه نظرا لمـا هو معلوم من غيرتهم على الكفر فاذا كان هذا شأن القبط فلا بدّ من أن الفلاحين الذين شرفوا بنور الإيمان تأخذهم الغـيرة على ذلك فـلا يمتنعون عن قبول هـذه المصلحة الخيرية لمـا خلا تذكيرهم بمثل هذه الأقوال من الفائدة . فاذا سارت الحـال على هذا النهج فحينئذ لا يحـترز الجنود من الدخلاء الشاردين بل يقيدون كما نفضل ونستصوب من

(١) اللواء عثمان نور الدين باشا فيما بعد .

المتوطنين المستقرين وعلى هذا فان مما يوافق المصلحة أن تتذاكروا وتبحثوا مع أهل المجلس ثم تكتبوا الى كل من الموما إليهما رسالة على الوجه المحرر بعاليه " .

سير العمل فى المعسكر .

وحين أقبل الثامن عشر من رجب عام سنة ١٢٣٧هـ (١٠ أبريل سنة ١٨٢٢) صدر أمر من محمد على الى ابراهيم أبان فيه عن وصول تقرير من سليمان أغا ومن أحمد أفندى المهندس ومن عثمان نور الدين، أساتذة العلوم العسكرية، عن تشكيل وتهيئة النظام الجديد — وعلم منه أن مشروعه ينطوى على تأليف أورطتين مكونتين من ١٩٤٣ جنديا بقيادة لواء . وهذا الترتيب اتبعه نابليون على مقياس كبير وهو لا يوافق عليه، ويرى أن يجتمع لديه الضباط لوضع ترتيب التشكيلات العسكرية . وفى خطاب آخر نرى محمدا عليا يبدى الموافقة على شريطة أن يؤلف الآلاى من ألف الى ألف ومائتى جندى على غرار ترتيب السلطان سليم العثمانى .

الوحدات العسكرية الجديدة

وكان ناظر الجهادية على اتصال مستمر بالباشا — يبلغه نتيجة أوامره أوّلا بأوّل ، ويفيده بما يتم إنشاؤه من الوحدات الجديدة . والوثيقة الآتية تبين لنا تأييد هذا الرأى[١] .

من الجناب العالى إلى ناظر مصالح اسوان وفرشوط :

قد علمنا من مكاتبتكم الواردة أنه صار تنظيم الأمور اللازمة للأورطة المنشاة فى اسوان وفرشوط بحسب الحاجة وانضمام رأى حضرة صاحب العطوفة نجلنا الباشا والى جدة وأن نجلنا الباشا المذكور قد عاد إلى مصر وأنكم قصدتم إلى اسوان ولما وصلتم إليها أنشأتم ثلاثة أورط أخرى فبلغ مجموع الأورط أربع عشرة أورطة

(١) وثيقة تركية رقم ٣٧١ دفتر رقم ١٠ معية تركى ورقة ٧٢ بتاريخ ٢٤ ذى الحجة ١٢٣٧ هـ (١١ سبتمبر ١٨٢٢) .

وأن الأغوات الموجودين لدى خورشيد أغا والقائمين بتعلم فن الهندسة صار قيدهم فى الأورط وأن الذين يقومون منهم بالواجب تبـذل لهم الرعاية والاحترام والذين لا يقومون بالواجب يسرحون . وأنه ورد من لدن نجلنا الباشا سر عسكر السودان ٩٥٠ نفرا من العبيـد على دفعتين فوزع منهـم ٧٥٠ على الأورط كما إنه ورد منى طرف نجلنا الباشا السر عسكر المشار اليه ٤٥٠ جمـلا فقام حاكم بربر بسوقها نحوكم إلا أن عربان البشارة قطعوا عليها الطريق واعترضوا مسيرها واستولوا عليها فنبلغكم سرورنا وحبورنا من غيرتكم وحميتكم المشهورتين ولا يخفى عليكم أنى منتظر منكم الأخبار كل خمسة عشر يوما لما تقتضيه الظروف الحالية وعليه يجب أن تبادروا الى بذل حميتكم فى إشعارنا و إبلاغنا أخبار تلك الجهات كل خمسة عشر يوما بانتظام .

أوامر محمد على إلى ضباطه (1)

وفى ١٢ المحرم ١٢٣٨ هـ (٢٩ سبتمبر ١٨٢٢ م) وجّه محمد على الى نواة ضباط جيشه الجديد بأسوان رسالة تفصح عما فى مكنون نفسه للنهوض بدولته الجديدة — قال لهـم :

مرسوم إلى ضباط الجيش بأسوان

اليكم يامفاخر الأماثل والأقران بكباشية جنودنا الجهادية المقيمين فى اسوان وضباطهم من رتبة الصاغ قول أغاسى والصول قول أغاسى واليوز باشى والملازمين وحاملى الأعلام والضباط الآخرين ... نبلغكم أن سلك الجهادية الشريف هو أعز المسالك وأكرمها من الوجهتين الدينية والشعبية وأن الشئون الحربية هى أهم الشئون والمصالح بالنسبة للحكومة والوطن . وقـد أثنى الله سبحانه وتعالى أحسن الثناء على من سلكوا هذا المسلك القويم فى قرآنه الكريم و بين نبينا الكريم المبعوث للإنس والجنّ كافـة فى حديثه الشريف مقدار ما يصيب سالكو هـذا الطريق من العزة والشرف والسعادة من كل الوجوه .

(١) وثيقة تركية رقم ٣٧٥ — دفتر رقم ١٠ معية تركى بتاريخ ١٢ محرم سنة ١٢٣٨ هـ (٢٩ سبتمبر سنة ١٨٢٢ م) .

يا أيها البكباشية وغيرهم ... لقد واتاكم السعد ونالكم الحظ الأوفر وأمدكم التوفيق الأزلى لجاء كل منكم وأصبح مظهرا للطف والعناية ومصدرا للشرف والسعادة كل على قدرها وتراعوا حقوقها فهذا التقدير وهذه المراعاة لا يكونان مرة أخرى إلا إذا تركتم عاداتكم التى كنتم مطبوعين عليها ونبذتموها ظهريا وتشبثتم بقواعد المسلك الجديد والحمد لله فكل منكم محترم الجانب مرعى الخاطر وكل قوانينكم ونظمكم موافقة فارجعوا الى أنفسكم واقرؤا ضمائركم واعملوا بمقتضى الرجولة واسلكوا سبيلكم بمقتضى الإنسانية ... وليقم كل منكم ببذل همته فى أمور تعليم وتدريب الموجودين فى أورطتكم ولا يهملان فى ذلك وليسع الى أن يكون كل شيء منظما أحسن نظام وفقا لقوانينكم وقواعدكم المقرّرة .

أما ناظركم محمد بك : فهو رجلى الأمين الوفى وهو ناظركم الرؤف بكم كأنه أبوكم فرضاؤه رضائى و إدارته إدارتى . فلا تخرجوا من رأيه ولا تحرفوا عن طاعته ولا تحيدوا عن إدارته بأى حال من الأحوال . ويقضى واجبكم بأن تكونوا يدا واحدة فتقوموا بالاتحاد على إجراء ما يوافق القانون والنظام والابتعاد عن كل ما يخالفها واصرفوا رويتكم فى تنفيذ هذا النظام ولا تغفلوا عنه ولا تهملوا فيه أبدا . وقصارى القول إن ما نؤمله فيكم أن تراعوا المواد التى ذكرتها لكم وهذا ما دعانا الى تسطير مرسومنا هذا و إرساله اليكم فلدى وصوله بمشيئة الله تعالى اقرءوه وكلكم حاضرون واعملوا بمقتضاه " .

الجيش فى نظر محمد على

وحدث أن بلغ محمد على أن بعض رجال الجيش فى أسوان قد ارتكبوا بعض الذنوب — فكتب الى ناظر اسوان وفرشوط يبسط له الرأى الذى ينتهجه فى علاج هذه الحالة الطارئة و يلقى على عاتقه تصفية مجرى الأمور ... فيقول[1] :

---

(١) وثيقة تركية رقم ٣٧٦ دفتر رقم ١٠ معية تركية (ورقة ٤٧) بتاريخ ١٣ محرم سنة ١٢٣٨ هـ (٣٠ سبتمبر سنة ١٨٢٢) .

من الجناب العالى الى ناظر اسوان وفرشوط

تعلمون أن المصالح العسكرية الجليلة أهم من كل أمورنا وشئوننا وقد توفقنا الى تنظيمها وتسوية أمورها وأن تنفيذ هذه النظم مناط على اهتمام رجالنا الصادقين وبناء على ذلك قد انتخبتك من بين أولئك الصادقين وأحلت عليك هذه المهمة الجليلة ... إن فريقا من الأغوات المماليك قد عنيت بتربيتهم ونشأتهم و يغلب على ظنى أنهم وصلوا الى درجة الرجولة ونضجوا وأظنهم قاموا بتعليم هذه الرجولة الى الفريق الآخر . فان كان الأمر كذلك حقا فلا بدّ أن يقدّر أولئك الذين عنيت بتربيتهم هذه النعمة حق قدرها و يراعوا حقوق هذه العادة فان قيام واحد من بينهم بعمل ينافى مبدأ الرجولة لسبب قلة أدبه وعقله أو سلك طريقه مخالفا للشروط فلا يقتضى إلا تسريح أمثال هذا الرجل وأن العقلاء الذين يديرون حركة مثل هذه الجماعة لم يراعوا الخاطر فى وقت ما أبدا ولم يظاهروا قط أولئك الذين يتسببون فى الإخلال بروح المصلحة، ولو كان أخاهم، لا بل أبرهم ؛ فاذا تقرر ذلك فانى أيضا شديد الأمل أنهم لايظاهرون أحدا من بين الذين ربيتهم ونشأتهم من أمثال أولئك السفهاء قليلى الأدب والإدراك و إذا ما دعى أحد رجالى المعتمدين لدى . وقال : إنى و إن كنت لا أظاهر فلانا ولكن كيف أصل الى إفهامه الكلام وهو عديم الفهم قليل الإدراك . ففى هذه الحالة لا يقتضى بقاء مثل هذا القليل الفهم ثمة فان كان ذا شارب فدائرة أغوات الحرم مفتحة الأبواب فأرسلوه الينا وليأت ليكون أغا للحرم و إن كان لما ينبت شاربه فالحقوه بالحاج حسين أفندى الموجود فى ذلك الجانب ليتعلم و إذا ما ظاهر أحد من رجالى الذين أعتمد عليهم واحدا من ذوى العقول الغليظة بسابق الشبوبية وأهمل فى إبعاده ثم ظهرت بادرة منه من وقت ما مخالفة للشروط بسابق قلة الإدراك واقتضى الأمر مس المصلحة التى أوجدتها بالتعب والمشقة فى ذلك الوقت يعجز رجلى المعتمد الذى ظاهر ذلك الشخص عن الاجابة ولا ينجو ذلك الشخص من يدى .

انظروا يا أولادى...لقد جاهدت سبعا وثلاثين سنة حتى أوجدت هذه الجماعة بأمل إسداء خدمة لديننا الدين المحمدى لخدمتكم و إذا كانت من الظاهر لنا فهى فى الحقيقة لله ورسول الله . لو كنتم تقدّرون قدر هذه الخدمة على حقيقتها لكنتم أقدمتم على العمل لدوامها وقيامها بأكثر من اهتمامكم الحالى ألف مرة ولسعيتم لنيل الأجر الجزيل من الله تعالى ولطلبتم الحصول على الذكر الطيب من عباده .

وقصارى القول إن وقاية هذه الجمعية المباركة من تطرق الخلل اليها فرض علينا . وعليه فقد حررنا أمرنا هذا بطلب التوسل بالأسباب الكفيلة بوقايتها وأرسلناه إليكم فاذا ما وصل اليكم بمشيئة الله تعالى نطلب منكم أن تعقدوا مجلسا خاصا — وتقرؤه فى مواجهة الجميع وتعتنوا فى إفهامهم مزاياه .

تنظيم الجيش

و إذا طرحنا الخطاب السابق جانبا ، نلق محمدا عليا ينهض بنفسه لتنظيم الجيش ، ولا يدع صغيرة أو كبيرة إلا و يتعهدها بالموالاة ووضعها فى نطاقها .

وخلال الرسالة التالية يستبان لكل ذى عينين أن هذا العاهل كان لا ينى عن تتبع أفكاره بما نسميه التدعيم ، ولا يكف عن الاسترسال فما استهدفه ...

من الجناب العالى الى ناظر أسوان وفرشوط

إن الأورط التى نظمت فى اسوان وفرشوط كانت بلغت الى الخامسة عشرة . وقد اقتضى إنشاء أربع أورط من السود فى أسوان فى الوقت الحاضر فاعملوا على إنشائها . ثم عينوا البكباشية والقول أغاسية والملازمين وحاملى الأعلام — واليوز باشية اللازمين لها وفقا للتعليمات الشفوية التى أدلينا بها الى مندو بكم محمود أغا . فاذا لم يتيسر إكمال عدد الضباط الموجودين فى اسوان فيمكن أخذ الضباط اللازمين من أورط فرشوط أو من القوة الموجودة بمعية ابراهيم اغا و إكمال النقص منهما . وحيث أن المماليك أجدر بالمعاونة بالنسبة للجنود الاتراك فيجب البدء بهم فيؤخذ من بينهم

من يليق بأن يكون ضابطا ثم يكمل العدد الباقى من الأتراك . ولما كان الجنود الترك لا يقاسون بالمماليك فاذا ما انتخبوا — ضابطا فانه يجب العناية جهدا باستعدادهم واستحقاقهم ولذا يجب أن تهتموا بذلك ولا تجهزوا الاهمال أو الغفلة .

وبعد انشاء الأورط المذكورة تقرر أن تبقى أربعة أورط منها فى إسوان وأورطتين أو ثلاثة فى فرشوط والأورط الباقية تعسكر فى القرى التى أعطى بيان بأسمائها الى محمود أغا السالف ذكره فعليكم أن تستبقوا الأورط المقررة بقاؤها ثم ترسلوا الأورط الأخرى الى الجهات التى تقرر نزولها فيها . وحيث أنه يقتضى تعيين موظف كناظر للإشراف على مأكولهم ومشروبهم فعليكم تعيين النظار الذين ينتخبونهم من بين رجالكم وابلاغهم التنبيهات اللازمة و إرسالهم مع الأورط . ومن المستحسن توزيع كل ما يرد من العبيد الذين سيقدمون من السودان وكردفان على هذه الأورط بالتساوى فاعملوا على توزيع كل طائفة ترد فى أى وقت على هذه الأورط بالتساوى بدون زيادة أو نقصان .

أما أوامرنا الأخرى فقد أحلنا أمر تبليغها على دراية محمود أغا المذكور وحسن إفادته فستحيطون علما بها منه — وهذا ما دعانا الى تحرير مكاتبتنا هذه و إرسالها إليكم[1] .

معنويات الجند

وكان من جملة التدابير التى اتخذها محمد على لإقناع الجمهور بمزية النظام الجهادى الجديد أنه أمر بوجوب قراءة الفاتحة قبل الشروع بأعمال التدريب " لأنها جامعة للفيوضات الأزلية " . فقد ورد فى خطاب صدر عنه الى محمد بك ناظر مصلحتى إسوان وفرشوط ما يلى :

---

(١) وثيقة تركية رقم ٣٢٧ — دفتر رقم ١٠ معية تركى ورقة ١٤ بتاريخ ١٣ محرم ١٢٣٨ هـ (٣٠ سبتمبر ١٨٢٢) .

" إن فاتحة الكتاب (سورة الفاتحة) لا ريب فى أنها جامعة للفيوضات الأزلية فاذا ما قرأها جنود الجهادية فى أيام التدريب قبل الشروع فيه ثم باشروا التمرينات عقب القراءة لكان ذلك مستوجبا للفيض والبركات — فالمأمول منكم أن تبلغوا حضرات البكباشية سلامنا وتفهموهم أن إرادتنا تقضى بقراءة الفاتحة قبل التمرينات النهارية والتمرينات الأخرى" .

وقام من طبقة العلماء من ناصر " العزيز " فى مشروعه الجديد وأكد للشعب المصرى أن النظام الجديد يتفق وأصول الشرع الشريف وقواعد الدين " الحنيف ". ومثال ذلك أن شيخ الاسلام آنئذ الشيخ محمد العروسى أوعز الى الشيخ خليل الرجبى أن يؤلف كتابا فى تاريخ محمد على باشا يظهر فيه مآثر العزيز وخدماته[1] وأن الشيخ الرجبى خصص المقالة السابقة من كتابه هذا " النظام الجهادى الجديد " مبينا فيها شرعية هذا النظام مؤيدا ذلك بخمسة أدلة ملخصها ما يلى :

(١) أن حفظ الثغور الاسلامية وتحصينها بالعساكر الجهادية لإرهاب الأعداء المحاربين وإدخال قلوبهم هيبة المسلمين واجب شرعا وفرض محتوم أصلا وفرعا .

(٢) أن الصبر وحده لا يفيد فى الدفاع عن بلاد المسلمين إذ لا بدّ له من أن يقترن بالطاعة والنظام .

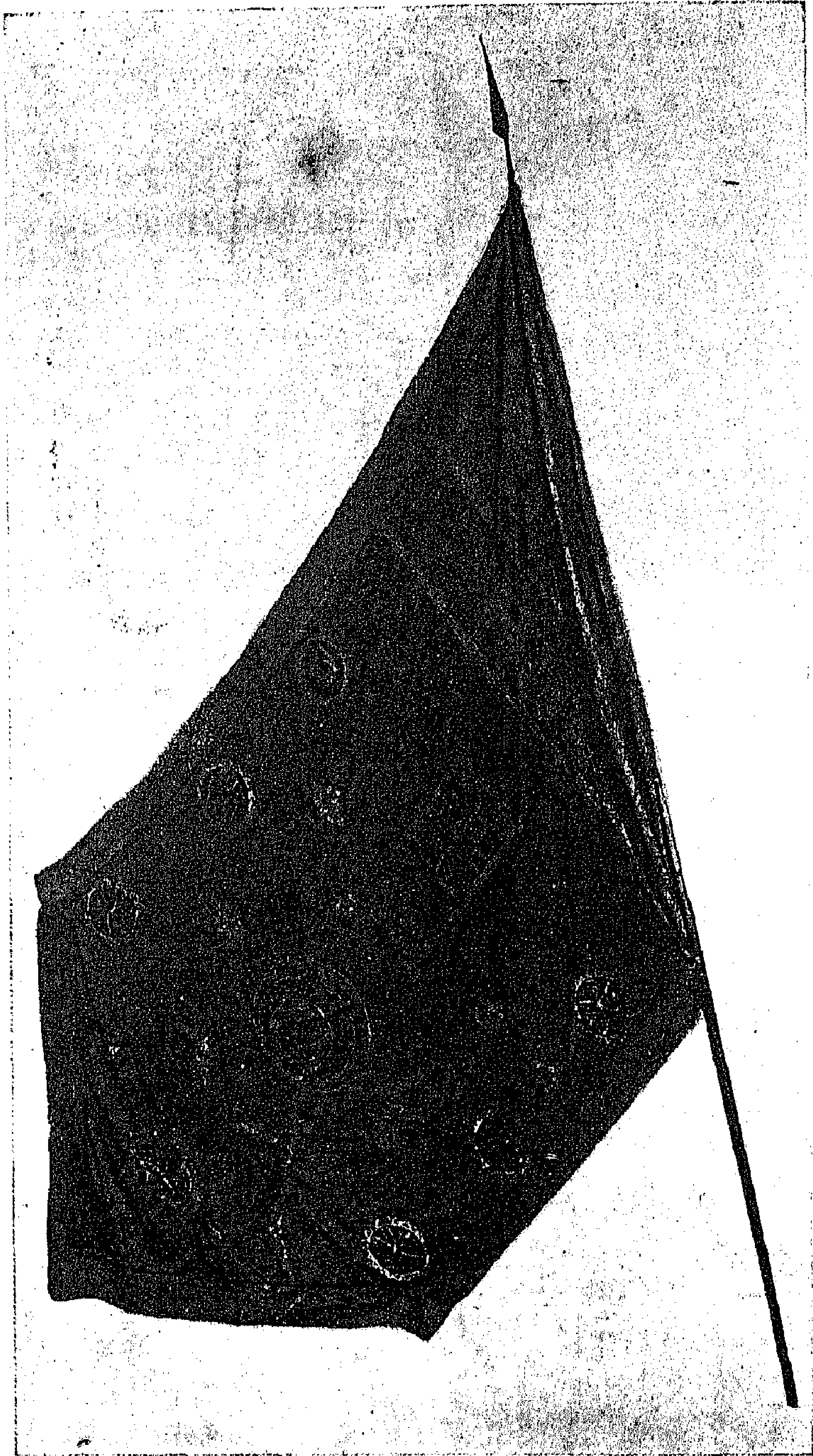
(٣) أن كتب الفروسية مشحونة برقم الصفوف وتنويعها إذ هى أشكال وصنوف هندسها الأوائل وأهملها الأواخر فبدت باهمالها أهوال الغوائل وليس أمرها فى المؤمنين مبتدعا ولكن تركوا صنع السلف فلا ترى أحدا من الأواخر لهم متبعا ... وحيث كان الشأن ذلك وأمكن الأمير إعادة ما كان من تلك المسالك

---

(١) كتاب تاريخ الوزير محمد على باشا للشيخ خليل الرجبى — مخطوطة جامعة بيروت الأميركية رقم ١٨٣٧٩ ص ٣ ومخطوطة دار الكتب الملكية .

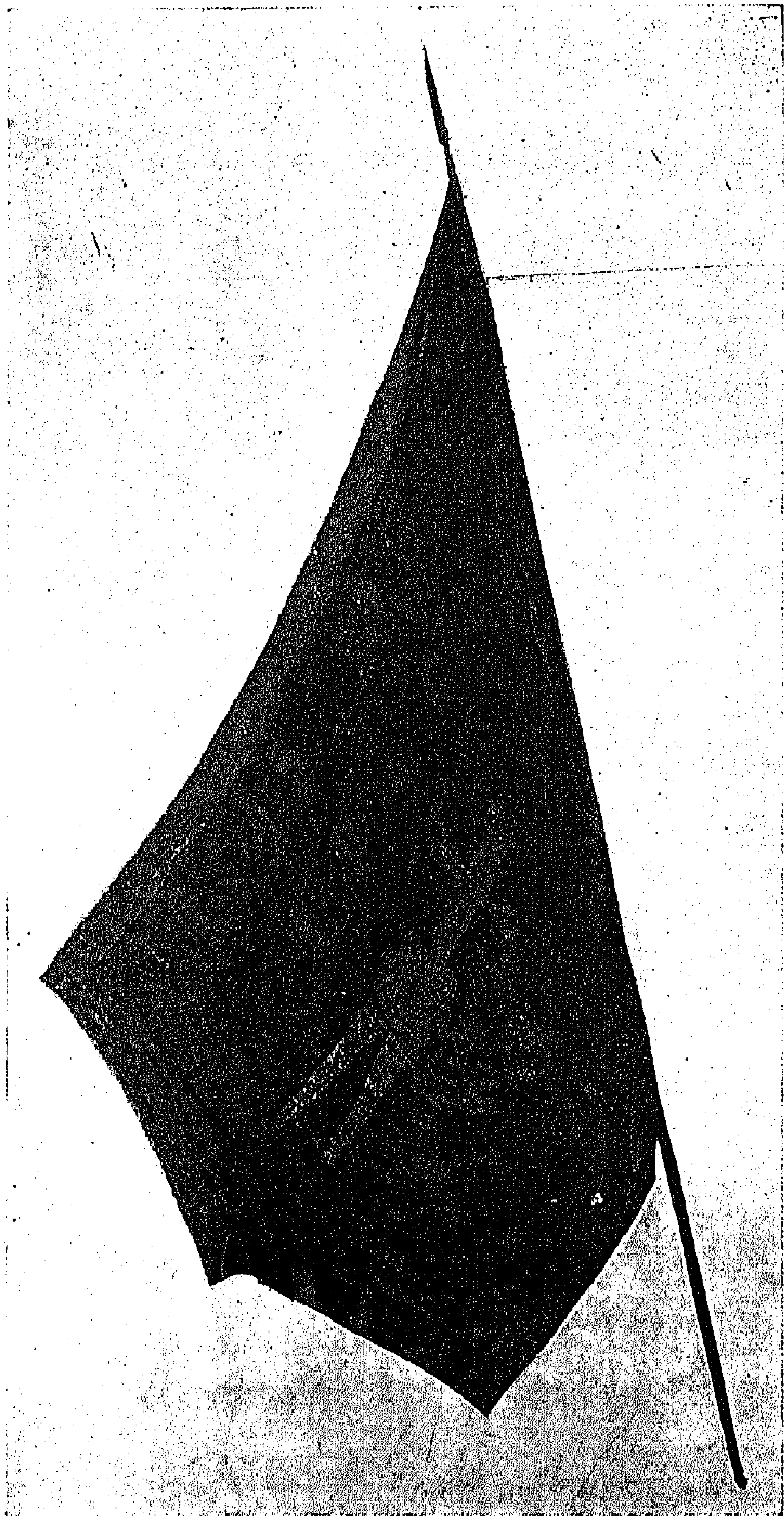


سليمان باشا الفرنساوى



عـــلم ابراهيم باشـا فى معسكره

(الوجــــه الأوّل)



علم ابراهيم باشا فى معسكره
(الوجه الآخر)



أمير اللواء خورشيد طاهر باشا

وتعليم طوائف من المؤمنين صناعة الفروسية و تعريفهم أشكالها واختلاف الصور و إتقان هـذه الكيفية فقد وجب شرعا المبادرة إلى هذه الصناعة وحرم عليـه إن تأخر وأبدى امتناعه وله إذا أقدم على هذا الشأن الجليـل الرضوان من الرحمن مع الثواب الجزيل .

(٤) أنه لما قوى العدو بإدمان هذه الصناعة وضعف المؤمنون بترك هذه البضاعة حصل الضرر والإضرار وبدت المنابذات والمناضلات من الكفار وحينئذ فيخشى على الأماكن والدور من سطوات أهـل الجحود والفجور وكذلك الثغـور المعـلومة التى هى لأذهانهم وأبصارهم مشاهـدة مفهومة وحيث كان الأمر على ما قلنـاه و بحسب ما ذكرناه ووقعناه فإنه يجب على أعيان المسلمين وأهـل الحل والعقد من الموفقين أن يخاطبوا أمير القطر فى تحصيل أجناد ترهب الأعداء وترهقهم بالحرب إذا تواقفوا بالبيداء بتعليمهم كيفية الحرب وأشكالها إذ هى ضروب حيث تميزت الأعداء فى هذه الصناعة العظيمة وملكوا بها الجهات الجسيمة فيلزم حينئذ أن يتعلمها أجناد المؤمنـين و يتقنوا عرفانهـا أجمعين ليدرؤا الشر بمثله و يطاردوا العـدو بوزان صنعه وشكله ومن تأخر عن ذلك فقـد باء بإثم كبير وناداه لسان الشريعة المحمدية بالنكير .

(٥) أن حفظ الدين والنفـوس والأعراض والأنساب والعقول والأموال واجب شرعا وذلك متوقف على القوة لرد الأعداء الصائلين على الأموال والنفوس ولا سيما إذا كانوا كفارا فيزداد عنـد ذلك الخوف على الدين والعرض مع المـال والنفس ولا شك أنه إذا وقع الخلل فى الدين والعرض والمـال تلف العقل أو كاد وضاعت النفوس والأنساب فى الأماكن والبلاد فكان الخوف من الكفار جامعا لكل مفيـد ومتلفا لكل سيد تقى عفيف فإذا ظهـرت من الخوف أسبابه وطغى العدو وسال عبابه وضعفت الأجناد عن مقاومته ومضاربته ومضارعته وجب على الأمير بالقطر إحضار جنـد معلمين عارفين بصناعة حرب الكفار مقاومين يدرؤن

الصفوف وصنوفها وترتيب الضربات وصروفها ووجب عليهم تعلم صناعة حرب الكفار إن لم يكن لهم بها إلمام وتذكار ليدرأ الشر بمثله وينقمع العدو بطبق صنعه وشكله وهذا محتم فى الوجوب وفرض لازم على هذا الأسلوب لتوقف حفظ ما تقدم عليه وما توقف عليه الواجب فهو واجب يعوّل عليه (١) .

كان محمد على مخلصا لدينه شديد الحرص عليه فسعى جهده فى أن تكون معنويات الجيش قائمة على أساس هذا الدين تستمد منه قوة ومناعة . وبهذا استطاع أن يحظى بتأييد جميع عناصر الأمة . ولعل من الخطأ أن نقلل من أهمية هذه الظاهرة أو أن نزعم كما زعم بعض المؤرخين أن جيش العزيز كانت تنقصه الروابط المعنوية . فإن فى هذه الظاهرة وحدها، فى مثل ذلك العصر، ما يكسب الجيش قوّة معنوية تؤلف بين أفراده وتحضهم للدفاع عن حياض الوطن والدين .

التجنيد ومصلحة الشعب

ولم تنقص محمد على، على شدته، تلك المرونة التى يتحلى بها عظماء الرجال وكبار قادة الأمم — لين فى غير ضعف وشدّة فى غير عنف . فقد ارتأى بثاقب بصره حين كان ابراهيم باشا يتولى أمر جمع الجنود فى الأرياف، أن هناك شيئا من التبرم عند فريق من الأهالى فى بعض المناطق . فدرس الأمر ووجد أن حالتهم الزراعية لا تسمح لهم فى ذلك الوقت بتلبية مثل هذا الطلب . فبعث إلى ابنه ابراهيم بكتاب ملؤه الحكمة يذكر له فيه : الاختلاف بين الشعب المصرى والشعوب الأوروبية التى عرفت مثل هذا النظام، والفرق بين الحكومات الأوروبية وحكومة مصر، ويسأله أن يجند العساكر حسبما يتيسر، وأن يستخدمهم على نحو ما يستوجبه الموقف وأن يوفق بين المصلحة والحالة (٢) .

---

(١) وثيقة رقم ٣٧٩ معية تركية دفتر رقم ١٠ بتاريخ ١٤ محرم ١٢٣٨ هـ وكذلك تاريخ الوزير محمد على باشا للشيخ خليل الرجبى ص ١٧٠ — ١٨٤ .

(٢) سجل ١٦ معية تركى — وثيقة ٢٠ ص ١٩ بتاريخ ٨ شوال ١٢٣٨ هـ .

من الجناب العالى إلى والى جدّة[1] :

" فى أوائل رمضان جند عدد وافر من الفلاحين من الوجه البحرى توطئة لإلحاقهم بالعساكر الجهادية . فأحضروا إلى مصر وأرسلوا بواسطة المأمورين الى الجهات المطلوب إرسالهم إليها بيد أن الأعمال الحربية دقيقة والقيام بأعبائها يتطلب وجود الشبان الأقوياء على حين أن أكثر الذين جندوا كانوا عليلين كبار السن لا يصلحون لشيء وقد اتصل بنا أن العساكر الذين من هذا القبيل يعادون الى قراهم وعليه فقد لزم أن يعنى بأمر تجنيد العساكر المطلوب تجنيدهم بعد العيد بحيث لا يجندون كيفما اتفق وهذا ما حملنا على أن نكتب بتاريخ ٢ شوال و ١٢ يونيو إلى الأفندى ناظر الأقاليم البحرية نخطره بوجوب اجتماعه والأغوات النظار لتداول الرأى فى هذا الصدد أو أن يحضر معهم الى مصر لبيان رأيهم فى هذا الشأن لإقرار الخطة التى يجب السير عليها وأن لا يطيل هذه المسألة وينظر فى أحسن الطرق المؤدية إلى تنفيذها . وفى يوم الثلاثاء ٨ شوّال و ١٨ يونيو وهو اليوم الذى يجتمع فيه المجلس حضر الأفندى الموما إليه والأغوات النظار إلى شبرا حيث بسط الموضوع وأفهموا أن عددا وافرا من الفلاحين الذين أرسلوهم فى أوائل رمضان قد أعيد بعضهم من مصر والبعض الآخر من الجهات الأخرى وأن الذين أبقوا منهم دون المأمول فاستأذنوا بمناسبة تقرب أوان الزراعة أن يرجأ تجنيد العساكر المطلوب تجنيدهم بعد العيد إلى ما بعد الانتهاء من التحضير وبما أن التماسهم يتنافى والمصلحة فقد أجيبوا بما يتفق والموقف وأكد عليهم بوجوب جمع وتجنيد العساكر المطلوبة على أن أهالى مصر لا يفهمون الجندية كما يفهمها أهالى أوربا كما أن هيئة الحكومة عندنا ليست بقدر هيئة الحكومة فى أوربا ومن البديهى أنه لا يستطاع والحالة هذه تجنيد العساكر وفقا لأصول الجهادية المقررة وعليه فإن من الجلى الواضح أن الواجب يقضى علينا أن نجند العساكر حسبما يتيسر لنا وأن نستخدمهم على نحو ما يستوجبه الموقف وأن نوفق بين مصالحنا وحالتنا وأن نرى أعمالنا على

---

(١) المقصود هو ابراهيم باشا .

قدر قـدرتنا فإذا ما وافقتم على ذلك أنتم أيضا أوفدوا من قبلكم من يفحص هؤلاء العساكر عند احضارهم إلى مصر ونبهوا عليه بأن يفرز منهم من يصلح نوعا ما للعمل ويرسلهم إلى الأورط ويعيد الذين لا يصلحون إلى قراهم ولما كان من اللازم أن توزع العساكر التى يتم إرسالها على الأورط وأن لا يعاد منهم أى نفر فأخطروا رؤساءهم بذلك . وجامع القول فكروا فى هذا الموضوع من ناحية العسكرية والفلاحية مع مراعاة الحالة والموقف وانهوه بطريقة مناسبة .

حاشـــية :

والحاصل أن العقــلاء من الحكام السالفين كانوا عندما يريدون تنظيم بعض الأمور يعمدون فى بادئ الأمر إلى تنظيمها كيفما اتفق أى على بركة الله ومن ثم يأخذون فى وضعها فى نصابها . كلما ثبتت أقـدامهم حتى تباح لهم مع الأيام تسيير أمورهم وفقا لما يرغبون فيجب علينا أن نتشبه بهم نحن أيضا فنسير بأمورنا حسبما يقتضيه الموقف وكلما اتسع لنا الموقف وسمحت الظروف عمدنا إلى إتمام ما ينقصنا فابذلوا الهمة فى اتخاذ هذا الأسـلوب ولئن نوهنـا بوجوب إرسال من يتولى فرز العساكر الذين يصلحون للخـدمة من العساكر الذين سيأتون إلى القصر العينى بمصر إلا أننا نترك لرأيكم أمر حالة هـذا الفرز إلى القواص باشى المـأمور فى القصر كما كانت الحالة قبلا أو إرسال آخر لهذه الغاية من قبلكم فافعلوا ما ترونه مناسبا فى هذا الشأن واعنوا بإجراء ما يتفق ومصالحنا .

استقدام بعثة عسكرية

لتدريب الجيش

وكان محمـد على بالغ العناية بتدريب الجيش الجديد فاتخـذ الجيش الافرنسى مثالا له ينسج على منواله . ورأى قبل اختياره للمدربين الفنيين أن يدرس كفاءاتهم ودرايتهم العسكرية وأحوالهم الخاصة حتى إذا وقع اختياره على من راقه منهم أغراه بالمـال وأطلق يده فى العمل . ومع أننا لم نوفق بعد للوقوف على الوثائق التى تبين

علاقات العزيز مع الكابتن سيف الافرنسى فى مستهل عهده فى خدمة الجيش فاننا نستطيع أن نقطع بوجود هذه الظاهرة التى ألمعنا إليها حين نقرأ رسالة العزيز الى ابنه إبراهيم المؤرخة فى ٢٧ ذى القعدة سنة ١٢٣٨ ﻫ (١٨٢٣ م) حيث يقول:

لقد فكرنا فى استخدام رجل قدير يتولى تنظيم عساكرنا الجهادية وفقا للأصول العسكرية المقررة ويكمل النقص فى الأنظمة القائمة الآن ويرفع مستوى التعليم والشئون الأخرى على الوجه المطلوب وقد تحدثنا فى هذا الموضوع الى صديقنا الخواجة دورفتى قنصل فرنسا عندما جاءت مناسبة . فكتب جنابه بدوره عن فكرتنا هذه الى الجنرال الذائع الصيت المعروف باسم بويه أحد جنرالات بونابرت الذى سيصبح بعد رتبة واحدة مرشالا والذى حضر مع بونابرت أكثر حروبه . وقد استوضحنا القنصل مقدار المكافأة التى تمنح للجنرال فيها إذا حضر . ثم جاء فى الخطاب الذى أرسله الجنرال المذكور أنه سيحضر وفى حالة حضوره سيقطع عنه الإيراد المقرر له من حكومته وأبان القنصل أن هذا الإيراد لو اشترى لبلغت قيمته مئة ألف ريال على الأقل وأنه يجب أن يخصص له ٢٥،٠٠٠ غرش شهريا ولكل من معاونيه ثلاثة آلاف ريال سنويا . إن هذه المبالغ ليست بالشيء المرهق إزاء رفع مستوى مصالحنا الى الحد المطلوب ووصولنا الى غايتنا . ولكن هل الجنرال المذكور هو فى الواقع كما قيل عنه . فاذا كانت شهرته قد بلغت الى هذا الحد فلابد أن يعرفه الافرنج الذين معكم وعليه استوضحوهم أمر هذا الجنرال بطريقة مناسبة (١) " .

ومن الغريب أن بينما كان العزيز يبحث عن أشهر المدربين وأقدرهم فى أعلى الأوساط العسكرية فى فرنسا كان أولو الأمر فى الأستانة يسألونه أن يبعث إليهم بمدربين وطنيين من قواده لتدبير شئون الجيش فيها (٢) .

---

(١) من محمد على باشا إلى إبراهيم باشا — ٢٧ ذى القعدة سنة ١٢٣٨ — معية تركى دفتر ١٦ رقم ٣٢

(٢) الوثيقة التركية رقم ٤٣٧ تاريخ ١٢ المحرم ١٢٤٢ ﻫ (١٦ أغسطس ١٨٢٦) بدفتر ٣٢ معية تركى من محمد على باشا إلى الصدر الأعظم .

تخير الجنرال بليار — أحد القادة الفرنسيين فى المعاش — من القادة الافرنسيين الجنرال البارون بوييه (General Boyer) (١) ليكون رئيسا للبعثة العسكرية التى تنظم جيش محمد على الجديد. ومعه كولونيل المشاة جودا (Gaudin) والشقيقان أدولف وبولان دى تارليه وكان أولها قائد كتيبة وثانيهما يوزباشى فى الخيالة . وبعض ضباط آخرين وطبيب . وتطوع ليفرون (Livron) للعمل بصفة شبه رسمية وكان على نصيب كبير من الفطنة . واكتسب فيما بعد ثقة الباشا وعينه مندوبا عنه لدى الحكومة الفرنسية بدلا من تورنو .

وصل بوييه الى اسكندرية مع معاونيه فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٢٤ ، وكان يستصحب هدايا ثمينة من أسلحة وذخيرة . فلما قدمها للباشا تأثر هذا كثيرا من عطف الحكومة الفرنسية . وقال — بعد تجربة — إن البارود أحسن نوعا من الذى استورده من انجلترة ! .

وحل الجنرال بوييه بالقاهرة حيث سكن فى قصر فخم بمصر القديمة خصص لإقامته وليكون أيضا مقرا للرئاسة العامة للبعثة . وفى هذا القصر استهلت الأعمال الأولى لمشروعات الجيش وتدريبه .

وقد جرى الاتفاق على أن يتصل بنفسه بالباشا للتفاهم فى كل ما يراه من آراء وما ينتهجه من خطط . كما جعل لجودان الإشراف على تعليم المشاة (٢) .

ويتسنى لنا أن نقف على أعمال الجنرال بوييه من مخابراته مع بليار مدة ١٨ شهرا ومراسلات شهود العيان من أمثال بريس دافن الذى شغل بعض الوقت وظيفة أستاذ فى مدرسة المشاة بدمياط . ومدرسة أركان الحرب فى جهاد أباد .

(١) ولد الجنرال بوييه (١٧٧٢ — ١٨٥١) فى بالفورت — وكان برتبة ادجوتانت جنرال فى الحملة الفرنسية على مصر . وصار قائد فرقة فى عام ١٨١٤ . وعقب انتهاء مهمته فى مصر شغل قيادة كبرى فى الجزائر فى عام ١٨٣٠ .

(٢) جولزبلانا — Histoire de la regeneration de l'Egypte ص ٧٣

والملازم جولز بلانا المـدير والمؤسس للكلية الآنفـة . وفيلكس منجان قنصل فرنسا العام . والدكتور كلوت بك مؤسس الخـدمة الطبية العسكرية فى مصر . والمـالى كادلفين وزميله دى بروفوى اللذان اكتشفا بعض المجهول فى إقليم النوبة .

ومما هو قمين بالتنويه فى هذا المجال أن "بليار" كان على اتصال بـ "بوييه". يراسـله باستمرار و يتبدّى ممـا كتبه له أنه لا يوافق مطلقا على اشتراك محمـد على فى حمـلة المورة خشية أن تفقد فيها مصر جيشها الفتى ! وكان يرى من الأصوب أن ينسحب محمد على من هذا المشروع ولا يجابه الأمم المسيحية . ويجنى ثمار النصر بالوسائل السلمية لتحظى مصر بالتقدم وتستمتع بالمدنية الحديثة .

وقد ألحّ بليار مرة أخرى ليوجه نظر محمد على الى وجهة أخرى فيها فائدة كبرى لمستقبل مصر، ويجعل لها قوة يدفعها صوب الشرق الأدنى وأفريقية، ممـا يفتح لمصر أبواب التوسع والرفاهية، بدون أية خسارة مرتقبة[١] .

ومن المتفق عليه أن محمدا عليـا كان مقتنعا بهذا الرأى . بيـد أنه لم يك بعد واثقا من قوته، ومن نتائج محاولته، ليقطع العلائق مع أمير المؤمنين . وكان يأبى المغامرة خوفا من فقد ملكه الجديد .

والواقع أن حرب المورة وحرب الحجاز كلفتاه كثيرا . فقد خسر فيهما حوالى ثلاثين ألف من خيرة جنوده . ثم إن التشكيلات العسكرية الجـديدة التى نظمها سيف فيما بعد لم تك قد استكمل تعليمها و بعبارة أوضح كانت ناقصة الى حد يذكر . ولم يك غير الضباط العظام ملمين بالقراءة والكتابة ممـا جعل محـور أعمالهم يدور على محض الذاكرة . فلا كتب مأثورة، ولا قوانين مطبوعة، ولا تعليمات محفوظة . ولم يك من بينهم أحد يعتمد على الدرس والكتابة سـوى القائمقام أدهم بك، الذى درس المدفعية فى استانبول[٢]، وقام برحلات شتى فى انجلتره .

(١) رسالة Belliard a'Boyer. 10 Fevr. 1826, p. 103.

(٢) جول بلانات — ص ٦٥ Jules Plant

وتجلو الوثائق الآتية أهم المراسلات الخاصة بالبعثة العسكرية فى عهدها الجديد، حينما زاول أعضاؤها العمل فى الجيش ...

من الجناب العالى الى محمد بك ناظر الجهادية :

"لقد أرسلنا إليكم جناب المحترم الجنرال بوييه وزميله الجنرال ليورون ومن فى معيتهما من الضباط وهم الهيئة العسكرية التى استحضرت من دولة فرنسا، وحيث إن مرتبات الجنرال بوييه والضباط وتعييناتهم اليومية مدرجة فى عقودهم فعليكم أن تنظموها وفقا لما أدرج فى العقود .

أما الجنرال ليورون فليس له عقد بل خصص له مرتب سنوى قدره ستة آلاف ريال ؛ فقيدوه فى الدفاتر بهذا المرتب، وأصرفوه له لدى استحقاقه، وعليكم أن تصرفوا له أيضا تعييناته اليومية بحسب اللازم .

ولما كان هذا الجنرال بوييه من رجال الحرب، وواقف على شئون الجند، وخبير بفنون الحرب، فقد استحضرناه إلينا ابتغاء الحصول منه على معلومات خاصة بالشئون العسكرية ولا يخفى عليكم أجمعين ذلك . ولذلك لم تعد هناك حاجة الى تغيير أسمائهم ورأينا الاكتفاء بتغيير زيهم وملابسهم فاعلموا ذلك وضعوا خطة لاستخدامهم بموجبها بحسب ذلك ولدى وصولهم الى ذلك الجانب عليكم أن تسلموا كل واحد منهم حصانا كامل العدة كالمعتاد واصرفوا لهم الملابس اللازمة على ألا يكتفى بإعطاء الجنرالين حصانا واحدا لكل منهما بل يزاد فى عدد الخيل وأن تكون ملابسهما من النوع الجيد ويزاد لهما شال كشمير .

ولدى تشرف الجنرال المذكور بتقديم هدية ملكية رأينا فيه مخايل العلم والعرفان لذلك يقتضى إيفاء واجب الرعاية لهم والعمل على اكتساب المعلومات التى تؤدى الى ازدهار هذه المصلحة العسكرية من الجهة العلمية ما دمنا قد أنشأناها واضطرتنا كلنا الى تنظيمها أحسن نظام (١) " .

---

(١) وثيقة رقم ٤١٨ ورقة ٦٣ دفتر ١٦ معية تركى بتاريخ ١١ ربيع الثانى ١٢٤٠ هـ (ديسمبر سنة ١٨٢٤ م) .



أمير اللواء أحمد المنكلى باشا

من الجناب العالى الى محمد بك ناظر الجهادية :

"جاء فى مكاتبتكم الواردة أخيرا ما نصه : وصل الجنرال بو بيه فأنزل فى منزل الخواجه جوانى الكائن بمصر القديمة ، وأن الجنرال ليورون والضباط آثروا الإقامة فى المعسكر ، فأعدّ لهم ما يحتاجون اليه من الخيام وغيرها ، وأنه خصص للجنرال ليورون مرتبه والتعيينات اللازمة ، كما أنه ربطت مرتبات الجنرال بو بيه والآخرين وتعييناتهم بموجب عقودهم وأعدّت حاجاتهم وفقا لطبائعهم التى اعتادوا عليها ، ولما كان العقد الخاص بالجنرال بو بيه ينص على إعطائه خمسة رؤوس من الخيل فصرف له حصانان روميان وحصان نجدى ، وسيعطى له الحصانان الآخران قريبا أما الجنرال ليورون فقد أعطى له حصانان روميان وآخر نجدى بحسب رتبته ، وصرفت لهم الملابس اللائقة وأعطى لكل منهما سرجا مفضضا ، ولم نعلم إن كان الحصانان النجديان اللذان سيعطيان لهما داخلين ضمن هذه الخمسة والثلاثة أم لا ؟ اضطررنا الى الاستعلام ، ولقد صرفنا الى الضباط السروج اللائقة بهم والخيل اللازمة لهم والملابس . كما أننا أعطينا الى هذين الجنرالين سيفين مذهبين ، وقد أخرنا إعطاء الجنرال بو بيه سيف الافتخار وإلباسه الفراء (الكورك) الى أجل .

فأحطت علما بما حررتموه فنبلغكم أن الحصانين النجديين المقرر إعطاؤهما الى الجنرالين المذكورين داخلان ضمن الخيل الخمسة والثلاثة المقرر صرفها لهما ، وليس ثمة خيل أخرى عند صرف الحصانين للجنرال . وبهذه الصورة يكون عدد الخيل المقررة لهما قد تمّ فعلا ، ولا حاجة الى إعطائهما أكثر من ذلك .

ولقد استحسنا ما فعلتموه من تأجيل إعطاء سيف الافتخار الى الجنرال بو بيه ومن السياسة الحقة ، لأننا عازمون على الحضور الى ذاك الطرف فى هذه الأيام ولدى وصولنا بمشيئة الله سيعطى له السيف ويلبس الفراء[1] " .

(١) وثيقة رقم ٤٣٠ ورقة ٦٥ دفتر ١٦ معيـة تركى بتاريخ ٢٧ ربيع الثانى ١٢٤٠ هـ ١٩ ديسمبر ١٨٢٤ م) .

من الجناب العالى الى ناظر الجهادية (١) :

"لقد أرسلنا اليكم الكولونيل رىْ من ضباط الطوبجية الذى جىء به من باريس بوساطة الجنرال ليورون ، وهو خبير فى فنّ الطوبجية وفيما يتعلق بالمدافع والمهمات المتنوعة الخاصة بها وفى نظم تعليماتها وتدريباتها ، وستقفون على درجة خبرته من العقد الخاص به ، فعليكم أن تأمروا بترجمة عقده حتى تتبينوا مأموريته ، ثم استخدموه فى خدمات المدفعية وكلفوه بفحص الآلات والمهمات الخاصة بالمدافع وليخبركم بما ينقصها ، وقد أنبأنا الأغا كتخدانا تحريرا بإعطائه تصريحا للتفتيش على المدافع وعلى المهمات واللوازمات والأدوات الخاصة بها حينا بعد حين" .

وكتبت صورة من هذا الأمر بعبارته الى البك الكتخدا .

وأُلحق بهذا الأمر مادّة أخرى الى البك ناظر الجهادية :

"لقد أرسلنا اليكم المدعو بريبه الذى استقدم بوساطة الجنرال المذكور بصحبة الكولونيل المارّ ذكره ، وهذا أيضا خبير فى الأسلحة والمهمات وله علم تامّ بكل الأدوات واللوازم ، فعليكم أن تقوموا بترجمة عقده ، ثم تبادروا الى استخدامه فى الشئون الخبير بها" .

وهذه العبارة نسخت بعبارتها وزيد عليها بعض الوصايا وأرسلت الى البك الكتخدا .

خدمة الجيش واجب نبيل

ولكى يغرس العاهل الكبير فى نفوس ضباط الجيش الصفات النبيلة ، ويبث بين جوانحهم السجايا القويمة ، التى يتألف من نسيجها العسكرية الحقة ، كان يوجه من حين الى آخر نصائحه وإرشاداته ، ليعمل الضباط بها . وفى النداء التالى نلمس روح محمد على (٢) .

---

(١) دفتر ٢٠ معية تركى — الوثيقة رقم ١٧٠ ورقة ١٣١ بتاريخ ٣ صفر ١٢٤١ هـ (١٧ سبتمبر ١٨٢٥ م) .

(٢) الوثيقة رقم ٤٩ دفتر ١٦ معية تركى بتاريخ ١٥ محرم ١٢٣٩ هـ (٢١ سبتمبر ١٨٢٣) .

مرســـوم خديوى صادر للجيش المصرى

الى مفاخر الأماجد والأعيان عثمان بك وخورشيد بك وحسين بك ميرالايات العساكر الجهادية زاد مجدهم ، والى مفـاخر الأماثل والأقران قائمقامى الآلايات وبكباشـية الأورط والصاغ والصول قول أغاسـية واليوزباشية والملازمى الأول والثناة وحاملى الأعلام والحاسبين وأمنـاء البلوك والجاويشية زاد قدرهم ، نبلغكم أن المصلحة الخيرية التى عينتم لهـا ليست مصلحة عبارة عن مجرد جمعية ، بل هى مصلحة ربطت كل ناحية منها بنظام ، وكل شىء فيهـا مرتبط بشروط ، ولذلك كنا وضعنا فى أيدى اسـتحقاقكم الوسائل الكفيلة بإجراء مايقتضيه هـذا النظام ، ولمـا كان كل واحد منكم قد نشأ على يدينا ، ومنح الرتبة والاعتبار اللذين لم يشاهد مثلهما فى عهـد أسلافنا ، فكان أمر اهتمامكم بتنفيذ الشروط والقيود معـدود من جملة أمانينا .

ففيما مضى كان اتصل بنـا نبأ بعض الأفعـال غير اللائقة التى صـدرت من بعضكم ، فكنا أصدرنا لكم مرسوما بتاريخ ١٨ ذى الحجـة خطابا لكم جميعا ضمناه التنبيهات والوصايا ، قلنـا لكم فيه : " لاتسلكوا السبل الملتوية بتجويز الأوضاع المنافية لأصولكم ونظمكم ، وإن وجد فيكم من لا يصغى للقول و يسلك هذا السبيل الوعر ، فلا تقبـلوا أن يتطرق الخلل الى النظام بسبب مخالفة واحد منكم ، لأن هذه الجمعية الخيرية إنما وجدت بعد تعب كبير ومشقة عظيمة ، وانبذوا من كان على هذه الشاكلة من بين ظهرانيكم وإن كان صاحبكم أو من أقاربكم حتى ولو كان أبا لكم أو أخا " ، وأرسلناه اليكم مع خفتانينا سليم أغا . ولقد اتصل بسمعى من الغادين والرائحين أن أولئك الذين ارتكبوا تلك المخالفة إنمـا هم الحمقى الذين وجدوا فى الرئاسة بدون استحقاق وأهلية وكان وجودهم فى الرئاسة وسلوكهم هذا السبيل المعوج ناجما من محاباة بعضكم لهم ومظاهرتهم إياهم .

يا قوم ! فكروا فى ما بذل من الجهد وما أنفق من المال الجسيم حتى وصلتم إلى هذه الدرجة ووصلت جمعيتكم إلى ما وصلت إليه ، وفى المصاعب التى ما زلنا نحتملها وفى ما ننفقه من المال فى الوقت الحاضر حتى إننا أخذنا عددا جما من الفلاحين من القرى التى يقيمون فيها ورضينا بتعطل كل شىء حتى الخدمة الزراعية التى عليها مدار الغنى والثروة للجميع .

هذه المصلحة هى مصلحة هامة لا يبذل فى سبيلها المال فحسب بل تبذل فيها الأرواح أيضا ! فكيف يتهيأ تجويز إنقاص قدرها واعتبارها بمثل هذه الأفعال المنكرة التى يأتيها أمثال هؤلاء الحمق ؟ ... فهل نؤثر الصمت وندعهم وشأنهم ؟ لا واو كانوا غلمانى الذين نشئوا على يدى بل ولو كانوا أولادى ... .

إذن وجب عدم مظاهرة هؤلاء الناس ولو كانوا من البكباشية لا من صغار الضباط فاخرجوهم من بينكم باتفاقكم أجمعين وبمعرفة ناظركم وأرسلوهم إلينا ... فإن كان أولئك المبعدون من كبار الضباط فانتخبوا من يكون ذا أهلية وكفاءة واستحقاق من بين ضباط تلك الأورطة بوساطة ناظركم وانصبوه مكانه، أما إذا كان ذلك الرجل المبتغى إرساله إلينا يتعظ ويرجع إلى نفسه ويرضى برتبة أدنى بمحض اختياره، تتفق وكفاءته ، فاعملوا على قيده بالرتبة التى ارتضاها بمعرفة ناظركم أيضا . واتخذوا هذا النظام دستورا للعمل يعمل به فى كل آن ولا تؤدّوا شهادة فى مصلحة فرد لا يكون ذا حق ولا تنكروا حقا لذى حق فتبوءوا بالندم ، ومجمل القول إن وجود الرتبة المخصصة للضباط مسندة إلى من يستحقها مؤدّ إلى زيادة رفعتكم كما أن وجودها مسندة إلى من لا يستحقها مفض إلى مذلتكم وهذا أمر معروف بالبداهة ... فاعلموا ذلك جيدا وعوه واعملوا كما ينبغى عمله وفقا لذلك ولا تصاحبوا ذوى الحماقة متبعين هوى نفوسكم حتى لا تندموا فى نهاية الأمر وليقم كل منكم بأداء الخدمات اللازمة المفروضة عليه وليؤدّها حق أدائها طبقا للنظم وليتحاش ما من شأنه الإخلال بالنظام كالغفلة والتباطؤ تنفيذا لما ذكرناه

فى مرسومنا الآنف الذكر . واعنوا واعتنوا بإيفاء مطالب الإخلاص والاستقامة التى آملها منكم فى كل آن واتقوا المسئولية بمخالفة ما فيه وانتهجوا اليقظة والانتباه دينا لكم على الدوام . واكتبوا لنا مشاهداتكم عن الشئون العسكرية فى صورة تقارير تبعثون بها إلينا شهرا فشهرا ... هذا ما تقضى به إرادتنا ومطلوبنا القاطع إجراؤه وتنفيذه .

فإليكم ياأيها الميرالايات والقائمقامات والبكباشية والضباط الآخرين أبلغكم بأننا أصدرنا هذا المرسوم من ديوان مصر بالتنبيه عليكم والتوبيخ والتشديد كما أننا أحلنا على صاحب العزة الأفندى مهردارنا إبلاغكم إياه وأوامرنا الأخرى وقد أرسلناه مع حضرته إليكم" [(١)] .

ونتبع هذا النداء بمرسوم آخر يحمل نفس المعنى ويهدف إلى أغراض الباشا .

مرسوم خديوى إلى ضباط الجيش

إليكم يا مفاخر الأماجد والأعيان ميرالايات العسكر الجهادية عثمان بك وخورشيد بك وحسين بك زاد مجدهم .

وياقائمقامات الآلايات وبكباشية الأورط والصاغ والصول قول أغاسى واليوزباشية والملازمى الأول والثناة وحاملى الأعلام والحاسبين والباشجاويشية وأمناء البلوك والجاويشية والأونباشية زاد قدرهم .

نبلغكم أنه لا يخفى عليكم أجمعين أن شئوننا الجهادية فهى نتيجة كل مصلحة من مصالحنا ، وأن كل أفكارنا واهتمامنا منصرف فى نظامها وانتظامها ، وأن ما نملكه إنما نبذله لدوامها وقيامها ... هذا شىء واضح وجلى ... إذن يقضى الواجب أن تكون كل حركات عساكرنا الجهادية وسكناتهم مطابقة للشروط النظامية والأصول المقررة فلأجل إبلاغ هذا الواجب إليكم كنا قد أرسلنا لكم مرسوما

---

(١) وثيقة رقم ٤٩ — دفتر ١٦ معية تركى بتاريخ ١٥ محرم سنة ١٢٣٩ (٢١ سبتمبر سنة ١٨٢٣) .

بتاريخ ١٨ ذى الحجة وأتبعناه بمرسوم آخر بتاريخ ١٥ محرّم وأرسلنا أولها مع الأغا خفتانينا وثانيهما مع الأفندى مهردارنا .

فيا أيها الميرالايات المذكورون لقد جاء فى عريضتكم الواردة فى معرض الإجابة على مرسومنا المرسل لكم مع خفتانينا "إنه لما كانت الخدمات العسكرية المكلفين بها هى أهم ما تصبو إليه نفوسنا وأعظم ما نرغب فيه فإن تنفيذ أصولها المقررة فرض على ذمتنا ولنقوم بإجرائها وسنسلك سبيل الرضا ونعمل فى طريق الاستقامة بدافع إخلاصنا .

وإذا وجد فينا من يخالف ذلك لا نظاهره ولو كان المخالف أخانا أو أبانا بل نقوم بتأديبه وفقا لنظامنا وإذا لم يفلح معه التأديب ننظر فى أمر إبعاده ... وفى كل الأحوال سنكون يدا واحدة باتحاد القلوب فنطيع من هو أعلى منا ونحترم من هو أصغر منا ولا نقصر فى ذلك ونتعهد بتحرير الدعاوى العسكرية التى تعرض يوميا على ديوان الآلاى ونقدمها فى صورة تقرير شهريا ، وسنسعى إلى إيفاء ما تفرضه علينا عبوديتنا باذلين فى سبيل ذلك أرواحنا ورؤوسنا فداء" .

فعلمت ما حررتموه واستحسنت ما أظهرتموه من الغيرة وحسن النية فأدعوا الله أن يوفقكم جميعا وأطلب منكم أن تقوموا بتحقيق هذه النوايا الحسنة .

وقد أصدرنا أمرنا هذا من ديوان مصر إليكم جميعا لإبلاغكم استحساننا وأرسلناه مع صاحب العزة حسين أغا جوقدارنا (١) .

تعيين القادة

كان يجرى محمد على باشا على نمط كريم حينما يصدر أمره بتعيين أحد كبار ضباط الجيش قائدًا لأحد الالآيات . فقد سار على أن يكتب إليه مرسوم التعيين يتضمن عبارات التكريم ودوافع التشجيع ، حتى يبث فيه قوة على قوته ، ويحضه

(١) وثيقة رقم ٥٣ (ورقة ١٢) — دفتر ١٦ معية تركى بتاريخ ٣ صفر سنة ١٢٣٩ (٩ أكتوبر سنة ١٨٢٣) .

على العمل بما يفضي الى تحقيق نظرته . وأكثر من ذلك يقدم القائد لضباط وحدته ، ليكونوا على بينة من قائدهم الجديد ، الذى عهد إليه أمر زمامهم ، وتوجيههم فى قابلهم .

وهو تقليد عسكرى جدير بالتخليد . إن دل على شيء فعلى أن محمدًا عليا كان لا يفتأ يستن السنن الحسنة، التى تعود على الجيش بالخير والبركة .

والمرسوم التالى خير مثال يبسط فى هذا النطاق :

مرسوم خديوى إلى سليم بك ميرالاى ٥ جى بيادة (١) :

" إليكم يا افتخار الأماجد والاكارم سليم بك المعين ميرالايا خامسا لعساكرنا الجهادية دام مجده ...

ويا قدوة الأماجد والأعيان سليم أفندى قائمقام ٥ جى بيادة .

ويا مفاخر الأماثل والأقران عثمان أغا بكباشى ٢٠ جى أورطة وحسين أغا بكباشى ٢٢ جى أورطة وسليمان أغا بكباشى ٢٣ جى أورطة والحاج سليم أغا بكباشى ٢٤ جى أورطة .

ويا صاغ وصول أغاسية هذه الأورط ويوزباشيتها وملازميها الأول والثناة وحاملى أعلامها وحاسبيها وباشجاويشيتها وأمناء البلوك فيها وجاويشيتها وأونباشيتها زاد قدرهم .

فيا أيها الميرالاى انك لما أظهرته من الإخلاص والصداقة فى وظيفتك كسلحدار للرحوم نجلنا الباشا سرعسكر السودان فقد أحلنا على عهدتك رتبة الميرالاى الخامس لعساكرنا الجهادية ووضعنا تحت إمرتك ٢٠ جى و ٢٢ جى و ٢٣ جى و ٢٤ جى أورطة فعليك أن تقوم بأداء الخدمات اللازمة لوظيفتك المحالة عليك بالاتحاد مع قائم مقام الآلاى وبكباشية الأورط وضباطها الاخرين بحسب مواد

(١) وثيقة رقم ٩٦ دفتر ١٦ معية تركى بتاريخ ١٨ ربيع الثانى ١٢٣٩ ﻫ (٢٢ ديسمبر ١٨٢٣)

القانون ووفقا للنظام المعمول به فى الآلايات ١ جى و٢ جى و٣ جى و ٤ جى بيادة وبإيفاء لوازم الحمية والغيرة المأمولين منك .

وأنت أيها القائمقام ويا بكباشية الأورط والصول أغاسية وجميع الضباط ، اعلموا أن البك المذكور هو ميرالايكم واتبعوا رأيه فى المسائل التى تكون موافقة للنظام ومطابقة للقانون وراعوا مراسم الاتحاد فى التعليمات العسكرية والخدمات الجهادية واسعوا فى إبراز ماشاهدناه من حسن درايتكم مضاعفا . وعليه فقد أصدرنا مرسومنا هذا من ديوان مصر ومن معسكر بنى عدى " .

تعليمات محمد على إلى قادة الجيش

ولم يكف محمد على عن توجيه تعليماته لقادة الجيش الفينة بعد الفينة . فهو لا يفتأ يبعث بإرشاداته إلى رجالاته ، لكى يكونوا على بينة من خطواته ، ويقتفوا آثار توجيهاته . فمثل هذه الارشادات أو التوجيهات كانت مصابيح الهدايا فى الطريق المستحدث ، يمضون على ضوئها نحو الهدف المرموق .

ولسنا بصدد عرض جميع هذه التعليمات أو التنويه بمختلف الارشادات وإنما نأتى على أمثلة منها .

مرسوم خديوى إلى ناظر الجهادية ورجال الجيش المصرى (١)

إلى افتخار الأمراء والأكابر محمد بك ناظر الجهادية دام اقباله وإلى افتخار الأماجد والأكارم عثمان بك رئيس رجال الجيش والميرلوا حسن بك دام مجدهما .

وإلى مفاخر الأماجد والأعيان حسين بك وسليم بك ميرالاى رجال الجيش ومحمود بك وأحمد بك وعلاء الدين بك وسليم بك ميرالايات الآلايات ٩ جى و١٠ جى و١١ جى و١٢ جى بيادة زاد مجدهم .

(١) وثيقة تركية رقم ٢٣٦ ورقة ٤١ دفتر ٢٠ معية تركى بتاريخ ٢٣ ربيع الثانى ١٢٤١ هـ (٥ ديسمبر ١٢٨٥) .



أمير اللواء ابراهيم يكن باشا

و إلى مفاخر الأماثل والأقران الأغوات القائمقامات والأغوات البكباشية والصاغ والصول قول أغاسي والحاسبين واليوزباشية وحاملي الأعلام والملازمي الأول والثناة والجاويشية والأونباشية وأمناء البلوكات زاد قدرهم و إلى جميع الجنود ...

بعد السلام — نبلغكم أن طريق الجهاد والفداء الذى هو للفيض رفيق هو طريق الله القوى وسبيل سلطان الأنبياء وهـذا شيء بديهى . والذين سلكوا هذا المسلك القويم من أصحاب الصدق والوفاء حصلوا على مرادهم ونالوا مبتغاهم وهذا أمر واضح لذلك قد صرفنا ما فى مقدورنا لتقوية نظام هـذا الطريق ولوينا عنان همتنا نحو استقرار هـذا النظام ونحمد الله إذ كانت الأزلية معنية بنـا ولازمنا التوفيق فقمنا بتنظيم الآلايات والأورط ووضعنا لهـا النظم التدريبية وكانت نتيجة ذلك أن شوهدت الفضائل العديدة والخصائل الجميلة للجنود الجهادية وشاع أمرها فى الأقطار المعمورة . وكان الواجب يقضى بتقدير هذا الفضل الإلهى وعرفان حق هذا الفيض اللانهائى و إبقاء الشكر والثناء على هذه النعم ولكنى يا حضرات الأمراء والضباط أسمع أن بينكم من لا يحترم هـذا السلك العسكرى الذى هو مبدأ العز والسعادة ومنشأ المجد والمناقب ولا يراعى أصول القوانين المودعة فى يد أمانتكم وأجاز لنفسه الغفلة والتراخى واستباح لنفسه سلوك طريق ملتوٍ غير موصل . ولا ريب فى أننا لا نرضى إطلاقا أن يصيب أصول نظام الجيوش الحسنة والجنود الغز الميامين ، الذين صرف فى سبيلهم أعظم الهمم حتى وجدت وأكبروا التوفيق حتى استقرت فنالوا بوضعهم الحديث استحسان الوكلاء ، أى خلل يودى بالشروط المقررة لهم أو أن يطرأ على قانونهم المحترم أى اعتلال .

كما أنه قبل كل شيء لا جدال فى وجوب وقاية هذا السلك من هذه العوارض فعليكم أنتم أيها الأمراء والضباط أن ترجعوا إلى القانون المسلم إليكم فى جميع حركاتكم وسكناتكم باتخاذكم جميعا وأن تسعوا للعمل بمقتضاه و إذا وجد من بينكم من يتبع الهوى و يفعل أفعالا مخالفة للشرع و يسلك سبيلا منافيا للأصول مناهضا للشروط

فلا ترعوا خاطره وإن كان قريبا أو صديقا لكم حتى ولو كان أبا أو أخا لكم ، وقوموا بتأدية التأديب اللازم طبقا لما توضح فى نص القانون واعنوا العناية الصادقة فى تعليم الأنفار وتحكيم أصول التعليمات حتى يتسنى لكم بذل مقدوركم فى إيفاء واجبات الصدق والإخلاص والسداد من بعد الآن كما هو المرتقب منكم وكما شاهدناه فيكم إلى الآن وفى وقاية نفوسكم من أن تكون معيوبة معاتبة بتجويز أدنى إهمال أو تراخ .

وأنتم يا صغار الضباط ويا جميع الجنود عليكم أن تطيعوا كباركم اعتبارا من رتبة أونباشى حتى البكباشى وأن تتبعوا أوامرهم وأن تبذلوا جهد المستطاع لتكونوا متخلقين بأفضل الأخلاق .

وأنت يا أيها الناظر عليك أن تفرغ قصارى جهدك وتبذل حميتك وغيرتك فى حل الشئون المتفرعة من نظارتك وأن تعمل على استكمال الوسائل الحسنة المؤدية إلى ازدهار الجيوش الجهادية وازدياد محاسنها النظامية واحذر أن تكون مسئولا بتجويز أقل ما يمكن من التهاون فى هذا الباب .

وعليه فقد أصدرنا مرسومنا هذا من ديوان مصر من باب التنبيه والتأكيد وأرسلناه إليكم فاعملوا بإذن الله بمقتضاه وتحاشوا أوضاع المخالفة له والمنافية للرضا".

وهناك عامل آخر كان له الأثر الكبير فى معنويات الجيش هو عزم "العزيز" على تأييد هذه المؤسسة وتنشيطها وشعور رجالها بذلك . فإنا نلمس هذا الأمر لمس اليد فى خطاب أرسله "العزيز" إلى ناظر الجهادية فى خريف سنة ١٨٢٧ وإليك النص (١) :

من الجناب العالى إلى محمود بك ناظر الجهادية :

إن مؤسسه الجهادية عمرها الله لهى فى حد ذاتها نعمة جليلة وأمنية بلغ من شرف قدرها أنى ما زلت منذ عشر سنين متعللا برجاء إدراكها قائلا : "أيكون لى أنا الآخر

(١) دفتر ٢٦ معية تركى — مكاتبة تركية رقم ١٦١ بتاريخ غرة ربيع الأول ١٢١٣ ﻫ .

سعادة نيلها " بل ما فتئت ألقى بنفسى وأولادى وعيالى و بعرضى ومالى و بذلك العدد الكبير من أصدقائى وأتباعى الذين هم غرس يدى وثمرة تعهدى . ألقى بكل أولئك فى المهالك وأعرضهم للضار والأخطار أملا فى إحداث هذا السلك الجهادى الذى تذكره يا محمود بك كيف كان وقع لفظه عليك حين سمعته لأول مرة فإن تكن حينذاك على حق فيما أظهرت من آثار الاستكبار الناشئ عن توقعك مخاطر هـذا المشروع الظاهرة وجرائره المنتظرة فإننى لم أحفـل بأوضاع الحـيرة التى تملكتك ولا أبهت لأحوال غيرك من سائر المقربين ولكنى وصلت ليلى بنهارى مضحيا بنومى وراحتى وماضيا فى عزمى وإقدامى حتى بلغت وله الحمد مرادى ووفقت وله الشكر الجزيل إلى نبيل مرامى كما أنك تذكر كم بذل بعـد ذلك من جهد فى المحافظة على هذا السلك لئلا يحيد عن جادته السـديدة جنوحا إلى الأودية المعهودة وكيف لم أضن فى سبيل ذلك حتى بعلى أغا كسكين زاده قائمقام آلاى ٥ جى بياده إذ أعدم رميا بالرصاص فى مواجهة الصفوف العسكرية وهو ذلك الذى نشأ فى رعايتى من الصغر و ربيته حتى شب وكبر .

فلهذا كنت أودّ أن نكون قد تخلصنا من الشعوذة والولاية والغفلة والرخاوة والغرض والضغينة والمحاباة التى طالمـا ألفناها ومللناها فى الأيام الخالية . وأن يكون ذلك العهد قد مضى وانقضى وبدلنا به عهدا يقوم على أساس الإنصاف والإنسانية والكياسـة والعدالة والاجتهاد والغيرة بحيث يتسنى لنـا نحن أيضا أن نصرف عملنا ونحجز مصلحتنا على أسلوب من اللطف والحسنى يدخلنا فى مصاف البشرية الراقية ولكن بينما نحن مطمئنون إلى هـذا الأمل إذ صـدمتنا جرائم محمود أفندى القائد السابق للآلاى ١ جى بيادة التى تبيناها سـواء من العريضة التى كان قدمها إلينـا أو من محرراته الواردة عليكم .

و إذا كنا قد حولنا قضية (محمود أفندى هـذا) عليكم لاستجوابه وفقا لقواعد النظام الجهادى المستحسـنة ثم لعرض أمره علينا بعدما يتفق يتخـذ المجلس بشأنه

قرارا موافقا لمقتضى العدالة والقانون . وكنتم بدوركم قد ألفتم بهذا القصد مجلسا جهاديا ثم حولتم القضية على سليم بك للفصل فيها . فان المجلس المذكور ما كاد يتلقى ردّ محمود أفندى على سؤاله حتى قنع بهذا الجواب فلم يبد من أحد من أعضائه أى ميل إلى الاعتراض على معاودة الشعوذة والولاية . ولا دحض جوابا بالجواب الذى يستوجبه و يقتضيه . وإنما ضرب المجلس فى أودية المحاباة فاعتبروا الجريمة ناشئة عن شكاية (أحمد باشا) ولم يحملوها فى قرارهم إلا هذا المحمل وهكذا صرفوا أنظارهم عن أداء الواجب بذمتهم وإبقاء من مهمتهم ولم يرعوا أصول الوظيفة والمصلحة . بل لقد حاولوا استدراجنا معهم إلى طرائق ولايتهم . فكان هذا داعيا إلى تعجبنا باعثا على دهشتنا وتحيرنا حتى ليعلم الله أن كبدى كادت تنفطر من شدة الأسى وتقطر دما من فرط الأسف فهل ضاع الانصاف أيضا (يامحمود بك)؟ أم تراهم اكتفوا برؤية الدعوى على ضوء القانون ظانين إنى نسيت مضمون عريضة (محمود أفندى) ومحرراته أو كانت الدعوى المذكورة قد نظرت حقا بحسب القانون وكان كل ما يستحقه الرجل هو ذلك الجزاء الذى قرره المجلس فى مضبطته بإجماع الآراء بعد وزنه بجرائمه وتقديره لها بموجب مضمون عريضته ومحرراته فليبعث إلىّ بتلك العريضة والمحررات لأحقق أنا أيضا المسألة . فقد أكون لها ناسيا . حتى إذا أسفر تحقيق عن صحة قرار المجلس فيها نعمت . وإلا حق علىّ أن أقاضى أعضاء المجلس وأفصل بنفسى فى دعواى فأوفى كلا منهم جزاءه .

وبناء على ذلك لقد أعدت إليكم فى طى كتابى هذا مضبطة المجلس ، كى تردوها إليهم وترسلوا معها العريضة والمحررات عسى أن ينعموا النظر فى المطابقة والموازنة . فان هم اجترأوا بعد ذلك على انتهاج خطة الخلاف فليعلموا علم اليقين إنى لابدّ موردهم موارد التلف تبعا للنصوص الواردة فى القانون .

أذن فليرعوا ذلك ويحكموا فى هذه الدعوى بمقتضى الحق والنصفة مسترشدين بمـا فى النظم الجهادية من أصول صحيحة مستحسنة وبمـا تنص عليه القوانين القيمـة ليختاروا لأنفسهـم واحدة من هاتين الخطتين ثم ليجيبوا مخـبرين بها مشـيرين إليها .

هذا ما لزم تسـطيره فاذا أحطتم علما بفحواه فأخص مطلوبنا أن تبادروا إلى إيفاء مقتضاه[1] " .

العناية بالرماية

أما أن محمدا عليا كان يعنى بتدريب الجيش على شئون الرماية ، فهـذه حقيقة لا ينكرها الواقـع . وكيف لا والرماية هى « الصناعة » التى يتعين أن يجيـدها كل جندى شاء أم لم يشأ . فحسبك أن تعلم مدى أهميتها حين نعترف بأن الجندى الذى لا يجيد الرماية أشبه بالبندقية التى لا تصيب الهدف ... كلاهما إن لم يك صالحا فهو مضر للغاية .

وفى الأمر التالى يلوح لنا جليا كيف كان هذا المصلح يفحص مثل هذا الأمر بعين محدقة ، ويوجهه برأس مفكرة ... .

من الجناب العالى إلى ناظر الجهادية

"إنه لمن البداهة أنكم ستعنون كل العناية بتعليم الآلايات الماثلة بمعسكر بنى عدى وفى تفنن الضـباط والعساكر كما ينبغى ، بيـد أنه من المعـروف أيضا أن اصابة الهدف من الأمور التى لها أهميتها وخطورتها . فمن الواجب — والحالة هذه — أن تعنوا أيضا بأمر الرماية وتعليم أصولهـا عنايتكم بالأمـور الأخرى . فنبهوا على الميرالاى الثالث خورشيد بك والميرالاى الرابع حسن بك والميرالاى الخامس سليم بك

(١) المكاتبة التركية رقم ١٦١ دفتر رقـم ٦ معية تركى بتاريخ غرة ربيع الأول سـنة ١٢٤٣ هـ (٢٢ سبتمبر ١٨٢٧ م) .

بأن يعنوا أيضا بتعليم الرماية وأفهموا سليمان بك أيضا بأنه يجب عليه بعد أن يفرغ من تعليم الفصول المطلوبة أن يشرع فى تمرين الجنود على الرماية أسوة بالتمرينات الأخرى وأن يوصلهم إلى درجة الكمال فيها وأن لا يتكاسل عن ذلك . فمتى علمتم أن هـذه إرادتنا فى هذا الصـدد أرونى يا أخى همتكم واعملوا على تنفيـذ ارادتنا ووافونا بالاجراءات التى أتخذتموها فى هذا الشأن " .

ديوان الجهـادية

لم يكن لدى محمد على مجلس للنظار أو الوزراء كما هـو الحال اليوم . بل كان لكل فرع من فروع الادارة الحكومية ديوان أو هيئة وعلى رأس كل ديوان ناظر ينفذ الأوامر التى يصدرها اليه بدون تحوير أو تعديل .

وكان عدد هذه الدواوين سبعة وهى :

الديوان العالى — ديوان الايرادات — ديوان الجهادية — ديوان البحرية — ديوان المدارس — ديوان الأمور الأجنبية — ديوان الفابريقات .

وقـد أنشئ ديوان الجهادية فى عام ١٢٣٧ هـ (١٨٢١ — ١٨٢٢ م) وكان يرجع اليه فى ادارة شئون الجنود البرية ، وتعليمهم ، وضبط حركاتهم ، وبنـاء الثكنات والمشاقى ، ومشترى المهمات والأسلحة وسواها .

ولم يكن على ناظر الجهادية سوى إصدار الأوامر التى يتلقاها من محمد على باشا وملاحظـة تنفيذها بدقـة و بسرعة و بدون الرجوع الى نظـام المكاتبات و بطئها المعـروف .

وكان لناظر الجهادية اثنان من الكتبة الأقباط يقومان بتحرير الرسائل الضرورية لفروع ادارة الجيش وأسلحته .

ومما يذكر أن أوّل من تقلد هـذه الوظيفة (ناظر ديوان الجهادية) محمد بك لاظ أوغلو ثم خلفه محمود بك عزت الذى بقى فى منصبه حوالى العـام ثم استبدل بالفريق أحمد المنكلى باشا وقد جرح فى معركة قونية .

المـــدارس الحـــربية

مدرســة القلعــة

بعد مذبحة المماليك فى سنة ١٨١١ ، جمع محمد على غلمانهم وصغارهم فى القلعة بمدرسة ، على غرار المدارس التى كان أمراء المماليك يقيمونها فى قصورهم . وأحضر لهم المعلمين يلقنونهم القراءة والكتابة التركية والفنون الحربية ، ثم زيد عليها الرسم والرياضيات واللغة الايطالية .

ومن ثم أوفد — فيما بعد — كبار تلاميذ هذه المدرسة و بعض غلمانه وغلمان كبار موظفيه الى أسوان حيث أنشئت لهم مدرسة حربية يتعلمون فيها على أيدى المدربين الأوربيين وعلى رأسهم الكابتن « سيف » الذى تسمى بعد باسم "سليمان الفرنســاوى" .

تنظيم التعليم العسكرى :

وما لبث أن ارتائ محمد على أن ينظم التعليم العسكرى فى البلاد — فأمر بتأليف مجلس يهمن على شئون التعليم فى الجيش و يتولى الإشراف على تدريبه وسمى ديوان «قومسيون» المدارس العسكرية . وقد تألف هذا الديوان من ناظر الجهادية رئيسا وعثمان نور الدين بك وقادة الآلايات العسكرية فى مصر والكولونيل جـودا مدير تعليم المشاة والبكباشى فوجت و زميله ديلفورت ، وكان يقوم بأعمال السكرتارية — أحيانا — القومندان بلانا .

وكانت من أعمال هــذا الديوان البحث فى مطالب تعليم الجيش ، ووضع القوانين والتعليمات وتعديلها على حسب الأحوال . وقد أسندت رئاسة هذا الديوان لأمير اللواء مصطفى مختار بك .

مدرسة البيادة بأسوان

فى اليوم الثامن من أغسطس عام ١٨٢١ صدر أمر محمد على بإنشاء المدرسة الحربية بأسوان وتنظيمها والعناية بأمرها وتدريس العلوم بها . وفى اليوم السابع والعشرين وافق على ترتيب دروس المدرسة الحربية .

وحين حل الخامس والعشرون من يناير ١٨٢٢ صدر أمر بتعيين محمد بك لاظ أوغلو ناظرا على مدرسة أسوان المذكورة ولتنظيمها ولادارة شئونها . وفى الأمر الآنف نصح تلامذة المدرسة بصفته والدهم على الانقياد للناظر و بالاجتهاد فى تحصيل العلوم والفنون لأجل ترقيتهم .

وفى ١٦ فبراير ١٨٢٢ صدر أمر من محمد على باشا لهذا الناظر بالاجتهاد مع سليمان أغا (الفرنساوى) لعمل ترتيب للمدرسة حسب التعليمات التى أعطيت للمذكور، وانتخاب من يلزم من المدرسين ، وترقية المجتهدين من التلامذة الى جاويش أغاسية أو "بلوك باشية" ، لحث الباقين منهم على التقدم أسوة بغيرهم .

بيد أن أسوان لم تك ملائمة للدراسة العسكرية — ولذلك نقلت المدرسة الحربية الى (إسنا) فانتقل سليمان أغا و بصحبته أحمد أفندى — وهو من الرجال الفنيين — وكان يتردد عليهما بين الحين والآخر إبراهيم باشا ليقف بنفسه على نجاح تدريب النواة الأولى للجيش المصرى .

واستمرت مدرسة إسنا الحربية قائمة على تخريج الضباط لفرق الجيش الجديدة . الى أن نقلت الى أخميم ثم النخيلة (على مقربة من أسيوط) . وأخيرا استقر معسكر التدريب أو المدرسة الحربية بالخانقاه . وقد سميت فيما بعد بمدرسة الجهادية [1] .

(١) ذكر مسيو جوبمار فى كتابه (La Reforme en Egypte) أن قائد هذه المدرسة كان ضابطا سرديniا اسمه (بلاسو) وكانت تسع خمسمائة طالب ، ولم يقدر لهذه المدرسة البقاء سوى بضع سنوات .

مدرسة البيادة بالخانقاه

أنشئت مدرسة البيادة على مقربة من الخانقاه فى سبتمبر سنة ١٨٣٣ لتخرج ضباط وحدات المشاة . بيد أنها لم تعمر بالخانقاه طويلا . إذ نقلت فى مايو سنة ١٨٣٤ ، أى بعد نحو عامين من إنشائها بالخانقاه، الى مدينة دمياط . فظلت بها حوالى سبع سنين ثم نقلت سنة ١٨٤١ الى أبى زعبل فى مكان المدرسة التجهيزية . ومكثت بها الى نهاية عهد محمد على . وقد نصت لوائح التعليم فى سنة ١٨٣٦ على أن مدّة الدراسة بمدرسة البيادة بدمياط ثلاث سنوات . يدرس فى غضونها التلاميذ المواد التالية : مبادئ التحصين ، والطبوغرافيا ، و رسم الخطط ، ونظريات وحركات البيادة ، والتمرين على استخدام السلاح ، وواجبات الخدمة الداخلية والبوليس ونظام الحاميات والأورط والبلوكات .

وكان موظفو المدرسة هم : مديرها يوسف أغا بعد أن كان الضابط بولونينو ووكيله وأستاذ للطبوغرافيا والخطط ، وآخر للتحصين والهجوم ، وأربعة ضباط من المشاة ، وأربعة ملازمين ، ومدرّب للسلاح ، وآخر للرياضة البدنية . وكان يرأس لجنة امتحان تلاميذها قائد من الجيش .

وقد نص قانون المدرسة على اعتبار تلاميذ مدرسة المشاة كتيبة فى الجيش . ومما يذكر أنهم كانوا فى سنة ١٨٣٧ خمسة وستين وثلاثمائة . منهم الأنفار وضباط الصف ثم أربى العدد عقب ثلاث سنين على الأربعمائة . حتى إذا كانت سنة ١٨٤١ وأعيد النظر فى تنظيم المدارس رأت الحكومة أن الحاجة إلى مدرسة المشاة ماتزال ماسة حتى بعد إنقاص الجيش لإلغاء معسكر النخيلة الذى كان يمدّ الجيش بالضباط . ولم يبق ثمة مدرسة تخرج ضباط للمشاة سوى مدرسة البيادة . لهذا استبقيت المدرسة على حالتها الأولى مؤلفة من أربعة بلوكات . فى كل بلوك مائة وعشرة من التلاميذ ماعدا ضباط الصف . وقد تضخمت أعداد التلاميذ حتى صارت المدرسة تحتوى

على ثمانية وستين تلميذا بعد الثمانمائة وبذا كانت المدرسة الوحيدة بمصر التى ازداد عدد تلاميذها بعد سنة ١٨٥١ عما كانت عليه من قبل .

وقد ظلت المدرسة الى أخريات أيام محمد على زاخرة بعدد وفير من التلاميذ يربو على عدد تلاميذ أى مدرسة أخرى بمصر (٣٣٠ تلميذا) . وفى بداية حكم عباس الأول نقلت مدرسة البيادة من ابى زعبل الى الجيزة ثم ألغيت وسرح تلاميذها .

مدرسة أركان الحرب

أنشئت مدرسة أركان الحرب بقرية "جهاد أباد" بقرب الخانقاه بمشورة عثمان نور الدين أفندى . وقام على تأسيسها الكابتن الفرنسى "بلانا"(1) وبدأت الدراسة بها فى ١٥ أكتوبر سنة ١٨٣٥ .

وأقيم للمدرسة بناء جميل، وشيدت منازل على النسق الحديث، وكانت نواتها الأولى ١٨ ضابطا وكان (بلانا) ينهض بنصيب موفور من التعليم وبمعاونة بعض المدرسين الأوروبيين والشرقيين .

وكانت مدة الدراسة بها ثلاث سنوات . وكان فى نية منشئها زيادة مدة الدراسة سنة رابعة يتناول فيها التلاميذ الطبيعة والكيمياء والحساب والجغرافيا والتاريخ .

وكان الضباط الذين يتخرجون فى هذه المدرسة يعينون "أركان حرب" فى الوحدات الفنية فى الجيش ، أو فى المدفعية ، أو فى المناجم ، أو فى الإدارة الحربية أو المدنية أيضا .

---

(١) خدم جول بلانا مصر من عام ١٨٢٤ الى ١٨٢٨ ومات فى فرنسا فى العام التالى .

مدرسة السوارى

أنشئت مدرسة السوارى فى ذى القعدة ١٢٤٦هـ (أبريل ١٨٣١م) وخصصت لها قصر مراد بك بالجيزة. وقد استمرت به حتى ألغيت فى بداءة عصر عباس الأول.

وقد نصت لوائح المدرسة (سنة ١٨٣٦ — ١٨٣٧) على أن يلحق بها :

(١) ضباط يعدّون ليكونوا معلمين بالجيش .

(٢) تلاميذ من المدرسة التجهيزية .

(٣) جنود من الجيش ليكونوا نافخى الأبواق و"ترومبتجية" .

أما الضباط فتبعث بهم الى المدرسة فرق الجيش على ألا تقل أعمارهم عن ثلاثين سنة . ويشهد رؤساؤهم بكفايتهم وحسن أخلاقهم . وتختبر مهارتهم فى الثلاثة أشهر الأولى من بدء التحاقهم بالمدرسة . حتى إذا قبلوا بها نهائيا ظلوا بين جوانحها عامين أو ثلاثة أعوام يدرسون العلوم التى تؤهلهم ليكونوا فيما بعد معلمين فى وحدات الجيش .

أما التلاميذ الذين يؤخذون من المدرسة التجهيزية فيمكثون بمدرسة السوارى ثلاثة أو أربعة أعوام يعينون بعدها ضباطا فى فرق الفرسان بالجيش . وكان تلاميذ المدرسة يتلقون دروسا مختلفة بعضها فى نظريات الخدمة العسكرية وبعضها فى اللغات العربية والتركية والفارسية . وبعضها الآخر فى الهندسة والحساب والرسم والخط . هذا إلى التدريب العسكرى فى القفز وركوب الخيل واستخدام السلاح وغير ذلك من فنون الفروسة . وكان تلاميذ المدرسة مقسمين أربع فرق فى دروس الخدمة العسكرية ، وبالمدرسة فرقة للرسم وأخرى للفروسية . وفيما عدا ذلك يقرأ التلاميذ كتبا متباينة فى العربية والتركية والفارسية ويمرنون على خط الرقعة أو الثلث . وكان ضباط المدرسة وفريق من تلاميذها يتعلمون اللغة الفرنسية .

وكان على التلاميذ أن يخدموا خيولهم بأنفسهم فى الثلاثة أشهر الأولى من دراستهم .

وكانت مدرسة السوارى — كما ذكرنا — تنتظم ضباطا وتلامذة وجنودا ضاربين على الطبل ، وآخرين نافخين فى الأبواق .

أما الضباط فكانوا يقومون على تعليم التلاميذ وتدريبهم و يتلقون دروسا تعدهم ليكونوا معلمين بالجيش .

أما التلاميذ — وكانوا الأغلبية فى المدرسة — فكانوا يؤخذون من المدرسة التجهيزية وسواها من المدارس الحربية والخصوصية .

أما الجنود فكانوا من أولاد الجند العاملين ويلحقون بالمدرسة و يقرءون بها القرآن الكريم و يتعلمون القراءة والخط .

وأما النافخون فى الأبواق " البروجية " فكان مقررا للمدرسة أربعة وأربعون وكانوا ينتخبون من تلاميذ المدارس الأخرى الحاصلين على درجة " دون الدون " فى الامتحانات .

وقد بلغ عدد تلاميذ المدرسة فى عهدها الأول من الترك والمماليك حوالى المائتين . أما المصريون فكانوا يقصرون على تعليم العزف فى الأبواق . ولكن ما لبث العنصر المصرى ينمو بها و يتزايد حتى إذا مضت سنوات قلائل أصبح تلاميذ المدرسة كافة من المصريين وزال منها العنصر الأجنبي أو كاد .

وأكبر عدد بلغته مدرسة السوارى (٧٥٠ تلميذا وجنديا) وفى سنة ١٨٤٦ كان مجموع من بها ٦٣٩ منهم ثلاثون ضابطا و ٣٢٨ تلميذا و ٢٨١ جنديا ونافخا فى البوق وضاربا على الطبل .

وفى مستهل حكم عباس الأول ألغيت المدرسة .

ومما يذكر أنه قد تولى منصب (مدير المدرسة) فى عهدها الأول ضابط فرنسى يدعى " فارن " (Varin) فنظمها على غرار المدارس الحربية الفرنسية وقد رفع محمد على رتبته إلى أميرالاى عقب انتصار الجيش فى حروب عام ١٨٣٢ . وقد خلفه على إدارة المدرسة ضابط فرنسى يدعى " واسيل " أو " واسيل أغا " وقد ظل مديرا للمدرسة حتى شارف عصر محمد على النهاية .

مدرسة المدفعية

لما مست الحاجة إلى ضباط لوحدات المدفعية المنشأة فى ذلك العهد تقدّم ضابط إسبانى اسمه " دى سيجويرا " إلى إبراهيم باشا القائد العام للجيش المصرى باقتراح إنشاء مدرسة خاصة بالمدفعية فوافقت الحكومة على اقتراحه وأنشئت المدرسة وعين مديرا لها . وجمعوا لها ثلاثمائة من تلاميذ مدرسة قصر العينى التجهيزية . وكان إنشاء المدرسة فى سنة ١٨٣١ م (١٢٤٧ هـ) .

أنشئت المدرسة فى طرة وكان غالبية تلاميذها — أول نشأتها — من المصريين والأتراك كما كان منهم يونانيون من كانديا وبعض أفراد الأسرة الحاكمة . وقد تراوحت أعمارهم بين الحادية عشرة والخامسة عشرة ومنهم من يزيد على ذلك . ولم يكن يشترط عند التحاقهم بها إلا معرفة القراءة والكتابة ثم يتعلمون الحساب والهندسة والجبر والرسم والاستحكامات ولغة أجنبية .

فالذين يعدّون للخدمة فى الأسطول يتعلمون الإنجليزية . والذين يعدّون للجيش يتعلمون الفرنسية أو الإيطالية . أما اللغة التركية فكان يتعلمها جميع التلاميذ على السواء .

وكان يضطلع " رفاعة رافع الطهطاوى " وقد عين مترجما بمدرسة المدفعية بعد نقله من مدرسة الطب بدلا من المستشرق الشاب " كنيك " (Kœnick) وظل بها سنتين (١٨٣٣ — ١٨٣٥) .

وفى سنة ١٨٣٦ ندب شورى المدارس لتنظيم مدرسة المدفعية بطرة لجنة مؤلفة من مختـار بك مدير الشورى و " حكاكيان أفندى " مدير مدرسـة المهندسخانة والمسيو " لامبير " وكان آنذاك مهندسا بشورى المدارس . وانضم اليهـم " مظهر أفندى " المهندس و " بهجت أفندى " مدير مدرسة المدفعيـة والمسيو " برونو " مدرّب التلاميذ بها . ودرست اللجنة نظام المدرسة ووضعت لائحتين (١) .

وقد أصبح برنامج الدراسـة فى أواخر عصر محمـد على حافلا بالدروس المنوعة كفيلا بتخريج ضباط أكفاء للمهنة التى أعدّوا لها .

وفى سـنة ١٨٤١ رأت اللجنة التى وكل اليها تنظيم التعليم أن تحتفظ بالمدرسة على أن يكون قوامها عددا من التلاميذ كافيا لإدارة " بطاريتين اثنتين " . بيـد أن حظها بعد سنة ١٨٤١ لم يكن خيرا منه قبل تلك السنة .

فقبل سنة ١٨٤١ كانت الحاجة ملحة إلى ضباط لفرق الجيش التى تتزايد يوما إثر يوم . الشئ الذى طالمـا دعا الى تخريج التلاميذ قبل أن يستكملوا دراستهم . ولكن بعد سنة ١٨٤١ أنقص الجيش وأصبح كثيرا من خريجيها الذين أتموا علومهم على قلتهم لا يكادون يجدون عملا . فكانوا يظلون بالمدرسـة يستعيدون دروسهم حتى تحتاج اليهم أو إلى بعضهم فرق الجيش .

وكان عدد تلاميذ المدرسة وقت إنشائها ثلاثمائة تتراوح أعمارهم بين الحادية والخامسة عشرة أو تزيد على ذلك أحيانا .

ولمـا نظمت المدرسة فى سنة ١٨٣٦ لم تستطع المدرسة أن تستوفى إلا نحو مائة وثمانين تلميذا موزعين على ثلاث فرق دراسية .

وفى سـنة ١٨٤٣ كان بهـا ثمـانون ومائة تلميـذ لحسب موزعين على أربع فـــرق .

---

(١) تاريخ التعليم فى مصر — أحمد عزت عبد الكريم . ص ٤٠٩ — ٤١١

وفى العام التالى استوعبت المدرســة أكثر من مائتى تلميذ موزعين على ست فرق دراسية . ولكن عدد التلاميذ ارتدّ يهبط سريعا حتى وصل فى سـنة ١٨٤٦ الى أقل من مائة ثم الى ثمانية وسبعين تلميذا موزعين على أربع فرق دراسية .

وفى أخريات أيام محمد على تقرّر إبلاغ عدد تلاميذها الى ثلاثمائة بأ كلهم من تلاميذ المكتب العالى بعد امتحانهم .

وفى أوائل عهد عباس الأول أغلقت المدرسة أبوابها . وقد كان أول مديرى المدرسة الكولونيل (الدون أنطنيودى سيجو يرا) بيد أنه اعتزل الخدمة بعد أربع سنوات وخلفه مصطفى بهجت أفندى (باشا فيما بعد) عضو بعثــة عام ١٨٢٦ الى فرنسا ثم ناظر مدرسة قصر العينى التجهيزية .

وكان يعاونه مدرّب فرنسى يدعى "برو نو" ثم خلفه "خليل أفندى" مديرا للمدرسة و بعد ذلك استقل الضابط المدرّب "برونو" بإدارة المدرسة وظل بها الى أواخر عصر محمد على .

مدرسة الموسيقى العسكرية

أنشئت فى قريه "جهاد أباد" مدرسه لتعليم الموسيقى لنفر من أبناء المصريين ليكونوا موسيقيين فى وحدات الجيش والأسطول . وكان يعلمهم معلم أجنبى يدعى الخواجة كلود كاريه . ثم نقلت المدرسة الى "الخانقاه" وكان عدد تلاميذها يبلغ المـائتين .

وكانت هذه المدرسة تابعة منذ إنشائها لديوان الجهادية ثم أصبحت منذ أوائل سنة ١٨٢٧ تابعة لديوان المدارس .

ورأى الديوان أن عدد تلامذتها — وكان مائتى تلميذ وخمسة تلاميذ — أكبر مما تحتاجه فرق الجيش وأنهــم يزيدون على نسبة المعلمين — فقرّر الاكتفاء بمائة وخمسين منهم ونقل الباقين الى مدرسة المبتديان وعين لهم مدرّسين من الأجانب .

وفى عام ١٨٤١ ألغيت المدرسة ووزع تلامذتها على المدارس الحربية .

وكان عدا مدرسة الخانقاه — ثمة مدارس أخرى لتعليم الموسيقى منها مدرسة بأثر النبي ثم نقلت الى سوق السلاح فى البناء الذى كان مصنعا للصوف . ومدرسة بالقلعة — وقد زارها بعض كبار الأجانب وأعجبوا ببراعة تلاميذها المصريين فى تفهم الموسيقى الغربية وأداء أدق القطع لأمهر الموسيقيين الإيطاليين والفرنسيين .

مدارس الوحـــــدات

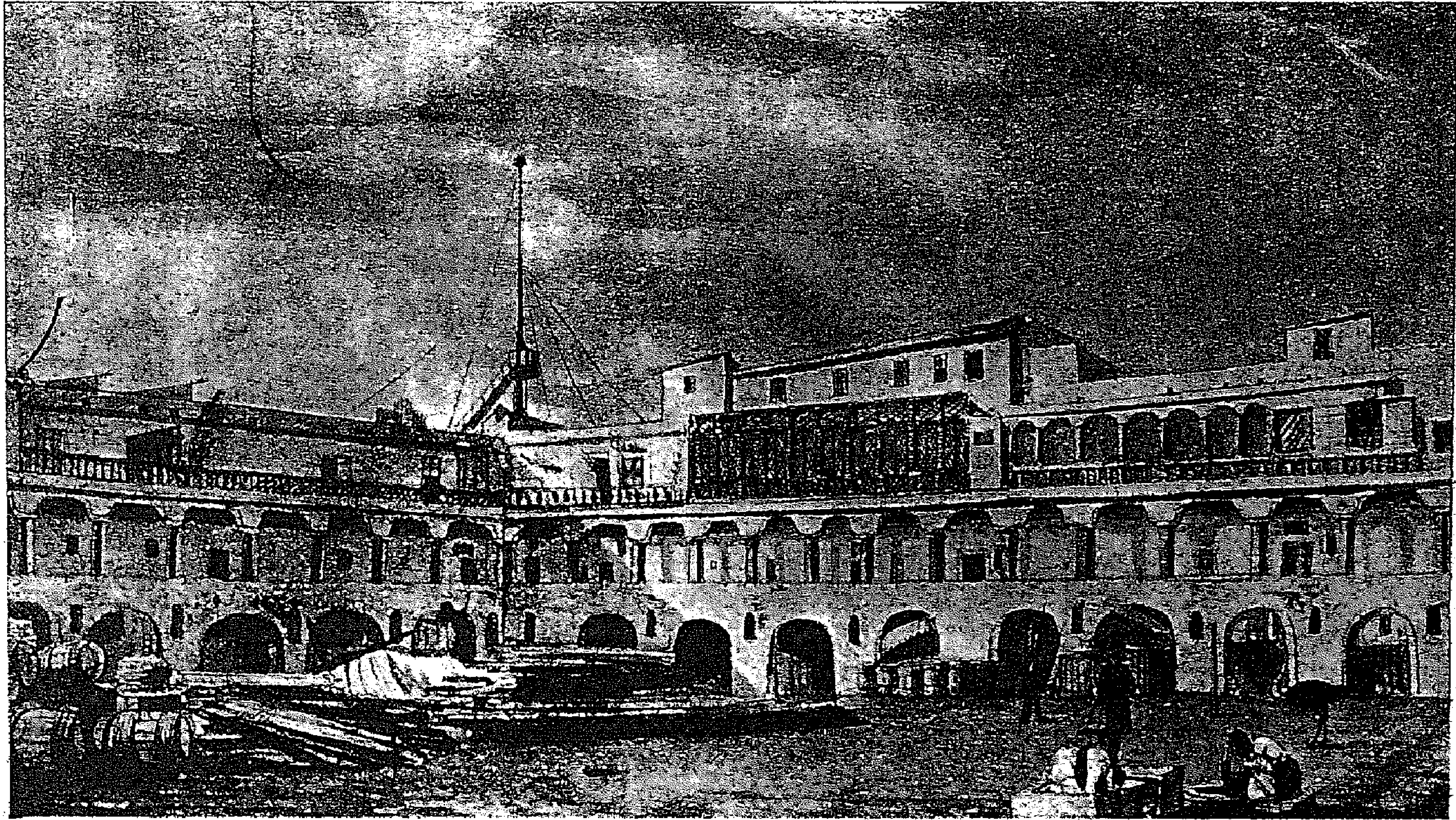
لم تهمل حكومة محمد على تعليم جنود جيشنا . فهيأت مدارس بفرق الجيش ووحدات الأسطول يتعلم بين جوانحها الجنود (جنود البر والبحر) القراءة والكتابة والحساب . وكانت الحكومة تولى تشجيعها للتفوقين منهم بترقيتهم قبل أقرانهم .

البعثات العسكرية

ورأى محمد على باشا — بعد إنشاء النظام العسكرى الحديث فى مصر وتأسيس المدارس الحربية والمؤسسات التى لا غنى لجيش وطنى — أن حاجة البلاد الى الأجانب من مديرين ومدرسين لا تزال حيث كانت . ولما كانت نفسه الطموحة لا تريد أن تحتاج البلاد الى شيء ما من الخارج . عوّل على إيفاد البعوث من الشبان الذين أهلتهم معاهد العلم بمصر الى أوروبا ليتموا دراستهم بها ليتهيأ تمصير تعليم الجيش . وشرع يرسل التلاميذ تباعا إلى مختلف البلدان الأوروبية لتكون منهم نواة لإحياء المجد العلمى بمصر الحديثة ، وتخير مسيو جومار رئيسا للبعثات المصرية بفرنسا وغيرها للاشراف على البعوث العلمية .

بعثة الجيش الأولى

كانت أولى البعثات التى أوفدها محمد على — عام ١٨١٣ — للتخصص فى الشؤون الحربية وكان أعضاؤها :



دار الصناعة بالاسكندرية

دويدار مصطفى مختار — أرسل لتعليم الإدارة الحربيـة . ومن المناصب التى تولاها مدير ديوان الجهادية عام ١٨٣٥ ثم مدير ديوان المدارس (١٨٣٦) . وكان أول ناظر للمعارف فى مصر .

محمد مظهر — تخصص فى دراسة الرياضيات والهندسة وبعودته الى مصر عين ناظرا لمدرسة المدفعية بطرة ، ومن أهم أعماله إنشاء فنار الاسكندرية برأس التين .

أحمد يكن مصطفى القللى — تعلم صناعة الدخيرة .

البعثة الثـانية

كان عدد أعضاؤها قليلا وقد سافروا عام ١٨١٨ . ومن أظهر أفرادها عثمان نور الدين (باشا فيما بعد) وقد ترقى الى أرفـع المناصب العسكرية ثم رئيسا للأسـطول المصرى (١٨٢٨) .

البعثة الثـالثة

أوفدت عام ١٨٢٦ — وقد تخصص معظم طلبتها فى الصناعات العسكرية فتعلم أمينى أفندى وأحمد حسن حنفى صب المدافع وصناعة الأسلحة . ودرس المدفعية عمر أفندى وسليمان لاظ (الطرابزونى) . وتلقى علوم الإدارة الحربية رشيد أباظة وسليمان الجركسى .

البعثـــة الرابعـــة

أوفدها محمد على فى عام ١٨٤٤ وهى أعظم البعثات العسكرية وبلغ عدد تلامذتها سبعين تلميذا ثم لحق بهم غيرهم . ومن أعضائها :

أحمـد حلمى بك وكان من أهم الوظائف التى شغلها ناظر المدرسـة الحربية بالقلعة السعيدية .

أحمد خير الله بك .

أحمد راسخ بك .

الأمير أحمد رفعت .

أحمد عجيلة السبكى بك وكان من كبار رجال الرى فى مصر .

أحمد عبيد بك وله عدّة مؤلفات عسكرية مترجمة .

أحمد نجيب (باشا) .

الخديوى اسماعيل باشا .

حسن أفلاطون باشا — عين فى عهد سعيد باشا رئيسا للمصانع الحربية بالحوض المرصود .

الأمير حسين باشا .

الأمير محمد عبد الحليم باشا .

حماد عبد العاطى باشا — تخصص فى المدفعية — وفى عام ١٨٥٤ عين مديرا لمصنع الحوض المرصود ، وله عدّة مقالات عسكرية نشرت فى مجلة أركان الحرب المصرية .

حنفى هند بك .

خورشيد بك برتو بك .

سعيد نصر (باشا) تقلد عدّة مناصب مدنية وعسكرية وقضائية .

سليمان نجاتى (بك) عين مأمورا لإدارة المدرسة الحربية بالعباسية فى عهد الخديو اسماعيل .

شافعى يعقوب رحمى (بك) . اضطلع بعدة أعمال طبوغرافية واشترك مع المهندسين العسكريين فى عمل أبحاث شق قناة السويس .

شحاتة عيسى (بك) كان فى عهد الخديو اسماعيل ناظرا لمدرسة أركان الحرب .

صادق سليم شنن — عبد الرحمن محمد — عبد الفتاح بك — عثمان شريف — عثمان صبرى — عثمان نورى (باشا) .

على ابراهيم (باشا) عين فى عهد الخديو توفيق ناظرا للمعارف ثم ناظرا للحقانية .

على شريف (باشا) .

على فهمى (باشا) .

على مبارك (باشا) تقلد عدّة مناصب عسكرية فى الجيش وفى المعاهد واشترك فى حرب البلقان وعين فى عام ١٨٧٧ لادارة الأوقاف والمعارف ثم أسندت اليه نظارة الأشغال واشترك فيما بعد فى عدّة نظارات واستعفى فى مايو ١٨٩١ وأدركته الوفاة فى ١٤ أكتوبر عام ١٨٩٣

محمد اسماعيل الطوبجى — محمد خفاجة — محمد راشد (باشا) — محمد شريف (باشا) وكان من أعظم رجال مصر .

محمد صادق (باشا) قام بعدّة أعمال جغرافية فى وادى النيل وبلاد العرب .

محمد عارف (باشا) .

مراد حلمى (باشا) .

ولى حلمى (بك) ... وآخرون ... .

ولا ريب أن مصر قد أفادت من خدمات هؤلاء الرجال الذين نشأوا على عهد محمد على وبرزوا على أيام أحفاده ... بل نستطيع القول بأنهم كانوا العمد الذين ازدهى بهم بناؤه .

وحدات الجيش

آلاى المشاة الأوّل (١ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٣ وألغى فى سنة ١٨٨٢ بعد الثورة العرابية . ثم أعيد إنشاؤه فى أواخر السنة الآنفة وأرسل إلى السودان ضمن حملة هكس باشا وأبيد عن آخره فى صحارى كردفان مع أفراد الحملة فى نفس العام .

آلاى المشاة الثانى (٢ جى آلاى بيادة)

هيئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٣ وألغى فى سـنة ١٨٨٢ بعد الثورة العرابية . ثم أنشئ من جديد فى أواخر السـنة المذكورة وأنفـذ إلى السودان ضمن حمـلة (هكس) باشا وانقضى عن آخره فى صحراوات كردفان مع بقية أفراد الحملة فى نهاية تلك السنة .

آلاى المشاة الثالث (٣ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٣ وألغى فى سنة ١٨٨٢ عقب الثورة العرابية . ثم أعيد إنشاؤه من جديد فى أواخر السنة الآنفة وأرسل إلى السودان ضمن قوّات (هكس) باشا وأبيد فى فلوات كردفان مع باقى أفراد الحملة فى أواخر تلك السنة .

آلاى المشاة الرابع (٤ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٣ وألغى فى سنة ١٨٨٢ بعد الثورة العرابية . ثم أعيـد إنشاؤه فى أخريات السـنة المذكورة وأرسل إلى السـودان ضمن جيش (هكس) باشا وتلقى إبادته فى صحراوات كردفان مع بقية أفراد الحملة فى أواخر تلك السـنة .

آلاى المشاة الخامس (٥ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٣ ، وفى سنة ١٨٧١ ، عندما أدخل الخديوى اسماعيل نظام الفرق فى الجيش ، فاتخذ هذا الآلاى رقم (١ جى بيادة ٢ جى فرقة) . و بعد التخفيض الذى أصاب الجيش فى سنة ١٨٧٩ ، لسوء حالة القطر المـالية ، نمر فى سنة ١٨٨٠ بالنمرة الأصلية . ثم فى الثورة العرابية حينما زيد الجيش لمحاربة الإنجليز نمر مرة أخرى (١ جى بيادة ٢ جى فرقة) وألغى بعد الثورة فى سنة ١٨٨٢ ، وحدث أن أعيـد إنشاؤه من جديد تحت رقمه الأصلى فى أخريات السنة المذكورة وأرسل إلى السودان بين حملة (هكس) باشا وظل فى الخرطوم كحامية لها . و بعد

حصارها وسقوطها فى سنة ١٨٨٥ أبيد هذا الآلاى وكان أطول آلايات الجيش عمـــرا .

آلاى المشاة السادس (٦ جى آلاى بيادة)

أنشئ هـذا الآلاى فى سـنة ١٨٢٣ واشترك فى حرب سورية سـنة ١٨٣١ ولم يعد منها لخيانة قائده الذى سلمه لجيش الحلفاء بعد وقعة بيروت فى سنة ١٨٤٠ ومع كونه منتصرا على هـذا الجيش فقد فعل هـذا خوفا من إبراهيم لغلطة كان قد اقترفها فى غضون القتال .

وعقب عودة الجيش من هـذه الحرب ، فى سـنة ١٨٤١ ، أعيد إنشاء هذا الالاى من جديد .

وفى سنة ١٨٧١ ، عندما نسق نظام الجيش على وتيرة فرق منفردة، حمل هذا الآلاى رقم (٢ جى بيادة ٢ جى فرقة) . وبعد تخفيض الجيش فى سـنة ١٨٧٩ ، لسوء مالية مصر، نمر بنمرته الأصليـة . وفى الثورة العرابية ، عنـدما زيد الجيش لمحاربة الإنجليز، نمر مرة أخرى (٢ جى بيادة ٢ جى فرقة) . ثم ألغى بعـد الثورة الآنفة فى سنة ١٨٨٢ مع باقى الجيش .

وعندما هيأ الخديوى إسماعيل الجيش فى فرق منفردة فى سنة ١٨٧١ ، وزاده فى سـنة ١٨٧٤ م فرقة واحدة هى : ٣ جى فرقة ، أنشأ هـذا الالآى من جديد ونمره (١ جى بيادة ٢ جى فرقة) . ثم ألغى فى سنة ١٨٧٩ م عندما خفض الجيش لسوء المـالية المصرية فى ذاك العهد . ثم أعيد إنشاؤه مرة خامسة فى سنة ١٨٨٢م وقت الثورة العرابية عندما زيد الجيش لمواجهة الانجليز ونمر مرة أخرى : (١جى بيادة ٣ جى فرقة) ثم ألغى مع باقى وحدات الجيش بعد الثورة المذكورة فى سنة ١٧٨٢م .

آلاى المشاة العاشر (١٠ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٥ . ثم توجه لحرب سورية سنة ١٨٣١ م ولم يعد منها ولعله أسر أو أبيد . وبعد عودة الجيش من هذه الحرب فى سنة ١٨٤١ م

أعيد إنشاء الآلاى المذكور لتكوين الجيش الذى أرسله عباس باشا الأول مساعدة للدولة العلية فى حرب روسيا من سـنة ١٨٥٥ وبعـد انتهاء الحرب المذكورة ألغى فى سنة ١٨٥٦ م . ثم أنشئ مرة ثالثة فى سنة ١٨٧٠ .

وعندما هيأ الخديوى اسماعيل الجيش فى فرق منفردة، فى سنة ١٨٧١ م، وزاده فى سنة ١٨٧٤ م فرقة واحدة هى ٣ جى فرقة أنشأ هذا الآلاى من جديد ونمره . (٢ جى بيادة ٣ جى فرقة) ثم ألغى فى سـنة ١٧٨٩ م عندما خفض الجيش لسوء المـالية المصرية فى ذلك العهـد . وأعيد إنشاؤه للمرة الخامسة فى سـنة ١٨٨٢ م حينما زاد العرابيون الجيش لمحاربة الانجليز ونمره نمرة أخرى : (٢ جى بيادة ٣ جى فرقة) . ثم ألغى مع باقى الجيش بعد الثورة العرابية فى سنة ١٨٨٢ م .

آلاى المشاة السابع (٧ جى بيادة)

أنشئ هـذا الآلاى فى سنة ١٨٢٤ ، وفى عام ١٨٧١ ، حينما استحدث نظام الفـرق فى الجيش ، أخذ هـذا الآلاى رقم (٣ جى بيـادة ٢ جى فرقة) . وألغى فى سنة ١٨٧٩ عندما أصاب الجيش التخفيض لسوء مالية مصر فى ذلك العهد .

وعندما قبض العرابيون على أزمة الحكم زادوا الجيش فى أوائل سـنة ١٨٨٢ وأعادوا هذا الآلاى بنمرته الأصلية . ثم نمر مرة أخرى لدى زيادة الجيش فى تلك السنة لمحاربة الإنجليز بنمرة (٣ جى بيادة ٣ جى فرقة) . وألغى بعـد الثورة العرابية فى سنة ١٨٨٢ مع باقى وحدات الجيش .

آلاى المشاة الثامن (٨ جى آلاى بيادة)

أنشئ هـذا الآلاى فى سنة ١٨٢٤ ، وفى سـنة ١٨٧١ عندما استحدث نظام الفرق فى الجيش نمر الآلاى الآنف (٤ جى بيـادة ٢ جى فرقة) . وألغى فى سـنة ١٨٧٩ حينما خفض الجيش لسوء ماليـة مصر فى ذلك العهـد ، وبعـدما قبض العرابيون على زمام الحكم زادوا الجيش فى أوائل سنة ١٨٨٢ وأعادوا هذا الآلاى برقمه الأصلى .

وعندما زيد الجيش فى تلك السنة الأخيرة لمحاربة الانجليز نمر مرة أخرى (٤جى بيادة ٢ جى فرقة) . وألغى بعد الثورة العرابية فى سنة ١٨٨٢ مع باقى الجيش .

آلاى المشاة التاسع (٩ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى عام ١٨٢٤ بعد عودة الجيش من حرب سورية فى عهد محمد على باشا ، ثم أنشئ من جديد لتكوين الجيش الذى أرسله عباس باشا الأول مساعدا للدولة العلية فى حرب روسيا المعروفة بحرب القرم من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ م . وألغى فى سنة ١٨٥٦ بعد انتهاء هذه الحرب . ثم أنشئ مرة ثالثة فى سنة ١٨٦٦ وألغى فى سنة ١٨٧٠ .

الآلاى الحادى عشر المشاة (١١ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٥م . ثم ألغى فى سنة ١٨٤٢ بعد أوبة الجيش من حرب سورية فى عهد محمد على باشا . ثم أعيد إنشاؤه من جديد لتكوين الجيش الذى أرسله عباس باشا الأوّل مساعدة للدولة العلية فى حرب روسيا من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ م ، وحدث أن ألغى فى سنة ١٨٥٦ م وأنشئ مرة ثالثة ثم ألغى فى سنة ١٨٧٠ م .

وعندما نظم الخديو اسماعيل الجيش فى فرق منفردة ، فى سنة ١٨٧١ م ، وزاده فى سنة ١٨٧٤ م فرقة واحدة هى ٣ جى فرقة أنشأ هذا الآلاى من جديد ونمره : (٣ جى بيادة ٣ جى فرقة) ثم ألغى فى سنة ١٨٧٩ م عندما خفض فيها الجيش لسوء مالية مصر . ثم أنشئ مرة خامسة فى سنة ١٨٨٢ وقت الثورة العرابية حينما زيد الجيش لمواجهة الانجليز ونمر مرة أخرى : (٣ جى بيادة ٣ جى فرقة) . ثم ألغى عقب الثورة المذكورة فى سنة ١٨٨٢ م مع بقية وحدات الجيش .

الآلاى الثانى عشر المشاة (١٢ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٥ وألغى فى سنة ١٨٤٢ م بعد أوبة الجيش من الحرب السورية فى عهد محمد على باشا . ثم أنشئ من جديد لتكوين الجيش

المرسل من قبل عباس باشا الأول لمساعدة الدولة العليـة فى حرب الروس من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ وألغى فى سنة ١٨٥٦ م بعـد انتهاء هذه الحرب . ثم أنشئ مرة ثالثة فى سنة ١٨٦٧م وألغى فى سنة ١٨٧٠م وعند ما استحدث الخديو اسماعيل فى الجيش الفرق المنفردة فى سـنة ١٨٧١ م وزاده فى سنة ١٨٧٤ م فرقة واحدة هى ٣ جى فرقة أنشأ هـذا الآلاى من جديد ونمره : (٤ جى بيادة ٣ جى فرقة) . وألغى فى سـنة ١٨٧٩ م عند ما خفض الجيش لسوء مالية مصر فى ذلك الوقت . ثم أنشئ مرة خامسة فى سنة ١٨٨٢ م فى وقت الثورة العرابية حينما زيد الجيش لمقاتلة الانكليز ونمر مرة أخرى : (٤ جى بيـادة ٣ جى فرقة) وألغى بعـد الثورة الآنفة فى سنة ١٨٨٢ م مع بقية وحدات الجيش .

الآلاى الثالث عشر المشاة (١٣ جى آلاى بيادة)

أنشئ فى سنة ١٨٢٨ وألغى فى سنة ١٨٤٢ فى عهد محمد على باشا بعد عودة الجيش الذى كان فى جزيرة العرب . وكان هـذا الآلاى قسما منه . ثم أنشئ من جديد لتكوين الجيش المرسل من قبل عباس باشـا الأول مساعدة للدولة العلية فى حرب الروس من سنة ١٨٥٣ — ١٨٥٦ وألغى فى سنة ١٨٦٦ م بعد انتهاء هذه الحرب ثم أنشئ مرة ثالثة فى سـنة ١٨٦٧ وألغى فى سـنة ١٨٧٠ ثم أنشئ للمرة الرابعـة فى سنة ١٨٨٢ فى وقت الثورة العرابيـة عند ما زيد الجيش لمهاجمة الانجليز ونمر (١ جى بيادة ٤ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة فى سنة ١٨٨٢ مع باقى الجيش .

الآلاى الرابع عشر المشاة (١٤ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٠ م وألغى فى سنة ١٨٤١ م بعد أوبة الجيش من حروب سورية فى عهد محمـد على باشـا ثم أنشئ من جديد لتأليف الجيش المرسل من قبل عباس الأول لمعاونة الدولة العلية فى حرب الروس من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ م . وألغى فى سنة ١٨٥٦ م بعد انتهاء هذه الحرب . ثم أنشئ مرة ثالثة فى سنه ١٨٧٧ وألغى فى سنة ١٨٧٠ م . ثم أنشئ مرة رابعة فى سنة ١٨٨٢

فى وقت الثورة العرابية عنــدما زيد الجيش لمحــاربة الانكليز ونمر : (٢ جى بيادة ٤ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة فى سنة ١٨٨٢ م مع باقى الوحدات العسكرية .

الآلاى الخامس عشر المشاه (١٥ جى آلاى بيادة)

أنشئ فى ســنة ١٨٣١ م وألغى فى سنة ١٨٤١ م فى عهد محمد على باشا بعــد عودة الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هذا الآلاى قسما منه . ثم أنشئ من جديد لتكوين الجيش المرسل من قبــل عباس باشا الأوّل مساعدة للدولة العليــة فى حرب الروس من ١٨٥٣ — ١٨٥٥م وألغى فى ســنة ١٨٥٦ م بعد انتهاء هذه الحرب . ثم أنشئ مرة ثالثة فى سنة ١٨٦٧ وألغى فى سنة ١٨٧٠ م . ثم أنشئ مرة رابعــة فى سنة ١٨٨٢ فى وقت الثورة العرابية حينما زيد الجيش لمحــاربة الانكليز ونمر : (٣ جى بيادة ٤ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة فى سنة ١٨٨٢ م مع باقى الوحدات العسكرية .

الآلاى السادس عشر المشاة (١٦ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣١ وألغى فى سنة ١٨٤١م بعد أوبة الجيش من الحرب السورية فى عهد محمد على باشا وعودته من جزيرة كريت التى كان فيها هــذا الآلاى . ثم أنشئ من جديد لتكوين الجيش المرسل من قبــل عباس باشا الأوّل مساعدة للدولة العليــة فى حرب الروس من سنة ١٨٥٣ — ١٨٥٥ م وألغى فى سنة ١٨٥٦ بعد انتهاء هذه الحرب ثم أنشئ مرة ثالثة فى سنة ١٨٦٧ وألغى فى سنة ١٨٧٠ م ثم أنشئ مرة رابعة فى سنة ١٨٨٢ فى وقت الثورة العرابية عندما زيد الجيش لمحاربة الانكليز ونمر : (٤ جى لبيادة ٤ جى فرقة) . وألغى بعد هذه الثورة فى سنة ١٨٨٢ م مع باقى الجيش .

الآلاى السابع عشر المشاة (١٧ جى آلاى بيادة)

أنشئ هــذا الآلاى فى سنة ١٨٣١ وألغى فى سنة ١٨٤١ بعــد عودة الجيش من حرب ســورية فى عهد محمــد على باشا . ثم أنشىء من جديد لتأليف الجيش

المرسل من قبل عباس باشا الأول مساعدة للدولة العلية فى حرب الروس من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ م . وألغى فى سنة ١٨٥٦ عقب انتهاء هذه الحرب ثم أنشئ مرة ثالثة فى سنة ١٨٦٧ م وألغى فى سنة ١٨٧٠، ثم أنشئ مرة رابعة فى سنة ١٨٨٢ فى وقت الثورة العرابية عند ما زيد الجيش لمجابهة الانكليز ونمر (١ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة فى سنة ١٨٨٢ م مع بقية الجيش .

الآلاى الثامن عشر المشاة (١٨ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣١ م وأرسل مع الجيش الى حرب سورية ولم يعد منها ولعله أسر أو أبيد فى معاركها . ثم أنشئ من جديد فى سنة ١٨٥٤ لتكوين الجيش المرسل من قبل سعيد باشا مساعدة للدولة العلية فى حرب الروس من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ م وألغى فى سنة ١٨٥٦ م عقب انتهاء هذه الحرب . ثم أنشئ للمرة الثالثة فى سنة ١٨٦٧ وألغى فى سنة ١٨٦٨ ، ثم أنشئ للمرة الرابعة فى سنة ١٨٨٢ فى وقت الثورة العرابية عندما زيد الجيش لمجابهة الانكليز ونمر : (٢ جى بيادة ٥ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة فى سنة ١٨٨٢ م مع باقى الجيش .

الآلاى التاسع عشر المشاة (١٩ جى آلاى بيادة)

أنشئ فى سنة ١٨٣١ وألغى فى سنة ١٨٤١ م فى عهد محمد على باشا بعد أوبة الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هذا الآلاى قسما منه . ثم أنشئ من جديد فى سنة ١٨٥٤ لتكوين الجيش المرسل من قبل سعيد باشا مساعدة للدولة العلية فى حرب الروس من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ م وألغى فى سنة ١٨٥٦ م بعد انتهاء هذه الحرب . ثم أنشئ مرة ثالثة فى سنة ١٨٨٢ فى وقت الثورة العرابية عندما زيد الجيش لمحاربة الانكليز ونمر : (٣ جى بيادة ٥ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة فى سنة ١٨٨٢ م مع باقى الجيش .

الآلاى العشرون المشاة (٢٠ جى آلاى بيادة)

أنشئ فى سنة ١٨٣٢ وألغى فى سنة ١٨٤١ فى عهد محمـد على باشا بعد عودة الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هذا الآلاى قسما منه . ثم أنشئ من جديد فى سنة ١٨٥٤م لتكوين الجيش المصرى المرسل من قبل سعيد باشا مساعدة للدولة العلية فى حرب الروس من سنة ١٨٥٣ — ١٨٥٥ وألغى فى سنة ١٨٥٦م بعد تصرم هـذه الحرب . ثم أنشئ للمرة الثالثـة فى سنة ١٨٨٢ م فى وقت الثـورة العرابية عندما زيد الجيش لمحاربة الانكليز ونمر (٤ جى بيادة ٥ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة فى سنة ١٨٨٢ م مع باقى الجيش .

الآلاى الحادى والعشرون المشاة (٢١ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٢ م وألغى فى سنة ١٨٤١ فى عهد محمـد على باشا بعد عودة الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هذا الآلاى قسما منه .

الآلاى الثانى والعشرون المشاة (٢٢ جى آلاى بيادة)

أنشئ فى سنة ١٨٣٤ م وألغى فى سنة ١٨٤١ م بعد عودة الجيش من حرب سورية فى عهد محمد على باشا ولم يعد إنشاؤه بعد ذلك .

الآلاى الثالث والعشرون المشاة (١٣جى آلاى بيادة)

أنشئ فى سـنة ١٨٣٤ م وألغى فى سنة ١٨٤١ م فى عهد محمد على باشا بعـد أوبة الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هذا الآلاى قسما منه ولم يعد إنشاؤه بعد ذلك .

الآلاى الرابع والعشرون المشاة (٢٤ جى آلاى بيادة)

أنشئ هـذا الآلاى فى سـنه ١٨٣٥ م وألغى فى سـنة ١٨٤١ م بعد ارتداد الجيش من حرب سورية فى عهد محمد على باشا ولم يعد إنشاؤه بعد ذلك .

الالآى الخامس والعشرون المشاة (٢٥ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٥ وأرسل مع الجيش فى حرب سورية ولم يعد منها ولعله أسر أو أبيد فى معاركها الحربية ولم يعد إنشاؤه .

الآلاى السادس والعشرون المشاة (٢٦ جى آلاى بيادة)

أنشئ هـذا الآلاى فى سنة ١٨٣٧ وأرسل مع الجيش المحارب فى سورية ولم يعد منها ولعله أسر أو أبيد فى معاركها الحربية ولم يعد إنشاؤه .

الآلاى السابع والعشرون المشاة (٢٧ آلاى جى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٧ وألغى فى سنة ١٨٤١ م فى عهد محمد على باشا بعد أوبة الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هـذا الآلاى قسما منه ولم يعد إنشاؤه .

الآلاى الثامن والعشرون المشاة (٢٨ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٧ م وألغى فى سنة ١٨٤١م فى عهد محمد على باشا بعد عودة الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هـذا الآلاى قسما منه ولم يعد إنشاؤه .

الآلاى التاسع والعشرون المشاة (٢٩ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٧ م وأرسل مع الجيش المحارب فى سورية ولم يعد منها ولعله أسر أو أبيد فى المحاربات ولم يعد إنشاؤه .

الآلاى الثلاثون المشاة (٣٠ جى الآى بيادة)

أنشئ هـذا الآلاى فى سـنة ١٨٣٧ وألغى فى سنة ١٨٤١ م بعد أوبة الجيش من حرب سورية فى عهد محمد على باشا ولم يعد إنشاؤه .

الآلاى الحادى والثلاثون المشاة (٣١ جى آلاى بيادة)

أنشئ هـذا الآلاى فى سنة ١٨٣٧ وألغى فى سنة ١٨٤١ م بعد عودة الجيش من حرب سورية فى عهد محمد على باشا ولم يعد إنشاؤه .

الآلاى الثانى والثلاثون المشاة (٣٢ جى آلاى بيادة)

أنشئ هـذا الآلاى فى سـنة ١٨٣٨ ولم يشترك فى حرب من الحروب وألغى فى سنة ١٨٤١ م عقب أوبة الجيش من حرب سورية فى عهد محمـد على باشا ولم يعد إنشاؤه .

الآلاى الثالث والثلاثون المشاة (٣٣ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٨ وألغى فى سنة ١٨٤١ م فى عهد محمـد على باشا بعـد رجوع الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هذا الآلاى قسما منه ولم يجدّد إنشاؤه .

الآلاى الرابع والثلاثون المشاة (٣٤ جى آلاى بيادة)

أنشئ هـذا الآلاى فى سنة ١٨٣٨ م وأرسل مع الجيش المحارب فى سـورية ولم يعد منها ولعله أسر أو أبيد فى معاركها الحربية ولم يجدد إنشاؤه .

الآلاى الخامس والثلاثون المشاة (٣٥ جى آلاى بيادة)

أنشئ هـذا الآلاى فى سـنة ١٨٣٨ م وأرسل مع الجيش فى حرب سـورية ولم يعـد من هذه الحرب من هـذا الآلاى سوى تسعة جنود فحسب ، لأنه كان يكوّن حامية عكا وفى خلال دفاعه من هـذه المدينه قبالة أسطول الحلفاء انفجرت (جبخانته) وأفنت أكثر جنوده وألغى فى سنة ١٨٤١ ولم يجدّد إنشاؤه .

سـلاح الخيـالة

الآلاى الأوّل (١ جى آلاى سوارى)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سنه ١٨٧٢ م .

الآلاى الثانى (٢ جى آلاى سوارى)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سنة ١٨٨٢ م .

الآلاى الثالث (٣ جى آلاى سوارى)

أنشئ هـذا الآلاى فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سـنة ١٨٥٥ . ثم أنشئ للمرة الثانية فى سنة ١٨٦٥ وألغى فى سنة ١٨٧٩ عندما خفض الجيش لسوء مالية مصر فى ذيالك العهـد . وفى الثورة العرابية، عندما زيد الجيش فى سـنة ١٨٨٢ لمحاربة الانكليز، أنشئ مرة ثالثة وألغى بعد هذه الثورة فى تلك السنة مع باقى الجيش .

الآلاى الرابع (٤ جى آلاى سوارى)

أنشئ هـذا الآلاى فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سـنة ١٨٥٥ . ثم أنشئ ثانيـة فى سنة ١٨٦٥ وألغى فى سنة ١٨٧٩ حينما أصيب الجيش بالتخفيض لسوء ماليـة مصر آنذاك . ثم فى الثورة العرابية عندما زيد الجيش لمجابهة الانكليز فى سنة ١٨٨٢ أنشئ لثالث مرة وألغى عقب هـذه الثـورة فى تلك السـنة مع باقى الواحدات العسـكرية .

الآلاى الخامس (٥ جى آلاى سوارى)

أنشئ هـذا الآلاى فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سنة ١٨٤٢ بعـد عودة الجيش من حرب الشام ثم أنشئ مرة ثانية فى سنة ١٨٤٨ وألغى فى سنة ١٨٥٥ . وحدث أن أنشئ لثالث مرة فى سـنة ١٨٧٤ وألغى فى سـنة ١٨٧٩ عندما خفض الجيش لسوء المـالية فى ذيالك العهد .

الآلاى السادس (٦ جى آلاى سوارى)

أنشئ هـذا الآلاى فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سنة ١٨٤٢ بعـد عودة الجيش من حرب الشام . وأنشئ مرة تاليـة فى سنة ١٨٤٨ وألغى فى سـنة ١٨٥٥ . ثم أعيد إنشاؤه مرة ثالثة فى سنة ١٨٧٤م وألغى فى سنة ١٨٧٩ عندما خفض الجيش لسوء مالية مصر فى ذلك الوقت .

الآلاى السابع (٧ جى آلاى سوارى)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سنة ١٨٤٢ بعد عودة الجيش من حروب سورية ثم أنشئ مرة ثانية فى سنة ١٨٤٩ وألغى فى سنة ١٨٥٥ .

الآلاى الثامن (٨ جى آلاى سوارى)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣١ وألغى فى سنة ١٨٤٢ بعد أوبة الجيش من معارك سورية . ثم استعيد مرة ثانية فى سنة ١٨٤٩ وألغى فى سنة ١٨٥٥ .

الآلاى التاسع (٩ جى آلاى سوارى)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣١ وألغى فى سنة ١٨٤٢ م بعد رجوع الجيش من وقائع سورية ثم أنشئ مرة ثانيـة فى حرب القرم فى سـنة ١٨٥٣ وألغى بعد انتهائها فى سنة ١٨٥٥ .

الآلاى العاشر (١٠ جى آلاى سوارى)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣١ وألغى فى سـنة ١٨٤٢ م بعد عودة الجيش من معارك سورية ثم أعيد إنشاؤه مرة ثانية فى حرب القرم فى سنة ١٨٥٤ وألغى عقب انتهائها فى سنة ١٨٥٥ .

الآلاى الحادى عشر (١١ جى آلاى سوارى)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٢م وألغى فى سنة ١٨٤٢ م بعد أوبة القوات المصرية من حرب سورية .

الآلاى الثانى عشر (١٢ جى آلاى سوارى)

أنشئ هذا الآى فى سنة ١٨٣٢ م وألغى فى سـنة ١٨٤٢ م بعد عودة الجيش من حرب سورية .

الآلاى الثالث عشر (١٣ جى آلاى سوارى)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٢ م وألغى فى سنة ١٨٤٢ م بعد أوبة الجيش من الحروب السورية .

المدفعيـــــة

آلاى المدفعية الأول (١ جى آلاى طوبجية)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٥ وألغى فى سنة ١٨٨٢ بعد الثورة العرابية مع باقى الجيش .

آلاى المدفعية الثانى (٢ جى آلاى طوبجية)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٠ وألغى فى سنة ١٨٨٠ بعدما قبض العرابيون على أزمة الحكم وزادوا الجيش فى أوائل عام ١٨٨٢ وأعادوا هذا الآلاى . ثم ألغى بعد الثورة العرابية فى السنة المذكورة مع باقى الجيش .

آلاى المدفعية الثالث (٣ جى آلاى طوبجية)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٥ وألغى فى سنة ١٨٤١ بعد أوبة الجيش من معارك سورية فى عهد محمد على باشا . ثم أنشئ مرة ثانية فى سـنة ١٨٧٤ وألغى فى سنة ١٨٧٩ . ثم أعيد إنشاؤه مرة ثالثة فى سنة ١٨٨٢ فى وقت الثورة العرابية عندما زيد الجيش لمحاربة الانكليز وألغى بعد هذه الثورة فى السنة المذكورة مع باقى وحدات الجيش .

آلاى المدفعية الرابع (٤ جى آلاى طوبجية)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٨٢ فى وقت الثورة العرابية عندما زيد الجيش لمحاربة الانكليز ثم ألغى بعد هذه الثورة فى السنة الآتية مع بقية وحدات الجيش .

١ جى آلاى طوبجية سوارى

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٠ وألغى فى سنة ١٨٤١ بعد عودة الجيش من حرب سورية فى عهد محمـد على باشا . ثم أنشئ للمرة الثانية فى سـنة ١٨٥٣ وألغى سنة ١٨٥٦ . ولم يجدد إنشاؤه .

٢ جى آلاى طوبجية سوارى

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٥ م وألغى فى سنة ١٨٤١ بعـد عودة الجيش من حروب سورية فى عهد محمد على باشا ولم يجدد إنشاؤه بعد .

رسم معسكر جهاد آباد
وناحية الخانكة

معسكر

موقع

٩ جى بياده

٨ جى بياده

٧ جى بياده

متراس

مدرسة

طوبجيه

أركان

جهاد آباد

جبه خانه

الخانكه

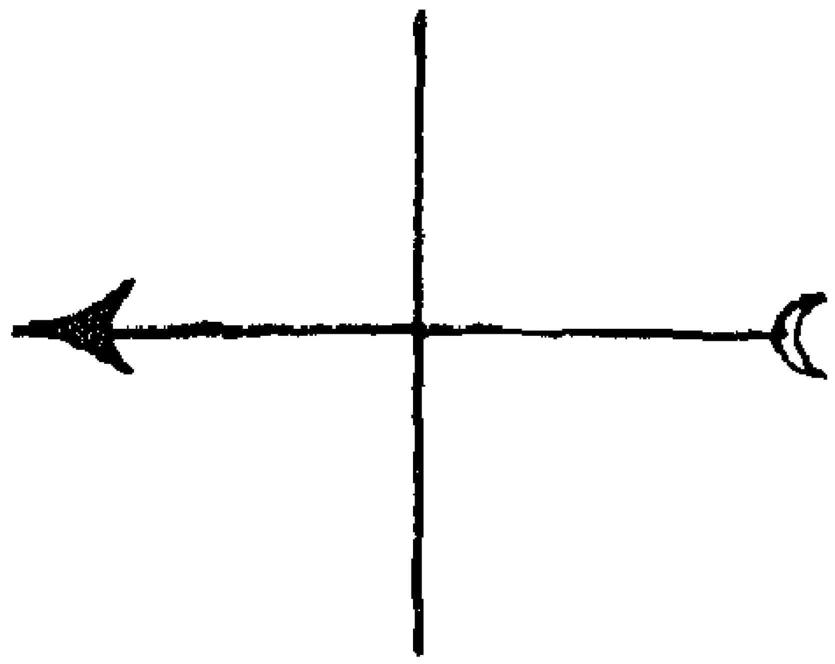
جامع

طريق إلى مصر

مزارع

رسم معسكر جهاد آباد وناحية الخانكه عمل يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٢٦م بمعرفة حسين

ميلانقسه



صحراء

١ خطوط الجنود

٢ خيم الضباط

٣ عائلات الجنود

البيـــــاده

الاى بياده

الاى بياده ١٠

١٢ الاى بياده

١ ٢ ٣

مخـــفر بدو

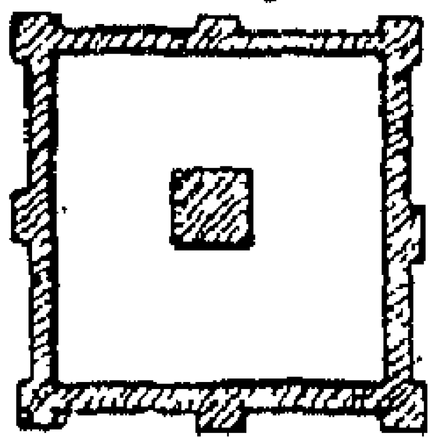
ميـاه فيضـان النيــل

مطعم

طريق أبي زعبل

مزارع

مستشفى أبي زعبل



ندى وسليمان افنـدى مميش اليوز باشيين بأركان حرب الجيش المصرى

مدفعيـــة الســـواحل

الآلای الأول سواحل (١ آلای سواحل)

أنشئ هذا الآلای فی سنة ١٨٤٦م وألغی فی سنة ١٨٨٣م بعد الثورة العرابية مع باقی الجيش .

الآلای الثـانی سواحل (٢ جی آلای سواحل)

أنشئ هذا الآلای فی سنة ١٨٥١ م وألغی فی سنة ١٨٨٢ بعد الثورة العرابية مع باقی الجيش .

الآلای الثالث سواحل (٣ آلای سواحل)

أنشئ هذا الآلای فی سنة ١٨٧٤م وألغی فی سنة ١٨٨٣م بعد الثورة العرابية مع باقی الجيش .

المهنـدسون العسكريون

البلطجية والكبروجية

ذكر القومندان « بلانا » أن عدد المهندسين العسكريين فی الجيش بلغ فی عام ١٨٣٨ القوات الآتية :

عـدد

١٢ بلوك بلطجية عددها ١٢٠٠ جنـدی بمعدّل بلوك مهندسين لكل آلای مشاة يلحق به وقت الحرب .

١ بلوك كبروجية عدّته مائة جندی .

وقد استهل فی ذياك الوقت فی تنظيم بلوك للألغام .

وأورد البارون بو الكونت إحصائية للجيش المصری عام ١٨٣٣ جاء فيهـا أن عدد المهندسين العسكريين كان ٢٩٤٢

وفی إحصائية الجيش لعام ١٨٣٩ التی تأتت فی كتاب كلوت بك (جـ ٢ ص ٣٥١) ورد ذكر المهندسين العسكريين على الوجه التالی :

الآلاى الأول من البلطجية فى عكا	٨١٢
آلاى المهندسين فى أدليب	٧٥٨
آلاى البلطجية فى الإسكندرية	٨٠٨
وحدات اللغامين فى القاهرة	٩٤
المجمـــوع	٢٤٧٢

وحدات الحرس المشاة

آلاى الحرس الأول (١ جى آلاى غارديا)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٠ وألغى فى سنة ١٨٤٩ م ، ثم أنشئ من جديد فى سـنة ١٨٥٣ وألغى فى سنة ١٨٥٥ ، وأعيد إنشاؤه للمرة الثالثة فى سـنة ١٨٦٦ وألغى فى سنة ١٨٨٠ .

آلاى الحرس الثانى (٢ جى آلاى غارديا)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٢ وألغى فى سنة ١٨٥٩ ، ثم أنشئ من جديد فى سـنة ١٨٥٣ وألغى فى سنة ١٨٥٥ ، وأعيد إنشاؤه للمرة الثالثة فى سـنة ١٨٦٩ وألغى فى سنة ١٨٨٠ .

آلاى الحرس الثالث (٣ جى آلاى غارديا)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٧ وألغى فى سنة ١٨٤١ ، ثم أنشئ من جديد فى سنة ١٨٥٣ وألغى فى سـنة ١٨٥٥ ، وأعيد انشاؤه مرة ثالثـة فى سنة ١٨٦٩ وألغى فى سنة ١٨٨٠ .

آلاى الحرس الرابع (٤ جى آلاى غارديا)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٦٩ وألغى فى سنة ١٨٨٠ .

وحدات الحرس الخياله

آلاى حرس الخيالة الأول (١ جى آلاى سوارى غارديا)

أنشئ هـذا الآلاى فى سنة ١٨٣٤ وألغى فى سنة ١٨٤٩ م، ثم أعيد إنشاؤه فى سنة ١٨٥٢ وألغى فى سـنة ١٨٥٤، ثم أنشئ مرة ثالثـة فى سنة ١٨٦٦ وألغى فى سنة ١٨٧٩ م .

آلاى حرس الخيالة الثانى (٢ جى آلاى سوارى غارديا)

أنشئ هـذا الآلاى فى سنة ١٨٣٤ وألغى فى سنة ١٨٤٩ م ، ثم أعيد إنشاؤه فى سنة ١٨٥٣ وألغى فى سنة ١٨٥٤ م ، ثم أنشئ مرة ثالثة فى سنة ١٨٦٧ وألغى فى سنة ١٨٧٩ م .

وحدات الحرس المدفعية

آلاى حرس المدفعية الأول (١ جى آلاى طوبجية غارديا)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٢ وألغى فى سنة ١٨٤١ بعد عودة الجيش من حرب سورية فى عهد محمـد على باشا ، ثم أنشئ مرة ثانية فى سـنة ١٨٧٤ وألغى فى سنة ١٨٨٠ .

آلاى حرس المدفعية الثانى (٢ جى آلاى طوبجية غارديا)

أنشئ هـذا الآلاى فى سنة ١٨٣٤ وألغى فى سنة ١٨٤١ بعـد عودة الجيش من المعارك السورية فى عهد محمد على باشا .

من الوثائق التاريخية

والحديث عن إنشاء الوحدات العسكرية السابقة قد لاتستوعبه المجـلدات ، وتقصر ولا ريب دونه الصفحات ، الشيء الذى حدا بنـا — فى هذا السياق الى أن نأتى — على سبيل المثـال — فيما يلى ببعض الوثائق الخاصة بالالايات السابع والثامن والتاسع المشاة .

ففى الثانى من ذى القعدة عام ١٢٤٠ هـ (١٨ يونيو ١٨٢٥) كتب محمد على الى ابنه الخطاب الآتى :

من الجناب العالى إلى الباشا السرعسكر (١) .

"نحمد الله تعالى حمدا مضاعفا على أن جعلنا مظهرا لآثار فيض نعمه بما عزمنا عليه من تشكيل الآلايات ١٠ جى و ١١ جى و ١٢ جى بيادة فقد بدأنا مستعينين بالله تعالى بإعدادهم وتهيئة ما يلزم لهم من الضباط حتى القائمقامات من الآلايات ٧ جى و ٨ جى و ٩ جى بيادة وأورطة الأوجاق وأخذنا بتنظيم الجنود اللازمة لها وبفضل الله تعالى فى أقرب وقت سيكون ذلك رهين محاسن الكمال بأكماله ولم ينقصها (أى تلك الآلايات) إلا الرؤساء وقد رأينا من المناسب تعيين أحمد أفندى المنكلى وسليم أغا قائمقام الآلاى ٢ جى بيادة المأمور للحجاز وصالح أغا قائمقام الآلاى ٤ جى بيادة المأمور للمورة وبما أن أحمد أفندى هنا قد أعلمناه بذلك وأرسلنا الخبر للحجاز وأحلنا إرسال صالح أفندى لعهدة سعادتكم وأن أحمد أفندى وإن كان لازما ثمة فقد اضطررنا لحسن مأموريته إلى ترقيته لرتبة الميرالاى حسب الإيجاب .

وقد كتبنا لكم ذلك ليكون معلوما لكم إن شاء الله تعالى " .

تشكيل الآلايات ١٠ و ١١ و ١٢

وإذا خلّفنا ذلك نجد أنه فى السابع عشر من شوّال عام ١٢٤٠ هـ (١٨٢٤ م) قد صدر أمر الوالى إلى ابراهيم باشا بأنه تيسر تشكيل الآلايات ١٠ و ١١ و ١٢ وتعيين القوّاد والضباط اللازمين لها . وبتعيين أحمد المنكلى المبعوث المعين بين الطرفين سابقا أميرالايا لأحد تلك الآلايات وأنه لاتساع نطاق النظام العسكرى قد جدّد ترتيب علاوة على النسق القديم وتعيين لواء يكون تحت قيادته الآلايين

(١) وثيقة رقم ٤٣ — دفتر ٢٠ معية تركى ورقة ١١ بتاريخ ٢ ذى القعدة ١٢٤٥ هـ

إنشاء أورطة الرجال العسكرية

" من الجناب العالى إلى الصاغقول والصول قول أغاسية واليوزباشية والملازمين الأولين والثانين وسائر الضباط بأورطة العساكر الجهادية :

"كنت آمل أن تلاميذ السنة الدراسية الثالثة قد اتقنوا بفضل الجهود المبذولة التعاليم الخاصة بالبيادة والطوبجية وتعلموا الحساب ومجموعة المهندسين وأصول الهندسة والمثلثات المسطحة مما أقدرهم على تخطيط البلدان واستطلاع أحوال الأراضى ورسم الخرائط أو الاستحكامات الخفيفة والقوية وأنهم برعوا فى هذه المواد نظريا وعمليا حتى تكونت لديهم القدرة على إجراء كل علم منها وسهل عليهم المثلثات الفلكية وإنشاء الخرائط بالهندسة كما أنهم قد ترجموا من اللغة الفرنسية بعض أشياء مما يفيد مصلحتنا ويوافق أصولنا (وكنت أقول أنهم لم يقفوا عند هذا الحد) بل شرعوا فى دراسة فن الحرب وكذلك تلامذة السنة الدراسية الثانية هم أيضا يستفرغون جهدهم ليلحقوا بتلامذة السنة الثالثة ويبلغوا مستواهم كما هى الحالة فى تلامذة السنة الأولى فانهم لا يضنون بجهد فى بلوغ مرتبة تلاميذ السنة الثانية (أجل كنت أمنى النفس بهذا) إلا أنه قد ظهر من نتيجة الامتحان التى عرضت علىّ أخيرا أن الصول قول أغاسية : حسين أفندى وعلى أفندى من القول أغاسية، وسليمان افندى ممش زاده وأحمد أفندى الخربوطلى من اليوزباشية والملازم الثانى عبد الله أفندى من تلامذة السنة الدراسية الثانية هم وحدهم من بين سائر التلاميذ قد اجتهدوا طبق أمرى ووفق مرضاتى وبذلوا المساعى لتحصيل العلوم وكسب المعارف وقد ظهر أيضا من النتيجة الآنفة الذكر أن تلامذة السنة الدراسية الأولى قد بلغ بهم الكسل مبلغا أقعدهم عن الحضور وتلقى الدروس بالمدرسة فضلا عن الجدّ والسعى فلما علمت هذا قد أمرت بترقية الصول قول أغاسيين المذكورين إلى رتبة الصاغقول أغاسى وترقية اليوزباشيين إلى الصولقول، والملازم الثانى إلى الملازم الأوّل، ثم إنى بقدر ما سررت من مساعى هؤلاء قد

شعرت بخيبة الأمل فى حزن مضاعف وتأثر كبير من فتور التلاميذ القدماء ولا سيما من توانى القول أغاسية وكسل التلاميذ المستجدّين وقد انبعث هنا عثمان بك رئيس رجال الجهادية لأنه لم يعر هـذه المسألة ما يستحقه من العناية والاهتمام ولم يأخذ التلاميذ الكسالى بالشدّة ليحملهم على الجدّ والسعى وتساهل فى معاقبة من لم يرجع منهم إلى الرشد والإنصاف بما يستأهله لكى يكونوا عبرة لغيرهم ولما كان اليوز باشى خورشيد أفنـدى أخلد إلى الكسل ولم يحصّـل شيئا يذكر بالرغم من هـذه المدّة الطويلة ولم يقدر قدر الرتبة التى يحوزها فقد خفضت رتبته درجة، ثم إ‌ن كما أعطف على المجتهدين لكسب العلوم والمعارف وأبذل لهم مكافأة على مساعيهم لا أتأخر عن إنزال العقاب على المتكاسلين وعلى الذين يقصرون جهـدهم على تحصـيل نظريات أى فن من الفنون ويحول كسلهم دون إجادة تطبيقه العملى ، هذا وقـد تقرّر أن أصحاب الرتب الذين لم ينالوا رتبهـم عن جدارة ولا يسعون أيضا ليكونوا جديرين بها لا يتركون منعمون بهذه الرتبـة بل تنزل رتبهم إلى درجة تليق بأحوالهم ولذلك ينبغى أن تنظم جداول فى أواخر كل شهر يبين فيها مبلغ كل منكم من العلم والأخلاق ثم تعرض هذه الجداول علينا لنعلم أحوالكم ونعامل كل واحد منكم بمـا يليق بحاله كما يجب عقد امتحان لكم جميعا فى كل ثلاثة أشهر مرة فى حدود الأصول الجهادية وتعرض نتيجته علينا للاطلاع .

” وقـد أصدرنا أمرنا هـذا من الإسكندرية حيث نقيم فيها الآن وأرسلناه إليكم فمتى وصل بمنه تعالى وعلمتموه فالواجب عليكم أن تبـذلوا ما فى وسعكم من الجهـود على أداء مهمتكم وفق إرادتى وطبـق مرضاتى على وجه يتفق والقواعد الإنسانية لكى تنالوا عطفى فتسعدوا فى ظلى وتمتازوا بين أقرانكم وتكونوا نافعين لى ولأنفسكم ولدينا وشعبنا جميعاً [١] .

---

(١) وثيقة رقم ٢١٣ — دفتر ٢٦ معية تركى ص ٥٩ — بتاريخ ٢١ ربيع سنة ٢٤٤ هـ (١١ نوفمبر سنة ١٨٢٧ م) .

إحصائيات الجيش

ونورد فيما يلى إحصائيات ، تنبئ عن مدى قوّات الجيش المصرى ، فى أبرز سنواته . استقيت من عشرات المراجع والموارد، التى تضمنت الحديث عن أعداده ورجاله ووحداته .

ومثل هذه الإحصائيات التى تخيرناها، تغنى — ولا مراء — عن استظهار أعداده، خلال سنينه الطويلة، التى كان يتجاذبها المدّ والجزر، وتتدافعها الاستزادة والبتر ...

الجيش المصرى فى عام ١٨٢٨ م

الوحدات	القـوّاد	مراكز الوحدات	القوة عند التكوين	القـوة الحالية
الآلاى الأول المشاه	رستم بك	٣ أورط فى سنار وأورطتان فى كردفان	٤٠٠٠	٢٥٠٠
« الثانى «	محمد بك	القاهرة ومكثت فى حرب الحجاز ثلاث سنوات قبل رجوعه الى القاهرة	٤٠٠٠	٣٢٠٠
« الثالث «	—	—	—	—
« الرابع «	—	—	—	—
« الخامس «	—	مورة تحت قيادة إبراهيم باشا وخسر هذا الجيش نحو نصفه فى هـذه الحرب ماعدا الآلاى العاشر	٢٨٠٠٠	١٦٠٠٠
« السادس «	سليمان بك			
« السابع «	حسن بك			
« الثامن «	حسين بك	—	—	—
« العاشر «	أحمد بك	—	—	—
« التاسع «	محمود بك	الحجاز تحت قيادة أحمد باشا يكن	٨٠٠٠	٧٠٠٠
« الثانى عشر «	عابدين بك			

(تابع) الجيش المصرى فى عام ١٨٢٨ م

الوحدات	القـواد	مراكز الوحدات	القوة عند التكوين	القـوة الحالية
الحـادى عشر	سليم بك	جهاد أباد	٤٠٠٠	٤٠٠٠
أورطتان غير مرقومتين	—	اسكندرية	١٦٠٠	١٤٠٠
ثلاث أورط مدفعية	أدهم بك	جهاد أباد ولا تزال فى حالة التكوين	٢٤٠٠	١٨٠٠
أربعة وعشرون بلوكا للهمات	—	جهاد أباد ولا تزال فى حالة التكوين	٧٤٤	٣٠٠
بلوكان للجندرمة	مصطفى بك	جهاد أباد	٢٠٠	١٥٠
مدفعيون أتراك	—	موزعون فى حصون مصر	—	٨٠٠
اثنا عشر بلوكا بلطجية	—	بلوك مع كل آلاى مشاه	١٢٠٠	٧٠٠
بلوك للمواد الملتهبة	—	اسكندرية	١٠	٨٠
بلوك للكبارى والجسور	—	اسكندرية	١٠٠	٨٠
أساس الضباط	—	جهاد أباد	٨٠٠	٥٠٠
مدارس حربية	—	—	—	١٠٠٠
مشاه ألبانيون	—	٢٠٠٠ بمورة والباقى بمصر وجزيرة كريد	—	٦٠٠٠
فرسان أتراك	—	موزعون فى مصر ومورة وشبه جزيرة العرب	—	٦٠٠٠
باشبوزق غير نظاميين	—	—	—	—
			٥٥١٤٤	٥١٥١٠

الجيش المصرى فى عام ١٨٣٣

أسماء البلاد والأماكن التى بها قوات الجيش	الفرسان النظاميون	المشاة النظاميون	المدفعيون	فرق الهندسة	فرسان باشبوزق	عرب	مغاربة	فرنسيون	مدارس حربية	أجناس مختلفة	أركان حرب البحرية بجنودها	[illegible]
مصر .	٢٧٦٠	١٧٤٣٧	٤١٠٢	٢٩٨٩	٧٠٠	—	—	١٥	—	—	—	—
مكة والحجاز .	—	٦٨٧٠	—	١٠١	٧٠٠	٦٦٨	١٧٧	—	—	—	—	—
السودان .	—	٥١٥٧	—	—	٤٨٤	٦٠٤	—	—	—	—	—	—
المعسكر .	٥٢٩٢	٣٥٠٤٣	٢٢٥٥	٨٥٢	١٥٥١	٤٠٩٨	٣٤	—	—	—	—	—
كندية .	—	٥٠٠٤	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
الأساطيل بالإسكندرية .	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	١٦٧٨٥	—
الترسانة بالإسكندرية .	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	٨٣٥٨
مدرسة أركان الحرب بقصر العينى .	—	—	—	—	—	—	—	—	١٥٢٦	—	—	—
المدرسة الحربية البحرية بالإسكندرية	—	—	—	—	—	—	—	—	١٢٥٠	—	—	—
حاسبون فى مصالح الجيش .	—	—	—	—	—	—	—	—	—	٣٠٠	—	—
كتبة ومترجمون بالترسانة .	—	—	—	—	—	—	—	—	—	٤١٢	—	—
الجملة	٧٩٦٢	٧٠٠١١	٦٣٥٧	٣٩٤٢	٣٤٣٥	٥٣٧٠	٢١٢	١٥	٢٧٧٦	٧١٢	١٦٧٨٥	٨٣٥٨

الجيش المصرى فى عام ١٨٣٧ م

المشـــاة

رقم الآلاى	المركز	القطر	قوة الآلاى ضباط وصف ضباط وعساكر
١ حرس	عينتاب	سورية	٣٠٤٨
٢ »	مرعش	»	٢٦٤٥
٣ »	حلب	»	٢٤٣٥
١	سنار	السودان	٤٥٤٧
٢	عينتاب	سورية	٢٢٥١
٣	اليمن	جزيرة العرب	١٥٢٦
٤	مرعش	سورية	٢٥٩٣
٥	أذنة	»	٢٦٢٩
٦	كلس	»	٢٣٦٢
٧	الحجاز	جزيرة العرب	٢١٩٢
٨	سنار	السودان	٣٣٩٦
٩	حلب	سورية	٢٣٠٤
١٠	»	»	٢٠٥٤
١١	أورفة	»	٢٣٣٨
١٢	عينتاب	»	٢٣٢٦
١٣	الحجاز	جزيرة العرب	١٢٢٥
١٤	حلب	سورية	١٩٨٨
١٥	الدرعية	جزيرة العرب	٢٥٥٥
١٦	كندية	جزيرة كريد	٣١٤٩
١٧	أورفة	سورية	٢٣٦٩

(تابع) المشــاة

رقم الآلاى	المركز	القطــر	قوة الآلاى ضباط وصف ضباط وعساكر
١٨	عكا	ســورية	٢٠٤٩
١٩	الحجــاز	جزيرة العــرب	٢٣٤٩
٢٠	اليمن	»	٢٦٧٧
٢١	الحجــاز	»	٢٣٦٣
٢٢	أورفــة	ســورية	٢٢١٢
٢٣	ينبــع	جزيرة العــرب	٢٣٤٢
٢٤	أنطاكية	ســورية	٣١٣١
٢٥	القــدس	»	١٧٥٥
٢٦	القاهرة	مصــر	٣٣١٨
٢٧	الجــديدة	»	٢١٢٩
٢٨	»	»	٢٤٤٦
٢٩	أذنــة	ســورية	٣١٧٢
٣٠	حمــاة	»	٢٩٢٥
٣١	حلب	»	٢٤٠١
٣٢	القاهرة	مصــر	٣٣١٨
٣٣	اسكندرية	»	٢٦٠٤
٣٤	كلس	ســورية	٢٥٦٤
	القاهرة	مصــر	٣٣١٢
		الجمــلة	٩٦٩٩٩

الجيش المصرى فى عام ١٨٣٧ م

الفرسان

رقم الآلاى	المركز	القطر	قوة الآلاى ضباط وصف ضباط وعساكر
١ حرس	أنطاكية	سورية	٧٩٦
٢ »	بيسان	»	٨٤٤
١	أورفة	»	٨٢٥
٢	زنبة	»	٨٣٠
٣	القاهرة	مصر	٨٣٢
٤	أدنة	سورية	٦٧٨
٥	القاهرة	مصر	٨٣٢
٦	دمشق	سورية	٧٧٠
٧	طرسوس	»	٧٤٢
٨	دمشق	»	٧١٢
٩	اسكندرية	مصر	٨١٦
١٠	عكا	سورية	٧٦٨
١١	كلس	»	٧٥٦
١٢	طرسوس	»	٦٦٢
	أورفة	»	٨٠٦
		الجملة	١١٦٨٤

الجيش المصرى فى عام ١٨٣٧ م

رقم الآلاى	المركز	القطر	قوة الآلاى ضباط وصف ضباط وعساكر
المدفعيـــة			
١ حرس	حمـاة	سورية	١٣٧٢
٢ حرس	اسكندرية	مصر	٢٣٤٩
٣ حرس	حلب	سورية	١٩٤٩
١	حمص	»	٩٨٢
٢	دمشق	»	١٠٠٧
٣	القاهرة	مصر	٣٢٢٥
أورطة	الحجاز	جزيرة العرب	٣٧٩
٤ بلوكات	عكا	سورية	٣٣٧
		الجمـلة	١١٦٠٠

رقم الآلاى	المركز	القطر	قوة الآلاى ضباط وصف ضباط وعساكر
المهندسون			
١	عكا	سورية	٨١٢
أورطة	أدب	»	٧٥٨
»	اسكندرية	مصر	٨٠٨
»	القاهرة	»	٥٦٤
		الجمـلة	٢٩٤٢

مجموع قوة الجيش النظامى المصرى عام ١٨٣٧

عـدد	
٩٦٩٩٩	المشاه
١١٦٨٤	الفرسان
١١٦٠٠	المدفعيـة
٢٩٤٢	المهندسون
١٢٣٢٢٥	

وهذا بيان توزيع الجيش المصرى على الأقطار

عـدد	
٢٦٥٦٨	مصـر
٦٧٩٥٧	سـورية
١٧٦٠٨	جزيرة العرب
٧٩٤٣	السودان
٣١٣٩	جزيرة كريد
١٢٣٢٢٥	

الجيش المصرى فى عام ١٨٣٩ م

الجيوش النظامية

وحداتها	نوعها	مراكزها	عددها
الآلاى الأول	من مدفعية الحرس	حماة	١٣٧٢
« الثانى	من المدفعية المشاة	الاسكندرية	٢٣٤٩
« الثالث	« «	حلب	١٩٤٩
« الأول	« الراكبة	حمص	٩٨٢
« الثانى	« «	دمشق	١٠٠٧
أربع كتائب	من المدفعية	عكاء	٣٣٧
الأورطة الأولى	« «	الحجاز	٣٧٩
الآلاى الأول	من مشاة الحرس	عينتاب	٣٠٤٨
« الثانى	« «	مرعش	٢٦٤٥
« الثالث	« «	حلب	٢٤٣٥
« الأول	المشاة(الأورطةالخامسة)	السودان	٤٥٤٧
« الثانى	من المشاة	عينتاب	٢٢٥١
« الثالث	« «	اليمين	١٥٢٦
« الرابع	« «	مرعش	٢٥٩٣
« الخامس	« «	أدنة	٢٦٢٩
« السادس	« «	كلس	٢٣٦٢
« السابع	« «	الحجاز	٢١٩٢
« الثامن	« «	السودان	٣٣٩٦
« التاسع	« «	حلب	٢٣٠٤

(تابع) الجيـــوش النظاميـــة

وحـــدتهـا	نـــوعهـا	مراكزها	عددها
الآلاى العاشـــر	من المشاة	حلب	٢٠٥٤
« الحادى عشر	« «	أورفـــة	٢٣٣٨
« الثانى عشر	« «	عينتـاب	٢٣٢٦
« الثالث عشر	« «	الحجاز	١٢٢٥
« الرابع عشر	« «	حلب	١٩٨٨
« الخامس عشر	« «	الدرعيـــة	٢٥٥٥
« السادس عشر	« «	كندية	٣١٤٩
« السابع عشر	« «	أورفـــة	٢٣٦٩
« الثامن عشر	« «	عكاء	٢٠٤٩
« التاسع عشر	« «	الحجـاز	٢٣٤٩
« العشرون	« «	اليمن	٢٦٧٧
« الحادى والعشرون	« «	الحجاز	٢٣٦٣
« الثـانى والعشرون	« «	أورفـــة	٢٢١٢
« الثالث والعشرون	« «	ينبـــع	٢٣٤٢
« الرابـع والعشرون	« «	أنطاكيـــة	٣١٣١
« الخامس والعشرون	« «	القـــدس	١٧٥٥
« السادس والعشرون	« «	القـاهرة	٣٣١٨
« السابـع والعشرون	« «	الجـــديدة	٢١٢٩
« الثـامن والعشرون	« «	«	٢٤٤٦
« التاسـع والعشرون	« «	أدنـــة	٣١٧٣

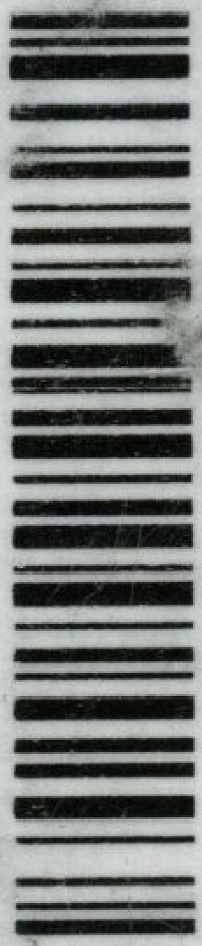
(تابع) الجيــوش النظاميــة

وحـــداتها	نـــوعها	مراكزها	عددها
الآلاى الثلاثون	من المشاة	حماة	٢٩٢٥
« الحادى والثلاثون	« «	حلب	٢٤٠١
« الثانى والثلاثون	« «	القاهرة	٣٣١٨
« الثالث والثلاثون	« «	الاسكندرية	٢٦٠٤
« الرابع والثلاثون	« «	كلس	٢٥٦٤
« الخامس والثلاثون	« «	القاهرة	٣٣١٨
« الأول	من فرسان الحرس	اللاذقيـــة	٧٩٦
« الثانى	فرسان الحرس المدرعون	بيسان	٨٤٤
« الأول	من الفرسان	أورفـــة	٨٢٥
« الثانى	« «	زميـــة	٨٣٠
« الثالث	من الفرسان فى الطريق إلى	الاسكندرية	٨٤٧
« الرابع	من الفرسان	أدنـــة	٦٧٨
« الخامس	من الفرسان فى الطريق إلى	الاسكندرية	٨٤٧
« السادس	من الفرسان	دمشـــق	٧٧٠
« السابع	« «	طرســوس	٧٤٣
« الثامن	« «	دمشـــق	٧١٢
« التاسع	من الفرسان فى الطريق إلى	الاسكندرية	٨١٦
« العاشـــر	من الفرسان	عكاء	٧٦٨
« الحادى عشر	« «	كلس	٧٥٦
« الثانى عشر	« «	طرســوس	٦٦٢

(تابع) الجيـــوش النظـاميـــة

وحـــداتها	نـــوعها	مراكزها	عددها
الالاى الثالث عشر	من الفرسان	أورفـــة	٨٠٦
أورطـــة	الجنود الأقدمين	القـاهرة	٣٩٨٠
الآلاى الأول	من حمـلة البلط	عكاء	٨١٣
الأورطة الأولى	من الجنود الأقدمين	الاسكندرية	٧٩١
أورطتـان	« «	طرابلس	١٦٤١
أورطـــة	« «	دنقـــلة	٨٥٥
«	من المهنـدسين	أولب	٧٥٨
«	من حمـلة البلط	الاسكندرية	٨٠٨
كتيبة	للألغـام نسافون	القـاهرة	٩٤
أساس الضباط		«	٢٨٥
١٦ بلوكا	من الجنود الأقدمين	موزعين فى أنحاء مصر	١٦٧١
صانعو المفرقعات		مصر القـــديمة	١٨٥
آلاى قـــرابه	ذوو القرابينـــه	فى معية رئيس القوات	١١٥٢
كتيبة قـــرابه	« «	الحجـاز	١٠٦
بلوكان	من الجنود الأقدمين	«	٢٠٠
		المجمـــوع	١٣٠٣٠٠

مشتملات الموضوع


Bibliotheca Alexandrina
1240058